

كلية دار العلوم
قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.

قبائل البجة في صعيد مصر في العصر الإسلامي
دراسة سياسية حضارية من بداية الفتح العربي الإسلامي لمصر حتى سقوط الدولة الفاطمية

في الفترة من (٢١ – ٥٧٠هـ / ٦٤١ – ١١٧٤م)

بحث لنيل درجة الماجستير

مقدم من
الباحث / محمد خليفة ركابي حمدالله

إشراف
أ. د /نعمة علي مرسي
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم – جامعة المنيا.

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

﴿ إهــداء ﴾

إلى والــدى ....

إلى والــدتى .....

أطال الله فى عمريهما

مبارك رمضان أبو زيد

شكــــــر

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلال وجهه الكريم على ما هداني له ووفقني فيه لإتمام هذه الرسالة .

يطيب لي أن أتقدم بوافر شكري ، وعظيم عرفاني لأستاذي الدكتور **محمد أحمد محمد أحمد** ، أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب بأسيوط جامعة أسيوط الذي كان له فضل الإشراف على هذا البحث وأمدني بعلمه الوفير وبذل معي من الجهد ما أعانني على إتمام رسالتي وبإرشاداته المستمرة في ظهور هذه الرسالة بهذا الشكل .

كما أتقدم بأسمى آيات الشكر للدكتور **أسامة محمد فهمي** ، مدرس التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بأسيوط جامعة أسيوط والذي كان له أيضا فضل الإشراف على هذا البحث فضلا عما أمدني به من مصادر ومراجع أعانتني لإتمام هذه الرسالة .

وأتوجه بالشكر والتقدير لكل من ساهم في إتمام هذه الرسالة ، وأخص بالشكر العالم الجليل الأستاذ الدكتور **عصام الدين عبد الرؤف الفقي** أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب جامعة القاهرة الذي منحني من وقته وعلمه الكثير وإرشاداته العظيمة في طول فترة إعداد هذا البحث .

وأتوجه بالشكر والتقدير لكل من ساعدني على ظهور هذا العمل المتواضع الذي أبتغي به مرضاة الله سبحانه وتعالى .

مبارك رمضان أبو زيد

رسالة ماجستير في التاريخ الاسلامي

اسم الباحث / محمد خليفة ركابي حمد الله

عنوان الرسالة

قبائل البجة في صعيد مصر في العصر الإسلامي
دراسة سياسية حضارية من بداية الفتح العربي الإسلامي لمصر حتى سقوط الدولة الفاطمية

في الفترة من (٢١ - ٥٧٠هـ / ٦٤١ - ١١٧٤م)

القسم / التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية

كلية / دار العلوم

الجامعة / المنيا

سنة المنح /١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

الدرجة العلمية / ماجستير



كلية دار العلوم
قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

قبائل البجة في صعيد مصر في العصر الإسلامي دراسة سياسية حضارية من بداية الفتح العربي الإسلامي لمصر حتى سقوط الدولة الفاطمية

في الفترة من (٢١ – ٥٧٠هـ/ ٦٤١ –١١٧٤م).

بحث لنيل درجة الماجستير
مقدم من

الباحث / محمد خليفة ركابي حمدالله

هيئة الإشراف

الاسم	أ.د / نعمة علي مرسي
الوظيفة	أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
الكلية - الجامعة	كلية دار العلوم – جامعة المنيا

لجنة الحكم

الاسم	أ.د/ نعمة علي مرسي
الوظيفة	أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (رئيساً للجنة ومناقشا)
الكلية - الجامعة	كلية دار العلوم – جامعة المنيا

الاسم	أ.د/ كرم كمال الدين الصاوي باز
الوظيفة	أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ومدير مركز الدراسات السودانية (مناقشا)
الكلية - الجامعة	معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة

الاسم	أ.م.د/ أحمد التوني عبد اللطيف
الوظيفة	أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامي (مناقشا)
الكلية - الجامعة	كلية دار العلوم - جامعة المنيا

الدراسات العليا :
ختم الإجازة :
اجزت الرسالة بتاريخ :
موافقة مجلس الكلية :
موافقة مجلس الجامعة :

الإهداء

إلى من خلق الإنسان وعلمه، وأحسن صورته وقومه، جعل له التاريخ فسجله، ليستفيد منه بني البشر الموعظة ويعتبره، من فوائد العلوم وما حصله، هذا العمل مني فقدمته، أنا عبدك الضعيف فاحسبه تقرباً إليك فتقبله.

سبحانك اللهم وبحمدك

سبحان الله العظيم.

وإلى الذي كتب له تاريخ الأرض والسماء، محمد عبد الله ورسوله وخاتم الأنبياء، أرسله ربه بالهدى ودين الحق والعقيدة السمحاء، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها سواء، لا يزيغ عنها إلا الهالكون الأشقياء، فاللهم صلي عليه وعلى إخوانه الأنبياء، وعلى آله وصحبه الكرام النجباء، واكتب لنا بهذا العمل درجة عند لقائه يوم اللقاء.

اللهم صلي أفضل على حبيبي وهادينا سيدنا

محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا.

وإلى أبي الذي أنبتني وأكرمني ورعاني، وأرشدني إلى طريق العلم وحباني، وإلى أمهاتي اللاتي عوضاني عن فقد الأم بعظم الحنان، وأسرتي واخوتي اللتان ساعداني، وأساتذتي الذين علموني، وكل من قدم لي يد العون وأثراني، وكل من جعلني ابنا للعلوم وهداني، فلهم مني الشكر والدعاء بدخول الجنان.

فارحمهم اللهم جميعاً برحمتك واجعلهم من عبادك المخلصين.

شكر وتقدير

أتقدم بعظيم الشكر وخالص التقدير والعرفان بالجميل إلى :

أستاذتي الدكتورة / نعمة علي مرسي

أستاذة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم- جامعة المنيا.

وأستاذي الدكتور / محمد سيد كامل

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم- جامعة المنيا.

لما قدماه لي من عون وتوجيه وإرشاد جزاهما الله عنا الخير ووفقهما لآدائه.

فلهما مني جزيل الشكر وخالص التقدير والاحترام.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي لطف بالبريا إذ براهم، وبروح أهل الصلاح والفلاح وسرّ، واطلع على ضمير من نوى وسر من أسر. سبحانه قدر الاشياء؛ فقدر منها الخير ومنها قدر الشر. سبحانه بقدرته تقطع المراكب البحر، ويقطع المركوب البر.

وصلاة وسلاماً على المبعوث رحمةً للعالمين، من عمت رسالته البحر والبر، وعلى أبي بكر الذي ما احتلب يوماً إلا درّ، وعلى عمر الذي ما قُدم يوماً نحو الوفاء فرّ، وعلى عثمان الذي كانت عيناه للحياء مقر، وعلى عليّ الذي ارتفع بالأرومة فأبر وبرّ، رحماهم رجالا بهم اقتدينا واقتفينا، فعلمونا إلى أين يكون المستقر. وبعد ....

* *سبب اختيار الموضوع:* حقيقةً تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه دراسةً واعيةً وشاملةً تحصيلية، عن قبيلة وإقليم يعدان من أهم ما أثر في حضارة جنوب الصعيد المصري عبر العصور القديمة المختلفة عامةً. والعصور الإسلامية الوسطى خاصة. وذلك منذ الفتح العربي لمصر حتى سقوط الدولة الفاطمية.

ولعل ما يكمن في داخلي من أهمية نحو ذاتية ذلك الموضوع؛ فإنني وأحداً من ملايين المعجبين، وأحد الباحثين الذين فتنوا بذلك الأثر الذي يروح نحو فكر وتاريخ وحضارة امتدت من شمال أسوان إلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة جنوبا، ومن البحر الأحمر شرقاً إلى نهر النيل ونهر اتبرا غرباً.

وقد يتوهم عدد من البشر خلال نظرته الأولى لهذا الإقليم أنه أحد الأقاليم الصحراوية القاحلة التي تخلو من النشاط الآنساني ودروبه. والحقيقة: أن هذا الإقليم شهد نشاطاً بارزاً ومتنوعاً في شتى مجالات الحياة البشرية؛ وذلك لما حظي به من مقومات جغرافية طبيعيةً، وظروف مناخيةً متميزةً، وموارد مائيةً مناسبةً. جعلت منه بيئةً صالحة يمارس فيها السكان الأصليون – البجة – حياتهم فترةً طويلة، امتدت منذ استقرار السلالات الإفريقية القارة إلى اليوم.

ومع بدايةً قيام الحضارة الآنسانية استجد عامل هام من عوامل ازدهارها، تمثل هذا العامل في التعامل التجاري؛ ذلك الذي دفع بالشعوب إلى الآنتقال للمناطق الحيوية. وبما كان لإقليم البجةً من مميزات، جعلت منه مركز جذب لشعوب الحضارات المختلفةً على مر العصور، أتاح خلالها الفرصةً الجليلةً للبجة أن يتصلوا بهذه الشعوب والاقتباس من حضارتهم، فتعلموا الزراعةً واستئناس الحيوان واستخراج المعادن.

ولعل أول من اتصل بالبجةً من شعوب الحضارات؛ وأبرز أهميةً هذا الإقليم ودور سكانه، هم أولئك الذين أقاموا أول حضارةً على ضفاف النيل، وهؤلاء هم فراعنةً النيل. وتبدو مظاهر اتصال المصريين بالأقاليم الشرقيةً للبجةً في استخراج الذهب التي أوردها عدد من الباحثين بوصفها العامل الأساسي في الاتصال بين

المصريين والبجة؛ فإن حكم تجاور الأوطان كان له الأثر الأكبر في هذا الاتصال والذي وضحت أكبر مظـاهره في استخدام الفراعنة لعنصر البجة كعسكر وجنود لدولتهم.

وتلا الفراعنة البطالمة اليونان، وذلك حين ملكوا مصر فاعتنوا بالأجزاء الجنوبية الشرقية للإقليم، لمـا كان لهم من مآرب في استنباط الذهب وجلب الأفيال، فأنشأوا الموانئ على ساحله. غير أن الرومان انـصرفوا عن هذا الإقليم واقتصر اتصالهم بالبجة الشماليين الذين عاشوا في مصر أو على تخـوم مـصر فـي شـمال السودان. وكانوا يطلقون على هؤلاء اسم البليميين Plemmyes وإن كان هناك شك في أن هؤلاء هم البجـة أو جماعة أخرى.

وفي ذلك العصر كانت دولة أكسوم قد نمت وقويت شوكتها، وأخذت تغير على البجة جهـة الجنـوب، ودار بين الفريقين منازعات تثور أحياناً وتهدأ أخرى. لم يترتب عليها في النهاية إخضاع البجة تحـت طاعـة الأحباش، لكن هذه الأحداث مثلت أحد مظاهر الاتصال المتنوع والمتباين للبجة مع العناصر البشرية المختلفة.

وعلى الرغم من طول الفترة الزمنية التي اتصل فيها البجة بالعناصر الشمالية والجنوبية لـم يفقـدوا اتصالهم بالنوبيين أيضاً من جهة الغرب، ولا العرب خلال تجارتهم في البحر الأحمر جهـة الـشرق. غيـر أن الاتصال العربي كان له الأثر الأكبر في إبراز قيمة هذا الإقليم ودور سكانه في المنطقة. وإن كان قبـل الفـتح العربي لمصر بزمن طويل شهدت أرض البجة وفود جماعات عربية هاجرت إليها من شبه الجزيـرة العربيـة، جاء معظمها تحت تأثير الأحوال السيئة، وجاء الباقون من أجل التجارة، وآثر بعض الذين جاءوا البقاء علـى أرض البجة زاهدين في حياة الصحراء القاسية.

إلا أن بعد الفتح الإسلامي لمصر ازدادت أعداد الجماعات العربية التي وفدت على أرض البجة، فجاءت مجاهدة في سبيل الله لتستقر بعد ذلك لتحقق الرسالة التي خرجوا من أجلها وتأمين حدودها. غير أن بنود عقد الأمان الذي أعطاه عبد الله بن الجهم لكانون بن عبد العزيز عظيم البجة في عام ٢١٦هـــ / ٨٤١م، والـذي كان أهم وأبرز بنوده أن أرض البجة أصبحت أرض إسلامية تابعة لدولة المسلمين، فأتـاح أمـامهم الفرصـة للتنقل في هذه البلاد بحرية والاستقرار فيها بأمان.

وما لبث أولئك العربان فترة من الزمن، حتى لمع بريق الذهب في أرض البجة فلفت أنظارهم وجعلهـم يطمحون في مشاركة ثرواته، مما نتج عن ذلك ازدياد تدفق القبائل العربية إلى هـذا الإقلـيم والانـتشار فـي أنحائه، مما ترتب عليه تنشيط حركة التعريب وانتشار الإسلام بين البجة.

ومنذ ذلك الحين أصبح إقليم البجة أرضاً وشعباً مركزاً إسلامياً، مارس دوره السياسي والحضاري فـي المنطقة. ولعل أبرز القبائل التي ساهمت في هذا الدور هي قبيلة ربيعة، تلك القبيلة التي وفدت بطونهـا إلـى مصر في عام ٢٣٨هـ، وانتشرت في أنحاء متفرقة ـ وأحدها الطائفة التي استقرت في أرض البجة ـ هـذه الطائفة التي استطاع أبناؤها أن يختلطوا مع أهالي تلك البلاد التي نزلوا فيها، فـصاهروهم وانـدمجوا معهـم اندماجاً تاماً؛ بعد ما استفادوا من نظام الوراثة السائدة عند قبائل البجة، وقد انتهت هذه العلاقة بسيطرة ربيعة على تلك المنطقة، وأقامة إمارة حاكمة في العلاقي نقلت بعدها إلى مدينة أسوان لتشهد عصرها الذهبي.

لذلك سعيت جاهداً من خلال البحث والتحليل للوقوف على هذه الحقائق واستكمال فجوة التاريخ الإسلامي المصري لبيان دور مصر الإسلامية محلياً وإقليمياً، حتى يكتمل الوعي التاريخي لدينا لأن فكر التاريخ يعبر عن ذات الإنسان وهوايته من خلال إدراك الذات والهوية.

الدراسات السابقة لموضوع البحث:

من خلال البحث والدراسة لم أعثر في الدراسات السابقة إلا على مجموعة محدودة من المقالات التي لا يتعدى بعضها صفحات في مجموعة الكتب والدوريات التي تناولت الموضوع في صورة نمطية واحدة، فهي تناولت الحديث عن النمط الاجتماعي لقبائل البجة وعلاقتهم بالعرب دون الاتجاه للدراسة وبحث الجوانب الهامة الأخرى وهي كالتالي:

أولا الكتب:

١- الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان، القاهرة ١٩٧٢م.

٢- عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، ط١ القاهرة ١٩٧٦م، دار المعارف بمصر.

٣- محمد عوض: الشعوب والسلالات الأفريقية، القاهرة ١٩٦٥م.

: السودان الشمالي سكانه وقبائله، القاهرة ١٩٥١م.

٤- محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى ط٢، ١٩٩٦م.

٥- نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، القاهرة ١٩٠٣م.

ثانياً الدوريات:

١- مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة، المجلد ٢١ جـ٢ ديسمبر ١٩٥٩م، طبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤م، المقال الأول، مصطفى محمد مسعد: البجة والعرب في العصور الوسطى.

٢- كتاب الأبحاث الصادر عن مؤتمر أسوان عبر العصور الفترة من (٣ – ٥ أبريل ٢٠٠١) إعداد وتقديم د/ عمر صابر عبد الجليل، ط١ أسوان ٢٠٠٢م، كلية الآداب بأسوان جامعة جنوب الوادي. المقال الثالث من المحور الثالث: أحمد حسين النمكي: أسوان وصحراء مصر الشرقية.

٣- كتاب الحدود المصرية والسودانية عبر التاريخ، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩م، تاريخ المصريين رقم ١٦٤، أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة (٢٠ – ٢١ ديسمبر ١٩٩٧م) إعداد د/ عبد العظيم رمضان.

مقال الجلسة الثالثة: أ. د/ رجب محمد عبد الحليم: ميناء عيذاب ووادي العلاقي وأثرهما في علاقة مصر بالسودان حتى نهاية القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي.

لذلك أسعى جاداً لتقديم دراسة وافية عن هذا الموضوع.

أبرز الصعوبات التي واجهتني خلال البحث:

١- ندرة المصادر وشحها في الموضوع، ويرجع السبب في رأيي إلى تأخر قدوم المؤرخين العرب إلى بلاد البجة.

٢- لم يتم توثيق تاريخ وأحداث هذه القبائل بشكل كامل، والدليل على ذلك وجود حلقات مفقودة منه في جوانب متعددة.

٣- ضياع وفقد أهم المصادر التي تناولت تاريخ قبائل البجة، وهو (كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل) لابن سليم الأسواني – ويرجع السبب برأيي في ضياع هذا الكتاب الهام وعدم نسخه إلى غياب الدافع لدى المؤرخين في الكتابة عن هؤلاء القوم.

٤- تكرار بعض الأحداث في المصادر المتنوعة، ولكن بتواريخ مختلفة، وربما مرجع ذلك النقل دون العناية بالمراجعة والتمحيص بالنحو الدقيق.

٥- انعدام المعلومات المباشرة وعدم إفراد أنماط كتابية تشمل جوانب حياتهم وخاصة الجانب الاقتصادي.

٦- تناولت غالبية المصادر التي ذكرت أحداث البجة بصورة عرضية دون الاهتمام بالتفاصيل والنتائج مما أدى إلى اتساع الفجوة بين الأحداث التاريخية.

٧- تناول المراجع والأبحاث الحديثة للجوانب الاجتماعية وعلاقة البجة بالعرب وإغفال الجوانب الحضارية.

٨- عرض بعض المراجع النتائج الغير صائبة لعدم استخدام أساليب البحث التاريخي المناسبة للخروج بنتائج مقاربة تعين على رسم صورة لتاريخ البجة.

ورغم هذه الصعاب حاولت جاهداً باستخدام أساليب البحث التاريخي المتنوعة بعون من هيئة الإشراف للخروج بنتائج صائبة لرسم الصورة الحقيقية لتاريخ أولئك القوم.

المناهج والأساليب المستخدمة في البحث:

لقد اعتمدت في هذا البحث على مجموعة من المناهج والأساليب البحثية في التاريخ الإسلامي، التي جعلتني أتوصل إلى مجموعة من النتائج الهامة وذلك بتوجيه وإرشاد من هيئة الإشراف، وهي كالتالي:

أ- المنهج الوصفي وأنماطه:

- الدراسات المسحية .
- دراسة العلاقات (دراسة الحالة – دراسة الارتباط – الدراسة المقارنة للأسباب).
- دراسات تطويرية.
- دراسات تتبعية.

ب- أسلوب التحقيق العلمي .

جـ- أسلوب التحليل التراكمي.

د- أسلوب الموضوعية واليقين.

هـ- أسلوب تحليل السببية (العلية).

حـ- أسلوب التحديد.

ط- أسلوب الترتيب على أساس الزمن والموضوع.

ي- الأسلوب الكمي.

ك- الأسلوب المقارن.

ل- أسلوب الاستنتاج.

ولقد توصلت من خلال هذه المناهج والأساليب إلى دراسة بحثية تاريخية مقاربة تعين على رسم صورة أقرب إلى الواقع لتاريخ هذه القبائل وإيضاح دور مصر في المنطقة الجنوبية.

عرض لأهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذا البحث:

اعتمدت في بحثي هذا على عدد وافر من مصادر التاريخ الإسلامي، كما اعتمدت أيضاً على عدد كبير من المراجع الحديثة، العربية منها والأوربية. وسأقتصر في هذا العرض على أهم المصادر والمراجع التي تتصل اتصالاً مباشراً بموضوع البحث، والتي برزت أهميتها من خلال معالجتي لهذه الدراسة. ويأتي على رأسها المصادر المطبوعة في مقدمتها بالنسبة لموضوع البحث:

- كتب الرحلات :

1- ومن أهمها كتابي" البلدان" و"تاريخ اليعقوبي" لليعقوبي، المتوفي سنة 292هـ والذي أفادني كثير حديثه عن البجة ومواطنهم ومواضع الذهب والزمرد في بلادهم.

2- كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودي، المتوفي سنة 346هـ. والمسعودي عرض معلومات كتابه من مشاهداته خلال أسفاره العديدة. فقد كان يكثر خلالها الاستقصاء والبحث فجمع الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد.

وتأتي أهمية كتاب المسعودي بالنسبة لبحثي؛ في أنه كان معاصراً لبشر ابن إسحاق رئيس إمارة ربيعة في وادي العلاقي ببلاد البجة وأنه تحدث في إسهاب عن ظروف نشأة هذه الأمارة وقيامها في أرض البجة.

3- ويستوي في الأهمية مع مروج الذهب؛ كتاب "صورة الأرض" لابن حوقل، الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وكان معاصراً للمسعودي ومعاصراً لإمارة بني الكنز الأولى في وادي العلاقي، وكان ابن حوقل من كبار الرحالة العرب الذين جابوا الأمصار الإسلامية، واستمر في تجواله ثلاثين عاماً، وقد أمدنا بمعلومات شيقة وهامة عن الشعوب التي زارها. كما أمدني في بحثي بمعلومات طيبة عن قبائل البجة في مختلف جوانب حياتهم، وعن ظروف اختلاط القبائل العربية بهم وخاصة قبيلة ربيعة وكيفية وصولهم إلى رئاستها.

4- ويأتي بعد ذلك كتاب "سفر نامة" لمؤلفه الرحال الفارسي ناصر خسرو، المتوفي سنة ٤٧٦هـ. وقد جاب ناصر خسرو كثيراً من البلاد الإسلامية وخاصة الشام وفلسطين ومصر والحجاز، وأودع كتابه هذا كل ما شاهده في تلك البلاد. وكانت زيارته لمصر سنة ٤٣٩هـ في أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، واستمرت هذه الزيارة لمدة سنتين استطاع خلالها التعرف على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمصر في عهد هذا الخليفة.

هذا وقد زار ناصر خسرو أسوان وعيذاب وقدم لنا وصفاً طيباً لهما في عهد ازدهار إمارة ربيعة الأولى.

٥- وتلي رحلة ناصر خسرو في الأهمية "رحلة ابن جبير". الذي رحل إلى مصر من الآندلس ثلاث مرات. ثـم أدركته الوفاة بالإسكندرية سنة ٦٠٤هـ. وأثناء رحلته الثانية قد زار ابن جبير الوجه القبلي في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي. وسافر من قوص إلى عيذاب بطريق الصحراء ومن عيذاب ركب البحر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

وأمدنا ابن جبير بمعلومات هامة عن عيذاب وعن أهميتها بالنسبة للتجارة والحج. كما أمدنا بمعلومات هامـة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مصر من صلاح الدين، وحدثنا أيضاً عن قبائل البجـة فـي الصحراء الشرقية وثغر عيذاب.

٦- أما الرحالة ابن بطوطة، المتوفى سنة ٧٧٩هـ فيعتبر من أعظم الرحالة المسلمين ومن أكثرهم طوفاً فـي البلاد. وقد وصف لنا ابن بطوطة في رحلته مشاهداته أثناء رحلاته الثلاثة، وقد أتيح له وصف مشاهداته عـن قبائل البجة وعيذاب، أثناء رحلته الأولى سنة ٧٢٦هـ، ورحلته الثانية سنة ٧٤٩هـ.

- المصادر التاريخية المطبوعة:

فمن المصادر الأصلية التي أفدت منها في بحثي هذا كتاب "فتوح الشام" للواقدي، وكتاب "فتوح مصر وأخبارها" لابن عبد الحكم، وكتاب "فتوح البلدان" للبلاذري.

ولما تناولت في بحثي هذا مظاهر الحياة السياسية للبجة في عهد الدولة الطولونية كان لازماً علـى أن أرجـع إلى أهم مصادر التاريخ الإسلامي المعاصرة للدولة الطولونية. وأعني بهذا: المؤرخ البلـوي، المتـوفي فـي النصف الأول من القرن الرابع الهجري، الذي ألف كتابه المشهور "سيرة ابن طولون" الذي أفادني في أنه حمل معلومات عن نشاط البجة، ونشاط الثائر المعروف عبد الحميد العُمري، الذي لعـب دوراً هامـاً بـلاد البجـة والنوبة.

ولا يفوتني أن أشير إلى مؤلفات المقريزي – على وجه التخصيص – الكبيرة منها والصغيرة فقد استفدت منها جميعها. وفي مقدمتها كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" نظراً لأهمية ما جاء به عن بـلاد النوبـة وقبائل البجة نقلاً عن كتاب "أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل" لمؤلفه ابن سليم الأسـواني المتـوفي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. فهذا الكتاب المفقود الذي لم يعثر على نسخة منه بعد، يعتبر مـن أهم الكتب التي كتبت عن تارخ النوبة والبجة. وكان ابن سليم قد كتبه بعد سفارة قام بها إلـى بـلاد النوبـة بتكليف من القائد الفاطمي جوهر الصقلي إلى ملكها جورج الثاني، واستقى معظم المعلومات التي دونها به عن النوبة من سيمون ولي عهد النوبة آنذاك. وقد أهدى ابن سليم هذا الكتاب بعد فراغه منه إلى الخليفة الفاطمي العزيز بالله.

وفيما يختص بالفصل الثالث الذي تحدثت فيه عن مظاهر الحياة الاقتصادية عند البجة وتناولـت فيـه كيفيـة استخراج الذهب والزمرد من أرض البجة فقد اطلعت على كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريـسي، وكتاب "أزهار الافكار في جوهر الأحجار" للتيفاشي، وكتاب "نخب الذخائر في أحوال الجواهر" لابـن الأكفـاني، وكتاب "الجماهر في معرفة الجواهر" للبيروني، و"الروض المعطار في أخبار الأقطار" للحميري.

وهذا يجب أن نشير – ونحن في صدد حديثنا عن المراجع الحديثة التي أفدت منها في بحثي – إلى ما كتبه المستشرقون عن بلاد النوبة والسودان عموماً، وأشاروا خلال كتابتهم عن هذه البلاد إلى تاريخ قبائل البجة. ويأتي في مقدمة هؤلاء المستشرق: بول Paul, A. الذي قدم لنا أهم الكتب الحديثة التي كتبت عن تاريخ البجة وهو كتاب:

- تاريخ قبائل البجة في السودان

A History of the Beja Tribs of The Sudan

ويأتي بعد ذلك ماك مايكل Mac Michael في الأهمية الذي قدم لنا كتابه:

- تاريخ العرب في السودان

A History of the Arabs in The Sudan

– ولا يفوتني أن أشير إلى ما كتبه سليجمان Seligman من قول عن البجة وسلالتهم في:

"Some Aspects of The Hametc problem in the Anglo Egyptian Sudan" J. R. A. S

وأهمية هذه الكتابات مستمدة من مؤلفيها التي استقت معلوماتها من كتب الأنساب التي وجدتها في السودان، وذلك لأنهم عاشوا في السودان مدة طويلة كانوا يشغلون خلالها وظائف حكومية هامة سهلت لهم الاطلاع على المصادر النادرة ويسرت لهم الاتصال بكبار رجال القبائل الذين زودوهم بأهم المعلومات عن تاريخ السودان والنوبة والبجة. فقد أنصبت دراستهم صفة أصلية على ميدان البحث.

أما عن المراجع العربية الحديثة التي استفدت منها في دراستي هذه فيأتي على رأسها ما كتبه السادة الاساتذة الافاضل: نعوم شقير، والدكتور محمد عوض محمد، والدكتور مصطفى محمد مسعد، والدكتور الشاطر بصيلي عبد الجليل، والدكتور صلاح الدين الشامي، والدكتور عطية القوصي، والدكتور محمود الحويري.

خطة الدراسة:

وهي عبارة عن أربعة فصول يسبقها المقدمة ودراسة لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذا البحث، ويليهم أهم النتائج التي توصلت إليها وهي كالتالي:

* المقدمة: وقد عرضت من خلالها سبب اختياري لهذا الموضوع، ثم تبعتها بالدراسات السابقة التي تناولت موضوع البحث، وما هي أبرز الصعوبات التي واجهتني، وما هو المنهج المستخدم في هذه الدراسة.

* عرض لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذا البحث: وتناولت فيه عرض أهم المصادر والمراجع التي تتصل اتصالا مباشراً بموضوع البحث، والتي برزت أهميتها من خلال معالجتي لهذه الدراسة.

* الفصل الأول: "جغرافية البجة وأصولهم، وفيه" تحدثت عن موطن البجة وموقعه الجغرافي وأهم ما يميزه من تضاريس طبيعية متنوعة. ثم عرضت أصل الاسم وقدمت الإحتمالات المقترحة لتفسير المصطلح، وهذا اقتضى التحدث عن علاقة البجة بأصحاب الحضارات القديمة الشمالية منها والجنوبية. ثم عالجت الأصل السلالي من خلال عنصر التعريف بالسكان وأصولهم وقدمت من خلاله الطباع الخلقية والصفات الجسمانية

لأولئك البجة، وذلك حتى تنكشف شخصية البجاوي في تعامله مع نفسه وغيره. وبعدها قمت بعرض العقائد والأديان التي ظل يمارسها البجة حتى ظهور الإسلام لتصبح بعد ذلك أهم مراكز نشر الثقافة والفكر العربي الإسلامي في المنطقة. وقد أنهيت هذا الفصل بالحديث عن لغة البجة وما طرأ عليها من تأثير وتأثر من خلال علاقهم بأنفسهم والآخرين.

* أما الفصل الثاني: فقد تحدثت فيه عن "مظاهر الحياة السياسية عند البجة". وقد قسمته إلى مظاهر خارجية وداخلية، ومن أولى المظاهر الخارجية التي تحدثت عنها موقف البجة من الفتح العربي لمصر وما تلاه من سنوات من عدم وجود صلة عدائية مبكرة بين العرب الفاتحين والبجة. ثم تحدثت بعدها عن البجة في عصر الولاة، وهذه الفترة اتسمت بالعداء والتمرد ضد السلطة العربية في مصر، مما نتج عن ذلك عدد من المعاهدات والعقود التي كانت تنقض من حين إلى آخر لعدد من الأسباب التي تقدمت بعرضها، كما قمت بعرض بنود هذه المعاهدات والعقود وتقدمت بدراسة تحليلية لها وما أدت إليه من نتائج. ثم تناولت الدور السياسي للبجة منذ بداية قيام الدولة الطولونية حتى توقف النشاط الحربي لهم تماماً، وقد استهللت الحديث في ذلك عن شخصية كان لها الفضل في تثبيت الأقدام العربية في هذا الإقليم، وهي الشخصية التي عرفت باسم "عبد الحميد العُمري" وقد تناولت نشأته، وعلاقته بالدولة الطولونية، ودوره السياسي في بلاد البجة والنوبة إلى أن قتل، لتصبح السيطرة بعده في يد قبيلة ربيعة، وقد عرضت الأحداث التي أدت إلى ذلك وكيف استفادت ربيعة منها حتى نجحت في النهاية من أقامة إمارتها العربية الأولى في بلاد البجة. كما كانت لربية علاقة بأهالي أسوان وما جاورها من بلاد النوبة الشمالية، وقد انتهت أيضاً هذه العلاقة بسيطرة ربيعة على تلك المنطقة.

أما المظاهر الداخلية من نظم إدارية وسياسية داخلية فقد بدأتها بنظام الحكم والإدارة المتبع عند تلك القبائل، والذي أثبت أنه نظام قبلي ولكي أقف على حقيقة ذلك تقدمت بدراسة تحليلية قامت على المقارنة بين ما أورده اليعقوبي من جانب وابن حوقل والمقريزي من جانب آخر. ثم قمت بعرض للنظام المتبع في وراثة الحكم، وهو نظام وراثة تعلق بالنسب إلى الأم، وعرضت كيف استفاد العرب القادمين إلى أرض البجة من هذا النظام بعد مصاهرتهم للبجة لتصبح مقاليد الحكم في النهاية بين أيديهم. ونهيت القول عن مظاهر السياسة الداخلية بالحديث عن المنازعات والخلافات التي تعرض لها مجتمع البجة بين أنفسهم وأسبابها رغم صمت المصادر التاريخية عن ذكر أية أخبار عن ذلك. ورغم ذلك القصور فقد حاولت بحث العلاقات التي قامت بين قبائل البجة وما يحتمل أن تكون عليه.

* الفصل الثالث: تحدثت عن" مظاهر الحياة الاقتصادية عند البجة"، وقد بدأت هذا الفصل بالحديث عن الزراعة والري وما قامت عليه من موارد المياه المتنوعة وطريقة الري المتبعة عندهم، وهذا تطلب التحدث عن أنواع المحاصيل التي قامت عليها، ومعيشة القائمين بالزراعة. ويلي الحديث عن الزراعة الحديث عن الرعي والثروة الحيوانية، وهذا اقتضى التحدث عن حرفة الرعي وقدم عهد البجة بها، ثم تحدثت عن أهم الحيوانات التي اقتناها البجة والدفع من ذلك من خلال عنصر الثروة الحيوانية. وثالثاً تناولت الحديث عن الصناعة وما هي المواد الأولية التي قامت عليها، ثم تلاها الحديث عن أهم الصناعات والحرف التي كان أهمها استخراج الذهب والزمرد. وفي النهاية جاء الحديث عن مظاهر التجارة، وقد انقسمت إلى مظاهر داخلية

تمثلت في المراكز التجارية وأهم الأسواق، ثم أهم السلع المصدرة. ومظاهر أخرى خارجية تمثلت في أهم الطرق، والموانئ التجارية ودورها على المستوى الإقليمي والعالمي وكانت أهم هذه الموانئ ميناء باضع وعيذاب وسواكن.

*وأخيراً في الفصل الرابع: تحدثت عن"مظاهر الحياة الاجتماعية عند البجة"، وبدأت الحديث عن عناصر السكان وطبقات المجتمع، ويتبين لنا من خلال هذه الدراسة الترتيب الطبقي للقبائل وبطون هذه القبائل حسب الظهور والدور المؤثر في الإقليم. كما يتضح لنا كيف راح بعض المؤلفين أن ينسب هذه القبائل إلى البجة، وهم بأنفسهم راحوا ينتسبون إلى أنساب عربية شريفة. لذلك حاولت صائغاً فاصلاً بين القيل والقال من خلال دراسة موضوعية تحليلية ليكون هذا العمل لهم ولنا دراسة تاريخية بقدر ما أراد انطباقاً لما يقال بالحاضر لم يكن له علاقة بالماضي. وبعدها تناولت الحديث عن القبائل العربية التي استقرت بين قبائل البجة، وهذا اقتضى الحديث عن علاقة العرب بالبجة قبل الإسلام. أما بعد الإسلام فقد وفدت هذه القبائل لأسباب عدة قمت بعرضها، ثم عرضت هذه القبائل وأسماءها وما قدمته من أدوار في شتى مجالات الحياة عند البجة.

وفي نهاية هذا الفصل أوجزت الحديث عن عادات وتقاليد البجة من مسكن وملبس ومأكل وطقوس وذلك بسبب صمت المصادر التاريخية عن الحديث في ذلك. وعلى الرغم من هذا القصور، فقد حاولت بحث ما تحتمل أن تكون عليه.

* الخاتمة: وعرضت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة، ثم قمت بعرض مجموعة من الملاحق والصور التي تعين على رسم الصورة الكاملة عن قبائل البجة، ثم زينت هذه الدراسة بقائمة تضم المصادر والمراجع التي تم الرجوع إليها.

والمرجو أن أكون وفقت في كتابة هذا البحث وإخراجه على هذا النحو، وأن تثمر الصفحات ثمرتها المرجوة، وأن يضيء تاريخنا الإسلامي حاضرنا ومستقبلنا، وأن ينفع الله عز وجل بها قارئها وكاتبها إنه نعم المولى ونعم النصير. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا. والتقدم بوافر الشكر والعرفان لكل من قدم لي يد العون في إنجازه وأخص بالذكر أستاذتي الدكتورة السيدة/ نعمة على مرسي رئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة المنيا.

والحمد لله في ذي بدء ومختتم

محمد خليفة ركابي

وبين البحر الأحمر شرقاً، ونيل مصر والسودان غرباً [١]، في صحراء طولها أكثر من ألف فرسخ، وعرضها ثلاثمائة[٢]. كما أشاروا إلى أن بداية طول هذه البلاد الشاسعة تأتي من الشمال من قرية تعرف بخربة معدن الزمرد[٣] في صحراء قوص [٤]، وبين هذا الموضع وبين قوص مسافة ثلاث مراحل [5] ويمتد هذا الطول جنوباً حتى ينتهي بالمنحدرات الشمالية لهضبة الحبشة، لذلك نجد هذه البلاد جاورت أرض الحبشة من الشمال[٦]. ويأتي عرضها من ساحل البحر الأحمر شرقاً، ويمتد غرباً إلى جبال منيعة تفصل بينها وبين أرض النوبة[٧].

وهذه الأوطان لم تمثل موطن البجة في العصور الوسطى فحسب؛ بل مثلت هذه المنطقة الموطن الأصلي لهم، وذلك منذ زمن غارق في القدم، فهذه القبائل استوطنت هذا الإقليم منذ عهد الأسرة السادسة الفرعونية (2460ـ 2200ق.م)، وكان يعرف هذا الإقليم باسم إقليم (مجا) أو (مزا)[٨]، وعرف أهله القائمين به باسم (أونوت) وهو يعني الرامي من القوس[9]. وهذه الأوطان الآن هي أضيق مساحة مما كانت عليه في الأزمنة الغابرة.فمواطنهم اليوم تتألف من الأراضي الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً، ونهر العطبرة[١٠]، ثم النيل

ـ وأول حدها من الشمال آخر بلاد البجة، ومن الغرب حد علوة الشرقي. (المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ المعروف بالخطط المقريزية، جزءان ـ القاهرة 1270م، ج1 ص192، 194).

ـ وآخر هذه المملكة، مملكة الزنج (بلاد الصومال) وهو حدها الجنوبي، وكل من في بلاد الحبشة من ملوك، فهم تحت يد النجاشي يعطونه الطاعة، ويؤدون إليه الخراج، وهو على دين النصرانية اليعقوبية. (اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، طبعة بيروت 1960م، ج1 ص193).

ـ وأهل الحبشة نصارى تقرب ألوانهم من العرب بين السواد والبياض، والجميع أهل سلم، وليست دارهم بدار حرب، وما كان من جلود النمور والجلود البقرية المتمعة فيقع من ناحيتهم (ابن حوقل: صورة الأرض، الطبعة الثانية، ليدن 1938م، القسم الأول، ص56).

(١) المسعودي: مروج الذهب، ج1 ص18.

(2) ناصر خسرو علوي: سفر نامة، ترجمة وتحقيق: يحيى الخشاب، القاهرة 1945م، ص134.

(٣) خربة معدن الزمرد: هي ما تعرف بخربة الملك، وهي موضع يستخرج منه الزمرد، وهي على ست مراحل من قفط (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص355).

ـ وهذا الموضع ذكره اليعقوبي فقال عنه: أنه يبعد ثمان رحلات عن قفط (البلدان، ليدن 1891م، ص333).

(٤) قُوص: بالضم ثم السكون وصاد مهملة، وهي من المدن المصرية، وهي مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر، بينها وبين القاهرة إثنا عشر يوماً، وأهلها أرباب ثروة واسعة، وهي محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة. وهي شديدة الحر لقربها من البلاد الجنوبية، وبينها وبين قفط فرسخ وهي شرقي النيل، بينها وبين البحر الأحمر خمسة أيام أو أربعة، وقوص في الإقليم الأول، وطولها من جهة الغرب خمس وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها أربع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص413).

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج1 ص194.

(٦) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة 1316هـ، ص48.

(٧) الهمداني: مختصر البلدان، طبعة ليدن 1302هـ، ص78.

(٨)Gardiner, A, H., Ancient Egytian Onomastica, Oxford, 1947. II, p .73

(٩) سليم حسن: موسوعة مصر القديمة، مهرجان القراءة للجميع 2000م، ج10، تاريخ السودان المقارن إلى أوائل عهد بيعنجي، ص82.

(١٠) نهر العطبرة: وهو ما عرف أيضاً باسم أتبرا، وهو أحد الروافد الحبشية التي تصب في نهر النيل في المنطقة الواقعة بسهول السودان شمال خط 17ْ، وغرب خط طول 18ْ، وهذا النهر يتكون من اتحاد عدة روافد في أثيوبيا، غير أن أهمها رافد تكازي أو ستيت الذي ينبع من شرق الحبشة عند خط عرض 12ْ، ويقدر طول هذا الرافد من منبعه إلى مصبه بالعطبرة 864 كيلو متر، والمسافة بين نقطة التقاء نهر تكازي بالعطبرة،وبين مصب العطبرة في نهر النيل تبلغ نحو 500 كم وهو من الأنهار الموسمية، بحيث يجف لمدة خمسة أشهر في السنة–

الأكبر غرباً، وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية في الجنوب إلى نهاية محافظة أسوان في الشمال.[١]

وتحديداً يحد هذا الإقليم من الشمال خط وهمي يبدأ من منطقة عيذاب [٢]، الواقعة على البحر الأحمر في الشرق، وينتهي غرباً ببلدة العلاقي[٣]، الواقعة على نهر النيل، شمال مدينة وادي حلفا، ويحده شرقاً حوض البحر الأحمر، أما في الجنوب فيحده خط وهمي يمر من ساحل البحر الأحمر جنوباً من عدوة، وينتهي غرباً بنهر العطبرة في منطقة شمال بلدة القضارف جنوب السودان ويبدأ الحد الغربي بخط وهمي من شمال القضارف، ويتجه شمالاً إلى بلدة العلاقي التي أشرنا إليها من قبل[٤]. وقد تبلغ هذه المساحة حوالي ١١٠،٠٠٠ ميل مربع موزعة بين مصر والسودان وإريتريا.[٥]

ومن الجدير بالذكر أن هذا الإقليم اتصف بصفات جغرافية متنوعة، واشتمل هذا التنوع التضاريس وموارد الماء، وما يترتب على ذلك من تنوع النبات والحيوان. ولعل اختلاف التضاريس هو أكبر عامل طبيعي يؤثر في الظواهر الطبيعية الأخرى. وأكبر مظهر لاختلاف التضاريس هو وجود تلك السلاسل الجبلية الممتدة من الجنوب إلى الشمال في محاذاة البحر الأحمر، في شكل مرتفعات متصلة الحلقات، فيما عدا مكان واحد يشقه خور بركة[٦]، والملحوظ في تلك المرتفعات المحاذية للبحر الأحمر أنها تلتصق به أحياناً، حتى لا يكاد يفصلها عنه شيء، وتبتعد عنه أحياناً عنه، فتترك بينها وبينه سهلاً ساحلياً ضيقاً، يتراوح عرضه ما بين ٢٠ إلى ٣٠ كيلو متر، يضيق في القسم الأعظم من الجهات الداخلة في السودان، وأكثر اتساعاً في الجزء الداخل

- من يناير إلى مايو، وينتظم المجرى مجموعة من البرك والغدران، إلى أن يحل الفيضان حتى يمتلئ بالمياه. (د/محمد محمود الصياد، د/ محمد عبد الغني سعودي: السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1966م، ص74).

(١) محمد عوض: الشعوب والسلالات الإفريقية، القاهرة 1965م، ص246.

(2) عيذاب: هي أكثر بلاد البجة أهمية وأعلاها شهرة؛ لأنها حظيت بميناء كان ذو دور مهماً على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي. وكان هذا الميناء يستخدم للأغراض الحربية في بداية الأمر، وما لبث أن أصبح يستخدم للأغراض التجارية وأصبح أعظم ميناء تجاري في المنطقة، وبذلك أصبحت مدينة عيذاب أكبر سوق تجاري آنذاك. والآن عيذاب وميناءها أصبحت خرائب تقع شمال حلايب الحالية بنحو 20 كم عند دائرة عرض 20، 22 شمالاً كمكان مندثر. (عبد العال عبد المنعم الشامي: محاضرات في الجغرافية التاريخية، طريق عيذاب قوص خلال العصر الوسيط، القاهرة 1998م، ص28).

(٣) العلاقي: هو وادي عظيم في صحراء مصر الشرقية، ينحدر من جبال البحر الأحمر من جهة الغرب، ليصل إلى نهر النيل في المنطقة الواقعة شمال كرسكو بنحو ٥٠ كم ويبلغ طول مجراه ٣٥٠ كم ويقدر عرضه بنحو ٥٠٠٠ كم تقريباً، وهو أم المراكز التجارية في بلاد البجة لأنه يمثل أكبر مركز لاستخراج الذهب وسوقه منذ العصور القديمة، كما كان أهم مركز يربط بين عدة طرق تجارية في المنطقة خلال العصر الوسيط. (عبد العال عبد المنعم الشامي: محاضرات في الجغرافية التاريخية، الصحاري المصرية في العصر الوسيط، القاهرة ١٩٨٧م، ص ١٢٣).

(٤) الشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، القاهرة ١٩٧٢م، ص١٤٥.

(٥) مصطفى سعد: البجة والعرب ص١.

(٦) خور بركة وهو أحد الأنهار الموسمية في بلاد البجة، وهو ينبع من شمال الحبشة عند خط عرض ١٥ تقريباً، ويسير مجراه في اتجاه يكاد يكون شمالياً. وينتهي في السهول الساحلية السودانية، ليكون في النهاية دلتا مروحية تقدر بمساحة ٣٨٦ ألف فدان على بعد ٩٠ كم من سواكن. (السودان دراسة في الوضع الطبيعي، ص ٤٣).

في حدود مصر. كذلك نجد أنها ليست متساوية في الارتفاع والوعورة، فترتفع في بعض الجهات لتزيد على ١٥٠٠ متر ويقل في أخرى عن ٥٠٠ متر أما من حيث الانحدار ووعورته فيكون فجائي جهة الشرق، وتدريجي جهة الغرب تتخلله بعض الأودية والسهول.[١] ومن غير شك فقد أثرت هذه الجبال واختلاف مظاهرها في تنوع موارد المياه وتوزيعها؛ وخاصة في مصدرها الأول إلا وهو سقوط المطر، فنجده أغزر في جهات عن الأخرى. وكذلك اختلف في توقيت هطوله، فمنها ما هو صيفي وما هو شتوي، فالمرتفعات المنحدرة غرباً وما يليها في هذا الاتجاه فمطرها صيفي، أما المرتفعات المنحدرة شرقاً وكذلك الساحلية فمطرها شتوي[٢]، وهذا ما نتج عنه أن جرت بعض الأنهار الموسمية في هذا الإقليم في بعض الأجزاء، مثل خور بركة وخور الجاش ونهر العطبرة[٣].

وانعكاساً للتنوع السابق للتضاريس وموارد الماء؛ كان له دوره في تنوع النبات، ففي المرتفعات المنخفضة والتي وفرت مناخ مناسب وأقل حرارة غلبت عليها وفرة النباتات، وهذه المنخفضات توفرت بالقرب من البحر الأحمر، وكانت أكثر حظاً في ذلك من المناطق الغربية، والتي تغلب عليها الصفة الصحراوية والمناخ الجاف وخاصة منطقة الشمال الغربي، وهذا لا يعني أنها تخلو من بعض الأقاليم التي يغزر فيها النبات في بعض فصول السنة[٤].

ولم تكن مواطن البجة على هذه الشاكلة من القسوة في العصر القديم السابق للتاريخ؛ فقد كان هذا الإقليم على الارجح أغزر مطراً ونباتا مما هو اليوم وكانت طوائف مختلفة من الحيوانات تمرح فيها[٥] وفي نفس الوقت كان طقس المنطقة في مراحل مبكرة للدخول في مراحل جفاف كبيرة، ولا شك أن هذه الحالة دامت طويلاً والتي نرى نتائجها اليوم في جفاف الصحراء الشرقية[٦].

وفي هذه البيئة المتنوعة _ إذن _ عاشت قبائل البجة منذ عصور عديدة، وقد نظموا حياتهم على المنوال الذي تفرضه خصائصها الطبيعية، حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها، بعدما وظفوا كل جزء من المقومات الطبيعية مع ما يناسبه من جوانب الحياة، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية. وسوف نقدم لكم دراسة لكل مقوم ودوره منها في كل جانب على حدى في الفصول اللاحقة.

ب- مصطلح البجة ومصدره:

البجة، كلمة قديمة قدم البجة أنفسهم، وتنطق بالبجة والبيجة أو البجاة، وقيل بكة[٧]، ولعل أول أشارة إلى اسم البجة في المصادر العربية بعد ظهور الإسلام، وردت في كتاب

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالي سكانه وقبائله، ط٢، القاهرة ١٩٥١م، ص٢٣

(٢) محمد عوض: نفسه ص٢٤، ٢٥.

(٣) محمد الصياد، محمد عبد الغني: السودان دراسة في الوضع الطبيعي، ص ٤٢، ٤٣.

(٤) محمد عوض الشعوب والسلالات الإفريقية ص ٢٤٨.

(٥) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٣٠.

(٦) محمد عوض: الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ٢٥٤ – ٢٥٥.

(٧) عمر صابر عبد الجليل: كتاب الأبحاث، مؤتمر أسوان عبر العصور، أبريل ٢٠٠١، كلية الآداب، جامعة جنوب الوادي، طبعة أسوان ٢٠٠٢، ص ٢١٧.

الواقدي[1] باسم البجاوة، ولاحقاً تردد الاسم عند المؤرخين ولكن بهجاءات متعددة وأشكال مختلفة. فورد بضم الباء، وفتح الجيم، وإضافة تاء مربوطة (البُجَة) عند كل من ابن عبد الحكم[2]، والبلاذري[3]، واليعقوبي[4]، والطبري[5]، والإصطخري[6]، والمسعودي[7]، وابن حوقل[8]، وابن النديم[9]، والهمذاني[10]، وابن سليم الأسواني[11]، وناصر خسرو[12]، والإدريسي[13]، والبلوي[14]، وابن الوردي[15]، والمقريزي[16].

كما ورد عند بعض المؤرخين بضم الباء، وفتح الجيم، وإضافة ألف زائدة (البُجَا)، عند كل من ابن سعيد[17]، وأبو الفدا[18]، والقلقشندي[19]. وورد عند آخرين بضم الباء، وفتح الجيم، وألف زائدة وتاء مربوطة (البُجَاة)، أمثال ابن جبير[20]، وابن الأثير[21]،والعمري[22]، والإدفوي[23]، وابن بطوطة[24]، وابن خلدون[25]، وأبو المحاسن[26].

---

(1) فتوح الشام، جزءان، بيروت (بدون تاريخ) ج٢، ص٥٥.

(2) فتوح مصر وأخبارها، نشر ماسيه، القاهرة ١٩١٤م.

(3) فتوح البلدان: تحقيق: رضوان محمد رضوان، بيروت ١٤٠٣هـ، ص ٢٣٩.

(4) تاريخه: ج١ ص١٩٢.

(5) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، القاهرة ١٩٦٧م، ج٩، ٢٠٣.

(6) المسالك والممالك: تحقيق محمد جابر عبد العال، القاهرة ١٩٦١م، ص٤٢.

(7) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢ ص ١٨.

(8) صورة الأرض ٥٠.

(9) الفهرست: تحقيق رضا تجداد بن علي بن زين العابدين، طهران ١٣٩١هـ، ج١ ص٢١.

(10) مختصر كتاب البلدان.

(11) حوليات إسلامية، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، القاهرة ١٩٨٥م، المجلد ٢١، مقال محمد خير: ابن سليم الأسواني ص٤٩.

(12) سفر نامة ص١٣٤.

(13) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت ١٨٦٦م، ج١، ص٤٦.

(14) سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، دمشق ١٣٥٨هـ، ص٦٤.

(15) خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص٤٨.

(16) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٤.

(17) بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، تطوان ١٩٥٨م، ص٥٠.

(18) تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص١٢٠.

(19) صبح الأعشى ج٥، ص٢٦٣.

(20) تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، المعروف برحلة ابن جبير، تحقيق: حسين مؤنس القاهرة ١٩٠٨م، ص٤.

(21) الكامل في التاريخ، بيروت ١٤٠٢هـ.

(22) مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، ط١، بيروت ١٩٨٦م، ص٧٨.

(23) الطالع السعيد الجامع نجباء الصعيد، تحقيق: محمد سعد حسن، وراجعه طه الحاجري، القاهرة ١٩٦٦م، ص٧٨.

(24) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة بن بطوطة، القاهرة ١٩٦٤م، ج١ ص٥٣.

(25) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، القاهرة ١٩٧٩م، ج٤ ص٦٤٦.

(26) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٢م، ج٢ ص٢٣٨.

ولعل اللفظ الأشهر هو لفظ البُجَة، بضم الباء وفتح الجيم[١]، وقد تحولت حركة الضم إلى الكسر في الزمن الحديث[٢].

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أن المؤرخين العرب في العصور الوسطى، لم يكونوا أول من أطلق اسم البجة على سكان الصحراء الشرقية وما يليها جنوباً إلى أطراف الحبشة. فإن لهذه التسمية أصولاً تاريخية قديمة، وإن لم تكن ثابتة ولا مطردة على مدى العصور. من ذلك مثلاً، ظن البعض أن الاسم مصدر لفظ بوكا (Buka) أو (Bukak)، الذي جاء في النصوص المصرية القديمة، التي ترجع إلى عهد الملك تحتمس الثالث[٣]، وهو اسم قبيلة من بين القبائل الجنوبية التي أخضعها المصريون لسلطانهم آنذاك. ولعل هؤلاء هم الذين ورد ذكرهم في أحد النقوش الأكسومية، (يرجع إلى القرن الرابع الميلادي) باسم بوجايتاي (Bugaitae)[٤].

وقد ظن آخرون أن الاسم مصدره هو اللفظ المصري القديم (أبشا) أي (ساكن الصحراء) أو البدو، فتغيرت صورته الصوتية، فصار حرف الشين جيماً، ويرجعون ذلك التغير إلى ما تعرضت له المنطقة من تيارات بشرية ولغوية وحضارية في ظروف متباينة[٥]، وبخلاف ذلك أرجع آخرون أن الاسم مرجعه لفظ ميدجو (Medgo) بعدما أثبتت الحفائر الأثرية وجود قبائل قديمة في صحراء مصر الشرقية تسمى قبائل الميدجو، وهي بقايا القبائل القديمة التي تكونت منها مملكة أثيوبيا القديمة[٦].

---

(١) عبد العظيم رمضان: الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ، أعمال لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة،ديسمبر ١٩٩٧م،الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩م، تاريخ المصريين رقم ١٦٤، ص٢٩٣.

(٢) الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان، ص١٤٥.

(٣) تحتمس الثالث: هو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر (١٥٥٢ ــ ١٣١٤ أو ١٢٩٥ ق.م). وقد تولى حكم مصر في الفترة ما بين ١٤٧٨ ــ ١٤٢٥ ق. م عقب وفاة الملكة حتشبسوت، واشتهر عصره بالتحريض والانقلابات في أطراف الأمبراطورية المصرية، خاصة في أسيا وبلاد النوبة. مما اضطره إلى القيام بسبع عشرة حملة عسكرية قبل أن ينجح في السيطرة على الأوضاع المتأزمة. وإضافة إلى أعماله الحربية قام بعدد من الإنشاءات المعمارية أهمها تغيير واجهة معبد آمون رع بالكرنك، فضلاً عن المنشآت الأخرى في بلاد الصعيد والدلتا التي يحفظ لنا الزمن شيئاً من آثارها. (نيقولا جريمال: تاريخ مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاتي، وراجعه د/ زكية طبوزادة، ط٢، القاهرة ١٩٩٣م، ص٢٧١ ــ ٢٧٦).

(٤) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٤.

ــ النقوش الأكسومية: هي آثار خلفتها دولة كانت قائمة قديماً في شمال شرق أثيوبيا، سيطرت على منطقة الساحل الإفريقي المقابل لليمن. وعرفت هذه الدولة بمملكة أكسوم، نسبة إلى عاصمتها مدينة أكسوم، ويقدر بأنها ظهرت في بداية النصرانية. ويظن أنها قامت على يد العرب الجنوبيين في تلك البلاد، ودانت هذه المملكة بالوثنية إلى القرن الرابع الميلادي، وبعدها تحولت إلى النصرانية. وقد شهدت هذه الدولة ازدهاراً سياسياً واقتصادياً نتجت عنه حضارة لا تقل عن جاراتها. (جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢ بغداد ١٤١٣هـ، ج٣ ص٤٥١).

– وجاءت نهاية هذه الحضارة، حين وقعت منطقة الساحل الإفريقي في قبضة المسلمين، وهو الأمر الذي جعل موارد أثيوبيا وعلاقتها مع خارج البلاد تنقطع، وترتب عليه أنهيار المدن الإثيوبية التي ازدهرت بالتجارة في الماضي، ومنها العاصمة نفسها "أكسوم". وأصيبت البلاد بأزمات اقتصادية، بسبب ما حدث من جدب وقحط تولدت عنه المجاعات. ومن ذلك انتهت الحضارة الأكسومية بعد أن قضت ثلاثين قرن من الازدهار والرقي. (الشاطر بصيلي: معالم تاريخ سودان وادي النيل، ط١، القاهرة ١٩٥٥م، ص١١).

(٥) الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان، ص١٤٧.

(٦) عمر صابر: كتاب الأبحاث ص٢١٧.

وعلى أية حال ومهما ورد من قول فقد اتفق عدد من الباحثين الأثريين من أمثال إدوارد ميير[١] والأستاذ زيته[٢]، والأستاذ كيس[٣]، على أن اسم البجة قديم جداً؛ لأن شعب البجة كان معروفاً لدى المصريين القدماء تحت اسم (مزا) أو (مجا). وقيل (ميجا) و(ميجوي) وللكلمة هجاءات مختلفة ولكنها متقاربة[٤] _ وهي تعني في الفرعونية الحارس أو المحارب[٥] _ معتمدين في ذلك على عدد من الأدلة التي وردت على النقوش الفرعونية تؤكد على استعانة الفراعنة بقبائل جنوبية تحت اسم (مجا)، تتطابق في صفاتها ومواطنها مع قبائل البجة الحالية[٦].

ومن ذلك ما أثبته العالم الأثري ويجول[٧]، والذي أكد بأنه ورد في النصوص المصرية القديمة أن القائد المصري (أوني)[٨] جند عسكر من رجال هذه القبيلة، لقمع ثورة في فلسطين، زمن الملك (بيبي الأول)[٩]، وأن رجال هذه أيضاً ساعدوا هذا القائد في حفر قناة وسط صخور الجندل الأول، في عهد الملك (مرنوع)[١٠].

وإضافة لذلك تزخر عدد من الوثائق والمؤلفات التي تؤكد استمرار ولاء هذه القبيلة لمصر في عصور متباينة. ولكن والاهم أن هذه الشواهد تؤكد قدم شعب البجة الذي عرف باسم (مجا) أو (مجاوي)، وفي الفترات اللاحقة من مراحل التاريخ، تحول الاسم إلى "بجا" لأن مبادلة الباء بالميم أمر ليس غريباً في اللغات السامية كما هي

---

(١) Meyer, Ed, Geschte des Altertums, Stuttgart, Berlin, 1921. p165.

(٢)Sethe, K, Urkunden d. es alten Reichs, Leipzig, 1932, I. p36

(3)Kees, H., Beitrage zur Altagyptischen porvinzialverwaltung und der Geschictedes feudalismus, 1932, p.237.

(4) محمد عوض: السودان الشمالي ص٣٢.

(٥) سعاد ماهر: محافظات لجمهورية العربية المتحدة في العصر الإسلامي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٢١، العدد الأول مايو ١٩٥٩م، ص ١٧٩.

(٦) سليم حسن: مصر القديمة، ج١٠، ص٥٢.

(٧) Weigall, A. E. P., A Report on the Antiquities of lower Nubia, Oxford, 1907, p5.

(٨) (أوني): من أكبر موظفي الدولة في عهد لأسرة السادسة، وقد عاش في عهد الملوك الثلاثة الأول لهذه الأسرة. تدرج خلالها حكمهم المناصب والقائف المختلفة. فقد كان في عهد الملك "تيتي" يشغل وظيفتين: مدير بيت الزراعة، ومدير ضياع القصر الملكي. وفي عهد الملك "بيبي الأول" انتقل من العمل الإداري إلى الجيش قام خلالها بإخضاع عدد من الثورات في فلسطين وسوريا، وبعد أن حصل على هبة ملكية جنائزية انتقل إلى مجال الإنشاءات الكبرى واستغلال المحاجر. في عهد الملك "مرنع" تولى منصب حاكم الجنوب من أسوان جنوباً إلى أطفيح شمالاً. وخلال هذه الفترة تمتع أوني بالثقة والولاء لملوك هذه الأسرة، مما جعله يستحق الثناء من هؤلاء الملوك وإغداق المناصب والعطايا عليه. (فيتولا جريمال: تاريخ مصر القديمة، ص١٠٠: ١٠٤).

(٩) بيبي الأول (مري تاوي): أي حبيب الأرضين، هو ثاني ملك من ملوك الأسرة السادسة، ورث الحكم عن أبيه (تيتي) بعد اغتياله، ليمتد بعدها في حكم مصر مدة تزيد عن أربعين عاماً. عقد العزم خلالها على إشاعة الهدوء والطمأنينة في البلاد، من خلال نهج سياسة اقتصادية وسياسية واسعة جعلته يتمتع بثقة شعبه وحبه له. وبذلك وصف عصره بأنه أكبر الفراعنة الذين قبضوا على ناصية الحال بحزم ونشاط. (سليم حسن: مصر القديمة، ج١ ص٣٦٥).

(١٠) مرنوع (عنتي أم زا إف): أي الإله عنتي هو حاميه، وعنتي إله محارب على هيئة الصقر كان يعبد قديماً، وهو ثالث ملوك الأسرة السادسة، ورث الحكم عن أبيه (بيبي الأول)، وحين اعتلى عرش مصر كان حدثاً لم يتجاوز عقده الثاني، ولم يتجاوز حكمه لمصر مدة ثماني سنوات، نهج خلالها سياسة والده السياسية والاقتصادية، كما برز في عصره اهتماماً واضحاً بالتوسع ناحية الجنوب وإخضاعه، مما عكست سنوات حكمه عظمة وقوة الأسرة السادسة. (سليم حسن: مصر القديمة، ج١ ص ٣٧٧).

الحال في مكة وبكة[1]. غير أن اسم البجة ورد صريحاً ومن غير تحريف، خلال القرون الأولى للميلاد وذلك في النقوش الأكسومية التي خلفها ملوك أكسوم، وأن هذه أول مرة في التاريخ التي يذكر فيها اسم البجة بشكله الذي عرف به اليوم[2]. ومن هذه النقوش: نقش خلفه الملك (عيزانا) تخليداً لانتصاره على مملكة مروي سنة ٣٥٦م، وقد ورد اسم البجة ضمن الشعوب التي أحرز عليها هذا الملك نصراً، وقبض على ملوكهم الستة[3]. ويتضمن نقش آخر لهذا الملك أيضاً ذكر الألقاب التي يحملها، ومن بينها لقب ملك البجة[4]. وفي الوقت الذي كان يطلق على القبائل البدوية التي تسكن الإقليم الواقع بين النيل والبحر الأحمر جنوبي مصر اسم ـ بجة ـ نرى الكتاب القدماء من البطالمة والرومان كانوا يطلقون على هؤلاء اسم (بليميين Blemmyes)[5]. والراجح أن البليميين هؤلاء طبقة أرستقراطية، استطاعت بما لديها من خبرات آلية جديدة، وصفات حربية ممتازة، أن تسيطر على مجموعة كبيرة من البجة الشماليين، مدة ثمانية قرون على الاقل؛ وأن تستعين بهم على تحقيق مصالحها الاقتصادية والحربية التوسعية زمن البطالمة والرومان. أما بقية البجة ولا سيما الجنوبيين منهم، قد احتفظوا باسمهم القديم الذي عرفوا به في نقوش أكسوم. وحينما تخلخل سلطان هذه المنطقة الحاكمة، خلال القرن السادس الميلادي، عاد الاسم القديم (البجة) إلى هذه القبائل، ليعم جميعها وبه عرفوا فيما بعد [6].

وظل اسم بجة يطلق على هذه القبائل حتى فتح العرب لمصر في القرن السابع الميلادي، ومنذ ذلك الحين لم يتغير اسم البجة، وظل يتداوله العرب ومؤلفيهم عبر العصور الإسلامية في مصر، حتى المتآخر منها.

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالي، ص٢٢. ٢١٣٢٤٣

(٢) محمد عوض السودان الشمالي، ص ٣٣.

(٣) Paul, A.,: A History of the Beja Trilxs of the Sudan, Camal,, idge 1954, pp, 44,45.

ـ عيزانا أو عزانا: هو من أقوى الملوك الذين حكموا دولة أكسوم، وهو ابن الملك (الاعميدا)؛ ذلك الملك الذي أخضع العرب الجنوبيين تحت سلطانه خلال القرن الثالث الميلادي. أما عيزانا هو أول ملك أكسومي تنصر بعد أن كان وثنياً، وقد دخل هذا الملك النصرانية بتأثير المبشر (فرومنتيوس)، الذي أرسله إليه الملك (قسطنطين) ملك البيزنطيين عام (٣٥٠م) أو (٣٥٦م). وقد فرض هذا الملك النصرانية على شعبه وأعلنها ديانة رسمية لمملكته كما جعلها الديانة الرسمية للعرب الجنوبيين الذين ظلوا خاضعين لحكمه بعد أبيه. واستطاع هذا الملك خلال حكمه أن يجرد عدد من الحملات الحربية الناجحة، والتي استطاع من خلالها أن يمد سلطنه على جميع الشعوب والقبائل التي كانت تقطن المنطقة الواسعة ما بين النيل النوبي والبحر الأحمر، وامتدت سلطته إلى اليمن فسيطر على حمير وريدان وسبأ. وقد شهد عهده من ازدهار الحياة الاقتصادية وخاصة التجارة والحياة المعمارية مما جعله يلقب (بملك الملوك). (جواد العلي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ص٤٥٦).

ـ دولة مروى: وهي الدولة التي قامت على يد ملوك الأسرة الخامسة والعشرون (٧٤٧ ـ ٦٥٦ ق. م) والتي سيطرت على الشاطئ الشرقي لنهر النيل، على خط عرض °15 شمالاً وخط طول °30 شرقاً، وعلى مسافة ٢١٣ كيلو متر من السكة الحديد شمال الخرطوم. وقد سبق قيام هذه الدولة أن أصبح حكم مصر في صورة دويلات صغيرة، وما لبث أن قويت شوكة دولة مروى في بلاد كوش (السودان) لتسيطر بعدها على حكم مصر في الشمال، وبذلك خضع حكم مصر والسودان خلال هذه الدولة تحت حكم موحد اشتهر بثقافة مزدهرة عرفت باسم الثقافة المروية. (سليم حسن: مصر القديمة، ج١٠، ص٦٠، ص ٤٥٣ وما بعدها).

(٤) ARKELI., A,J: History of The Soudan form The carliest Times to 1821, London 1961, p 172.

(٥) محمد عوض: السودان الشمالي ص٣٣.

(٦) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٧.

وإذا نظرنا في الصحراء الشرقية في عصرنا الحالي؛ فإنه لم يبق فيها من يتسمى باسم البجة، إلا طائفة صغيرة من قبيلة بني عامر، وهم طائفة محتقرة، إذ يقول مثل سوداني: "البجة الخاس أرخص الناس". والخاس هي طائفة منتمية أيضاً إلى بني عامر على حدود الحبشة [١].

وهذا القول لا يعني أن قبائل البجة اندثرت اليوم؛ فعلى الرغم من قلة من يحمل اسم البجة الآن، إلا أن أعدادهم اليوم تفوق الأعداد القديمة آلاف المرات ولكن ذهبوا بأسمائهم إلى الانتساب إلى أسماء عربية؛ وهذا أثر الإسلام الذي انتشر بينهم، فانتسبوا له وخاصة إلى العرب الذين قاموا بنشره.

ومما لا شك فيه أن الإسلام رفع من شأن هذه النسبة ودعمها، وبذلك طغى الإسلام والنسب العربي الجديد على النسب الحامي القديم[٢].

جـ – التعريف بالسكان وأصولهم:

من المقطوع به أن البجة من سلالة السود، وأنهم أقدم العناصر التي استقرت في إفريقيا ولم ينشأوا فيها بل هاجروا إليها من آسيا عن طريق البحر الأحمر من عهد بعيد، وفي الغالب أنهم من سلالة أولاد كوش بن حام الذين هاجروا إلى السودان بعد الطوفان[٣]. إذ قيل نكح كنعان بن كوش بن حام بن نوح، أرنب بنت شاويل بن ترس بن يافث فأنجبت أجناس السود ومنهم البجة[٤]، أما عن هجرتهم فيذكر اليعقوبي[٥] بأنه عندما تفرق ولد نوح من أرض بابل، قصد ولد حام بن نوح جهة الغرب، حتى جاوزوا نهر الفرات غرباً، وبعدها افترق ولد كوش بن حام وقصدوا مصر، وبعدما عبروا نهر النيل انقسموا فرقتين. فقصدت فرقة منهم التيمن بين المشرق والمغرب ومنهم النوبة، والبجة، والحبشة. وقصدت الأخرى _ باقي أجناس آلافارقة السود_ جهة الغرب.

وعلى الرغم مما ذهب إليه الرواة من كون البجة سودان[٦] ذهب آخرون مثل المقريزي[٧] بأنهم من سلالة البربر، ويرى البعض من الباحثين وهو الدكتور محجوب زيادة[٨] رأياً آخر وهو أن نسبهم يمتد إلى السلالة السامية وخاصة العرب، وأنهم هاجروا من شبه الجزيرة العربية إلى شواطئ البحر الأحمر قبل الإسلام.

وعلى أي حال؛ ومهما تردد من قول حول أجناس البجة، فقد اتفقت آراء على أن أسلاف أولئك البجة من الحاميين، وأن سلالتهم الحالية عاشت منذ عمَّر المصريون القدماء (الفراعنة) وادي النيل في مصر والسودان[٩].

---

(١) نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، القاهرة ١٩٠٣م ص٩٠.

(٢)Paul, A. :OP. Cit. pp. 79

(٣) صلاح الدين: تاريخ القبائل المصرية ص٣٣٥.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٧.

(٥) تاريخه ج١ ص١٩١.

(٦) اليعقوبي: تاريخه ج١ ص١٩١، ابن جبير: رحلته ص٤٢، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص٢٠٣، القلقشندي: صبح الأعشى ج٥ ص٢٦٣، ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٠.

(٧) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٤.

(٨) الإسلام في السودان: دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠م ص٢٦.

(٩) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٢.

بيد أن رأياً آخر ذهب إلى أبعد من ذلك وهو ما قدمه العالم سيلجمان[1] وهو الذي يرى أن أسلاف البجة والمصريين القدماء في عصر ما قبل الاسرات من سلالة واحدة، وقد اعتمد في رأيه من خلال إجراء مقارنة بين جماجم من الفريقين، فوجد تشابهاً تاماً بين أشكال المصريين القدماء وخاصة ملوكهم، وبين أشكال البجة الذين يعيشون في أوطانهم الحالية. وبذلك استنتج أن الشعبان من أصل واحد، وأن اختلاف طبيعة البيئة في كل من أوطان البجة ومصر، سلكت بكل منهما أسلوباً في الحياة فصلت بينهم فترة من الزمن، إلى أن نشأت بينهم الصلة بحكم التجاور.

وبناءً على هذه النتيجة رأي العالم بول[2] أن البجة شعب حامي سامي ينقسم إلى مجموعتين رئيستين، أحدهما جنوبية حامية؛ حافظت على صفاء جوهرها الحامي لقلة اختلاطها بالساميين، ولكن أخذت عنهم لغتهم. والأخرى شمالية أقل صفاءً؛ لاختلاطها بالعرب الساميين ولكنها أكثر تماسكاً بالعادات والتقاليد واللغة الحامية.

ورغم تعدد الأراء السابقة حول أجناس البجة وتعارضها؛ لابد ومن الضروري أن نشير إلى حقيقة هامة وهي أن البجة من سكان شرق السودان الأقدمين، والذي لا مراء فيه أنهم عاشوا زمناً طويلاً على شواطئ البحر الأحمر. وبما أن هذه البيئة قاسية، وعاشوا فيها منذ أقدم العصور، فقد طبعتهم بطبيعة خاصة، كانت أكثر ظهوراً في صفاتهم الجسدية والخلقية.

فقد امتازت صفاتهم الجسدية بنحول القامة ورشاقتها، موسطة الارتفاع أو فوق المتوسط بقليل، والبشرة سمراء تضرب إلى الحمرة، تشتد سمرتها في بعض الأحيان. والرأس مستطيل باطراد قليلاً، والشعر مموج أو مجعد قليلاً، وإن بدا غير ذلك، بسبب طريقتهم في ترجيل الشعر وربطه على صورة خاصة؛ كأنه حزمة من الحطب أو الدريس وإذا كان الشعر مجعداً جداً كان ذلك دليلاً على الأختلاط ببعض العناصر الزنجية. وهذا قليل بينهم دائماً، نظراً لعزلتهم الطويلة التي حالت دون ذلك من الأختلاط أو الأمتزاج، والنسبة الأنفية معتدلة أو متوسطة دائماً، وليس هناك بروز في الفك أو أي مظهر آخر للصفات الزنجية المعروفة[3].

ولعل صفة اللون المميزة هي الأكثر وضوحاً في روأيات المؤلفين العرب خلال زيارتهم للبجة، فقد ذكر المقريزي[4]: "بأن أبدأنهم صحاح، وبطونهم خماص، وألوانهم مشرقة الصفرة، ولهم سرعة في الجري يباذون بها الناس". بينما يذكر ابن حوقل[5]: "أن ألوانهم أشد سواداً من الحبشة". ويتفق على هذا القول ابن بطوطة[6]، إلا أن القلقشندي [7]: "يذكر أنهم من أصفى السودان لوناً". أما صفاتهم الخلقية فأنها اتسمت بجفاف

---

(1)Seligman: "some Aspects of The Hametc problem in the Anglo Egyptian Sudan" J. R. A. S. No 43, 1913, pp 606 – 607.

(٢) Paul, A.: A History of the Beja Tribs of The Sudan, pp 23 – 25.

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٤٠.

(٤) المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٤.

(٥) صورة الأرض ص٥٠.

(٦) رحلته ص٥٣.

(٧) صبح الأعشى ج٥ ص٢٦٣.

الطباع، وشدة النفور من الناس، فالبجاوي يحب العزلة، قليل الكلام، ليس كثير التساهل في اتخاذ أصدقاء من الأجانب. والتشكيل بكل بيئة جديدة. وهذا لا يرجع إلى طبع وحشي، أو وليد الخوف، أو لإحساسه أنه غريب عن الناس. بل هو خلق يرجع إلى طبيعة البيئة الجبلية، التي لا تساعد على التجمع والأختلاط، فهو ليس مبغضا للغرباء والأجانب، بل ألف العيش بنفسه، فلا يجد لهم مكاناً في دائرة حياته. (١)

وهكذا كان للبيئة القاسية لبلاد البجة أن تصبغهم بصبغتها القاسية، وتمرسوا بها، حتى أصبحوا جزءً منها، بعد أن عاشوا فيها آلاف السنين. فأصبحوا ولهم جلد كثير على تحمل الشدائد وشظف العيش، يتجرعون بالقليل من الزاد إذا تيسر، ويصبرون على الحرمان إذا جاءت سنوات الجهد والمشقة. وبذلك أصبح مظهرهم الطبيعي يتفق مع هذه الظروف القاسية.

د – العقائد والأديان قبل دخول الإسلام

على الرغم من دخول العرب المسلمين أرض البجة مبكراً، أي في خلال القرن الأول الهجري، إلا أن البجة ظلت على وثنيتها القديمة فترة من الزمن، امتدت آثارها إلى عهد ابن سعيد المغربي خلال القرن السابع الهجري، والذي ذكر بأن فيهم مسلمين ونصارى وأصحاب أوثان(٢). ويجب علينا إلا نخطئ الظن من قول ابن سعيد بأن من البجة نصارى، بأن المسيحية انتشرت بينهم حين انتشرت في الأقاليم المجاورة، من البلاد المصرية والنوبة والحبشة؛ لأن المسيحية حين أخذت بالظهور في الأقاليم المجاورة، عانت صداً شرساً من البليميين الذين لم يعتنقوا المسيحية، وظلوا شوكة في ظهر الأمبراطورية الرومانية، وهم الذين كانوا يسيطرون على البجة ويحكمونهم، وبذلك عانت القيادة الدينية في مصر هجوماً عنيفاً ومتكرراً من البجة، مثل قلقاً مزمناً قوبل بالحروب والغزوات المتبادلة(٣).

لكن مع مرور الزمن وتباين الأحوال، فقد تحول البليميين إلى النصرانية بفضل عدد من القساوسة المصريين، بعدما قاموا بنشر المذهب الملكاني خلال تنصير مملكتي نوباتيا وعلوة النوبيتين، وذلك حين اضطر هؤلاء القساوسة _ في رحلتهم من نوباتيا إلى علوة _ أن يتجنبوا طريق مملكة مقرة، لعداء ملكها لملك نوباتيا، فسلكوا طريق الصحراء الشرقية حيث يقطن البليميون(٤) وليس بعيد أن يكون هؤلاء القساوسة أن عمدوا بعض زعماء البليميين أثناء مرورهم ببلادهم، وبذلك اعتنق البليميون المسيحية(٥). وربما كان تعيين أسقف لميناء عيذاب في القرن السابع الميلادي، كان يقصد به _ فضلاً عن رعاية المسيحيين الأجانب في هذا الميناء_ الأشراف على الطقوس الدينية المسيحية عن البليميين كذلك.(٦) ومنذ القرن السابع الميلادي ضعف نفوذ الطبقة الحاكمة من البليميين، وتدهور نفوذها، وبذلك عاد إلى السكان الأصليين اسمهم القديم (البجة).

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص٢٨.

(٢) ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض، ص٥٠.

(3) Kirwan, Lp: studies in the later History of Nubia. Liverpool Annals of Archaeology and poplogy, vol, XXIV 1937, p.92.

(4) John of Ephesus: Ecclessiastical History. Book IV ., part III, ed. by Payn smith, p.325.

(٥) مصطفى سعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠م، ص٦٩.

(6) Trimingham, J.s: Islam in the sudan, lonbon, 1949. p. 49.

باستثناء المجموعة الشمالية في البليميين الذين أطلق عليهم الإدريسي[1] وابن الوردي[2] اسم (بليين)، ووصفهم بأنهم "نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية".

والواضح من قول الإدريسي وابن الوردي أن البليميين ظلوا متمسكين بالنصرانية رغم زوال نفوذهم وعودة الاسم القديم إلى الإقليم، ويعني ذلك أيضاً بأن الغالبية العظمى من سكان الصحراء الشرقية الأصليين _ البجة _ ظلوا على وثنيتهم وذلك لاقتصار لفظ نصارى على البليميين دون البجة، وبذلك ظلوا يمارسون طقوسهم الوثنية حتى بعد ظهور الإسلام وانتشاره بنحو قرنين من الزمان.

ومن أبرز الأمثلة الدالة على أن قبائل البجة كانت تدين بالوثنية خلال القرن الثاني الهجري، ما ورد في القرن الثالث من قول اليعقوبي[3] والذي جاء فيه، أن ليس للبجة شريعة غير عبادة صنم كانوا يسمونه (ححاخو). ووضح في موضع آخر الطقوس المتبعة في عبادته بأنها تشبه المجوسية (عقيدة تقدس الكواكب والنار) والثَّنويَّة (عقيدة تؤمن بأن للعالم إلهين أحدهما للخير وآخر للشر)[4].

والواضح من قول اليعقوبي أن البجة كانت تدين بعبادة الأصنام خلال القرن الثالث الهجري، ولكن لا يعني هذا القول بأن عبادات البجة كانت قاصرة على عبادة الأصنام فحسب؛ لأن ما ورد عن المقريزي[5] من قول _ نقلاً عن ابن سليم _ خلال القرن الرابع الهجري، يدل على أن للبجة عقائد أخرى غير عبادة الأصنام وهي عبادة الشيطان. وفي ذلك يقول ابن سليم: "إن البجة كافرة لعبادتها للشيطان واقتدائها بكهنتهم، فكان لكل بطن منهم كاهن يقيم له خيمة من جلد يتعبد فيها، ويقولون: أن الشيطان بداخلها، فإذا أراد القوم استخبار الكاهن عن شيء، تعرى ودخل الخيمة، ثم يخرج إليهم وبه أثر جنون وصداع، ويقول: الشيطان يقرئكم السلام ويقول لكم: إبتعدوا عن كذا، واغزوا بلد كذا فإنكم تظفرون وتغنمون كذا وكذا، وما تغنموه في الموضع الفلاني فهو ليّ. فيزعمون أنه يصدقهم القول، فإذا غنموا أخرجوا من الغنيمة ما ذكر الكاهن ودفعوه إليه. وإذا أراد القوم الرحيل حمل الكاهن هذه الخيمة على جمل منفرد لتمارس هذه الطقوس أينما حلوا ورحلوا. ثم أضاف ابن سليم في نهاية قوله: "أن هناك من البجة من يتمسك بهذا المذهب مع إسلامه".

والملاحظ في القول السابق أن الإسلام أخذ ينتشر بين البجة، وبما أن ذلك القول منذ القرن الرابع الهجري فأنه يعد بداية التوقيت لاعتناق البجة للإسلام، وإن لم يكن انتشاره بين جميعهم. وأما ما انتشر بينهم فلم يكن له عظيم الأثر في نفوسهم وتغير عقائدهم، فقد ظل الإسلام منذ ذلك التوقيت حتى زمن ابن جبير _ أي في القرن السادس الهجري _ يعتنق ولا يمارس، ويبدو ذلك واضحاً من وصفه عن بعض أولئك البجة حين يقول: "بأنهم فرقة أضل من الأنعام سبيلا، وأقل عقولا؛ لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها، إظهاراً للإسلام.

---

(١) نزهة المشتاق: ج١، ص ٤٧.

(٢) خريدة العجائب: ص٤٨.

(٣) البلدان: ص٣٣٦.

(٤) تاريخه: ج١ ص١٩٢.

(٥) المواعظ والاعتبار: ج١، ص ١٩٨.

ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى ولا يحل"[١]. وإذا كان هذا القول يعني حال بعض جماعات البجة التي اعتنق أفرادها الإسلام حتى عصر ابن جبير في القرن السادس الهجري، فإن أحوال جميع قبائل البجة تغيرت تماماً في القرنين الثامن والتاسع الهجريين. فاعتنق الجميع الإسلام، وتأثروا بالثقافة العربية، وإن بقيت فيهم بعض العادات والتقاليد القديمة التي لم يتخلوا عنها حتى الوقت الحاضر، وهي ظاهرة يشاركهم فيها كثير من الشعوب التي تدين بالإسلام أو المسيحية في أقطار أخرى[٢].

وفي نهاية هذا القول نذكر أن البجة دانت جميعها بالإسلام وتبنت الثقافة العربية في القرنين الثامن والتاسع، وكان مرجعه انثيال الهجرات العربية على نطاق واسع إلى السودان عبر أوطانهم، وذلك منذ القرن السابع الهجري. والذي نتج عنه _ بعدما استقرت العناصر العربية بأوطانهم _ أن جعلت من هذه البلاد مركزاً ثقافياً يبث الدين الإسلامي واللغة العربية في المنطقة، والتي نرى آثارها اليوم في القضاء على الوثنية بين البجة والمسيحية في بلاد النوبة.

هـ- لغة الإقليم:

يتكلم أكثر البجة اليوم اللغة العربية، غير أنها ليست لغتهم الأصلية، فبجانب العربية يتكلم البجة لغتهم الأصلية، وهي المسماة التبداوي أو (بداويت)، وهي أحد اللغات الحامية غير المكتوبة، وهي شقيقة للغة الفرعونية، وينتميان الاثنان لأسرة واحدة هي أسرة اللغات الكوشية[٣]. وعلى الرغم من الحقيقة الثابتة حول التبداوية من كونها غير مكتوبة وجدنا أثناء بحثنا عن لغة البجة. أن ابن النديم ذكر في بداية كتابه المشهور (الفهرست) خلال حديثه عن عدد من اللغات المختلفة قال: "أخبرني من يجول في الأرض أن للبجة قلماً وكتابة ولكن لم تصل إلينا". والواضح من هذا القول أن ابن النديم[٤] أخطأ في ذكر هذه المعلومة؛ لأن لغة البجة إلى الآن لم يكن لها صورة رمزية تكتب بها. وبما أن لغة البجة اعتمدت على الصيغة الصوتية للتواصل_ يمكن لنا أن نستمد بعضاً من صورها لعدد من الاسماء من خلال قول المؤلفين العرب، فيذكر اليعقوبي[٥]: أن البجة تسمي الله عز وجل (الزنجير) والشيطان (صَحي حراقة). ويقول ابن حوقل[٦]: اسم الله عند البجة (أننة). ويقدم الهمداني[٧] عدد أكثر من هذه الصيغ الصوتية بقوله: "البجة تسمي الله (زبحير)، والزنجية (لملكوجلو)، والقبطية (أبنوذة)، والبربرية (مذيكش).

وعلى الرغم من كون التبداوية لغة البجة الأصلية، فهذا لا يعني أنها اللغة الوحيدة بجانب العربية في الإقليم. فقد اتسع هذا الإقليم ليشمل لغة أخرى كانت أكثر استعمالا في الجزء الجنوبي، وهي المسماة بلغة تجرة أو (الخاسة) وهي خليط من الحامية والتجرينية. والتجرينية هي لغة منشقة من لغة الجعز القديمة، وهي

---

(١) رحلة: ص٤٢.

(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص٣٥، ٣٦.

(٣) محمد عوض: الشعوب والسلالات الإفريقية ص٢٥٠.

(٤) الفهرست: ج١ ص٢١.

(٥) تاريخه: ج١ ص ١٩٢.

(٦) صورة الأرض: ص٥٢.

(٧) البلدان: ص٧٨.

تشبه الحميرية اليمنية القديمة، والآن هي من اللهجات السائدة في شمال أثيوبيا[1]، ولعل الأرجح أن لغة (تجرة) قد امتدت إلى الشمال حتى جاوزت الحدود الحالية للسودان في عصر متقدم، وحلت محل اللغة الأصلية للسكان في أنحاء مختلفة. فالشواهد كلها تدل على أن لغة تجرة دخيلة على البجة، لأن اشتقاقها من لغة الجعز، وهي لغة سامية نقلها المهاجرون من اليمن بعدما نزلوا الهضبة الحبشية، وتقدموا شمالاً حتى نزلوا الأودية التي تؤدي إلى السودان. فنشروا لغتهم في وادي بركة، حتى وصلت إلى إقليم طوكر وسواكن شمالاً.[2]

وهكذا كان إقليم البجة بمثابة محطة، اتسعت لتستقبل عدداً متنوعاً من العناصر المختلفة، والذي تتضح نتائجه اليوم من تعدد اللغات فيه، ما بين حامية وسامية وما هي وليدة الاثنين. وبهذا التعدد اللغوي نلاحظ كيف استطاع شعب البجة أن يدمج ويندمج في العناصر الأخرى المهاجرة إليه ليؤثر فيها ويتأثر بها.

وصفوة القول أن البجة عريقون في القدم، في أوطانهم الحالية؛ ومن الجائز أنهم أول من يسكن هذا الإقليم الذي يحتلونه اليوم، ممارسين فيه كل مظاهر الحياة الإنسانية بجوانبها المختلفة، منتجين بذلك طابعاً وخصائص مميزة جعلتهم ينفردون بها عن جيرانهم.

وعلى الرغم من التشابه الملحوظ في صفاتهم، إلا أن أطراد أشكالهم الطبيعية لا يدع مجالا للظن بأنهم قد دخلتهم عناصر أخرى _ اللهم إلا القليل جداً _ ربما الذي جاء عن طريق الاتصال التجاري في الأطراف الشمالية، أو عن طريق الاتصال بالحبشة في الأطراف الجنوبية. وقد مرت بهذا الإقليم وسكانه أدوار إنسانية نستطيع أن نسردها ونحللها على سبيل البحث للوقوف على نتائج حقيقية لاحقاً؛ وإن كانت تعوزنا بعض التفاصيل، لأن الدراسات الأثرية لم تتسع بعد لكي تشمل هذه الأقطار النائية المنعزلة.

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص١٢٨.

(٢) محمد عوض السودان الشمالي ص١٣٥.

الفصل الثاني:

الحياة السياسية عند البجة:

أولاً: مظاهرالسياسة الخارجية للبجة.

أ- البجة في بداية الفتح الإسلامي (في الفترة من ١٩ ــ ٣١هــ / ٦٤٠ ــ ٦٥٢م) .

ب- البجة في عصر الولاة (في الفترة من ٢٠هــ- ٢٥٤هــ /٦٥٢ ــ ٨٦٨م).

ج- البجة من بداية عهد الدولة الطولونية إلى سقوط الدولة الفاطمية (في الفترة من ٢٥٤هــ ــ ٥٧٠ هــ / ٨٦٨ ــ ١١٩٠م).

ثانياً: النظم الإدارية والسياسة الداخلية للبجة:

أ- نظام الحكم والإدارة.

ب- وراثة الحكم.

جــ- الخلافات والمنازعات الداخلية.

أولاً: مظاهر السياسة الخارجية للبجة.

أ- البجة في بداية الفتح الإسلامي (في الفترة من ١٩ - ٣١هـ/ ٦٤٠ - ٦٥٢م).

خلال الفترة التي شهدت أحداث فتح مصر، وما تلاها من سنوات، لم يهتم العرب بإرسال حملات إلى بلاد البجة، لتأمين الحدود الجنوبية الشرقية مثلما فعلوا مع النوبة[١]، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى عدم وجود صلة عدائية مبكرة مع العرب الفاتحين والبجة فى السنوات الأولى لاتى تلت الفتح[٢]، وتؤكد ذلك المصادر العربية التى ذكرت أحداث الفتح، فلم تشير أي منها إلى اشتراك البجة فى أي عمل حربى ضد العرب، رغم طلب النجدة من البجة، ويؤكد ذلك القول الواقدى فى كتابه فى أكثر من موضع، فيذكر أنه: "لما حاصر عمرو بن العاص مدينة بلبيس، وكانت بها أرمانوسة ابنة المقوقس- الحاكم البيزنطى فى مصر - فأشار ذو الرأي على المقوقس إرسال نجدة بيزنطية إلى بلبيس لإنقاذ ابنته، ثم يطلب مساعدة ملوك البجاوة (البجة) والنوبة والبربر لحرب العرب وطردهم من مصر[٣]". ويذكر الواقدى فى موضع آخر من كتابه أن أرسطوليس - ابن المقوقس وولي عهده - حذر العرب من الطمع فى مصر وقال: "ما قصدنا أحد إلا ورجع بالخير وأن قد كاتبنا النوبة والبجاوة وكأنهم بكم قد وصلوا إلينا"[٤] ويضيف الواقدى فى موقع آخر من إلحاح الروم فى طلب النجدة والمساعدة من البجة إذ يقول: أن أرسطوليس فتح خزائن أبيه وأنفق على الجند وأعطاهم السلاح وطلب شباب مصر، وأمرهم للخروج لملاقاة العرب، وبعث يستنجد بملوك النوبة والبجاوة وأقام مدة ينتظر قدومهم[٥] ويذكر فى موضع آخر ان أرسطوليس استنفر همم رجاله لقتال العرب، وأخذ يطمئنهم عن قرب وصول النجدة من ملك النوبة وملك البجاوة، غير أن الأخبار وردت من الجنوب بوقوع الحرب بين ملك النوبة

---

(١) اتجهت سياسة المسلمين، منذ أن تم لهم فتح مصر، إلى بسط نفوذهم مما يلي على البلاد جنوبا، وبالأخص بلاد النوبة، للمحافظة على حدود مصر الجنوبية، وبالإضافة لضمان سير اتجاه بين مصر والسودان، بعد شن الغارات المتكررة على صعيد مصر، مما ترتب على ذلك أن جرد العرب الحملات تلو الأخرى إلى بلاد النوبة فى بداية الفتح. فكانت الحملة الأولى: في بداية الفتح العربى لمصر وقال الطبرى: فى حوادث سنة ٢٠هـ فى كتابه (تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص٢٠٥) أن المسلمين لما فتحوا مصر غزوا النوبة، فقفل المسلمون بالجراحات وذهاب الحدق من جودة الرمي فسموا رماة الحدق. ويذكر البلاذري فى (فتوح البلدان ج١، ص٢٣٨) أن قائد هذه الحملة هو عقبة بن نافع الفهرى وهو أخا للعاص من أمه. واختلف ابن عبد الحكم فى كتابه (فتوح مصر وأخبارها ص١٦٩ ، ١٧٠) عن البلاذري فى ذكر القائد فذكر أن قائد هذه الحملة هو نافع بن عبد القيس الفهرى، وهو أخ للعاص من أمه. واختلف المقريزى عنهم فى كتابه (المواعظ والاعتبار ج١، ص١٩٩) أن قائد هذه الحملة هو عبد الله بن سعد بن أبى السرح. ولسنا بصدد مناقشة هذا الموضوع، ولكن الذى يمكن القول به من آراء الباحثين أن ما ذكره المقريزى هو تقريبا الحملة الثانية التى يوجهها المسلمين إلى بلاد النوبة، ومن المهم ذكره هو أن هذه الحملة التى كانت بقيادة عبدالله بن سعد لم تكن أولى الحملات على بلاد النوبة. وكانت الحملة الثالثة بقيادة عبد الله بن سعد للمرة الثانية فى سنة ٣١هـ /٦٥٢م وكانت هذه الحملة تتكون من خمسة آلاف فارس، وهى التى أجبر فيها ملك النوبة على الاستسلام بعد أن ضربت دنقلة بالمجنيق، واستسلم ملكهم قليدروث على الاستسلام وتم توقيع معاهدة البقط فيها بين المسلمين والنوبة وهذا كما ذكر (المقريزى "المواعظ والاعتبار" ج١ ص١٩٩) و (ابن عبد الحكم "فتوح مصر" ص١٨٨ ، ١٨٩)

(٢) محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى ص ٦١ .

(٣) الواقدى: فتوح الشام ج ٢ ص٢٧ .

(٤) الواقدى: نفسه ص٥٥ .

(٥) الواقدى:نفسه ص ٥٨٠.

وملك البجاوة وأذهم ما يجيبهم منهم أحد[1].

ويبدو لنا من قول الواقدى أن ثمة علاقة كانت قائمة بين الروم والبجة أثناء الفتح العربى لمصر[2] ويؤكد ذلك ما أورده لنا المقريزى نقلا عن ابن سليم الأسواني[3] على البجة فيقول: "كانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحياناً لحاجتهم إلى المعدن، وكذلك الروم لما أن ملكوا مصر ولهم فى المعدن آثار مشهورة، وكانت أصحابهم بها وقد فتحت مصر".

ويضيف ابن حوقل[4] مؤكدا هذه العلاقة فيقول عن العرب لما دخلوا أرض البجة: عاينوا التبر وآثار العمل فيه للروم. ورغم العلاقة التى كانت قائمة بينهم، والإلحاح الشديد من الروم فى طلب النجدة والمساعدة من البجة والنوبة للبيزنطين ضد العرب وقت فتح مصر.

إلا أن ذكر اسم النوبة فى عقد الصلح الذى عقد بين المقوقس وعمرو بن العاص وهو العقد المعروف باسم عين شمس، يدل على اشتراك النوبيين بصورة من الصور فى القتال ضد العرب[5] وقد ورد فى هذا الصلح: أن على النوبيين الذين يدخلون فى الصلح مع المسلمين أن يعينوا بكذا وكذا رأسا، وكذا وكذا فرسا، وعلى إلا يغزوا أو يمنعوا من تجارة صادرة أو واردة[6].

أما عدم الإشارة إلى البجة فى عقد الصلح هذا فهو يدل على أمران: أحدهما: أن البجة لم يستجيبوا لنداء البيزنطين وعدم اشتراكهم فى أي عمل حربى ضد العرب أثناء فتح مصر[7]. وثانيهما: أن البجة اشتركت فى عمل حربى ما، ولكن دون معرفة العرب بعنصرهم، إذ أنه يقال أن هناك وثائق وجدت فى البهنسة ذكر بها أن جيش كبير كان من البجة والنوبة بقيادة (ماكسوح) ملك البجة و(غاليق) ملك النوبة شارك فى القتال ضد العرب[8] ويضاف أيضا أن هؤلاء الجنود كانوا من مملكة صغيرة للبجة كانت قائمة فى شرق العطبرة، وكانت تعرف باسم مملكة الشيخ أو السويح، وكانت عاصمتها على نهر العطبرة، وقد ساعد جنود هذه المملكة ملك النوبة فى التعزيزات العسكرية التى أرسلها ملك النوبة لمساندة جيش الروم التى حاصرها العرب فى البهنسة، غير أن هذه القوات قد هزمها العرب كما ذكر، بالرغم من أنها كانت تضم حوالي خمسين ألف من الجنود ومعهم أكثر من ألف من الأفيال[9].

ولو اتفقنا على أن هذا القول يحمل الصواب، إلا أننا لا نختلف على أن العرب لم يعرفوا البجة وقت ذاك، وقد ظنوا أن العنصر الوحيد الذى ساعد الروم ضد العرب وقت الفتح هم النوبة فقط؛ وذلك يرجع إلى ذكر

---

(١) الواقدى: نفسه ص ٦٠.

(٢) وذكر أن اتصال الرومان بالبجة كان مقصورا على الشماليين منهم الذين يعيشون فى مصر، أو على حدود مصر فى شمال السودان، وكان يطلقون على هؤلاء اسم البلميا أو البليمين (محمد عوض: السودان الشمالي ص٣).

(٣) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٥ .

(٤) صورة الأرض: ص٥٣.

(٥) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٢٢.

(٦) بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٣٣ م ، ص٢٣٨ .

(٧) كرم الصاوى باز : مصر والنوبة فى عصر الولاة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ٢٠٠٦، ص٢٧١ .

(٨) الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان ص١٥٧٠.

(٩) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٢٢٠.

اسم النوبة فى عقد الصلح دون البجة. أو ربما يرجع ذلك إلى عدم معرفة العرب بعنصر البجة، بالإضافة إلى التشابه بين عناصر البجة والنوبة فى الأشكال والأجساد والألوان، لذلك جرد العرب الحملات تلو الأخرى إلى بلاد النوبة دون البجة فى بداية الفتح. وظل العرب غير عارفين بعناصر البجة حوالى عشر سنوات منذ فتح مصر والذى يؤكد ذلك قول ابن عبد الحكم[1] أثناء حديثه عن عبدالله بن سعد بن السرح بعد انصرافه من غزو النوبة عام ٣١ هـ ٦٥٢م وتوقيع معاهدة البقط، حينها شاهد العرب الفاتحين لأول مرة عناصر البجة، وهم قد تجمعوا له على شاطىء النيل، وسأل عنهم فأخبر بمكانهم، فهان عليه أمرهم، فنفذ فتركهم. ويضيف المقريزى[2] فى رواية نقلها عن ابن سليم الأسواني نقلا عن ابن عبد الحكم: عندما سأل عبدالله بن سعد عن شأنهم؛ فأخبر أن ليس لهم ملك يرجعون إليه.

ويمكن من خلال الروايتان نستنتج أن: العرب عندما سألوا عن البجة أخبروا إما بمكانهم. أو نظام حكمهم، وعندما عرفوا حقيقة أمرهم هان عليهم أمرهم بما عرفوه من حقائق – أي استخفوا بهم واحتقروهم– لذلك تركوهم ولم يفكروا حتى فى إرسال الحملات لهم بعد ذلك، طيلة السنوات التى تلت الفتح ولو أن ابن حوقل[3] جاء بقول مخالفا لرواية ابن الحكم، ورواية المقريزى عنهم من عدم محاربة عبدالله بن سعد البجة فإنه يذكر: كانت البجة أمة

تعبد الأصنام بهذه الناحية وما استحسنوه، إلى سنة أحدى وثلاثين فإن عبدالله بن أبى سرح – لما فتح أسوان وكانت مدينة أزلية قديمة، وعبر إليها من الحجاز، وقهر من كان بالصعيد وكان بالصعيد من فراعنة البجة وغيرهم، وأسلم أكثر البجة إسلام تكليف، وضبطوا بعض شرائط الإسلام، وظاهروا بالشهادتين ودانوا ببعض الفرائض، وفيهم كرم وسماحة فى إطعام الطعام، فسامحهم فى الأخذ عليه.

ويتضح لنا من كلام ابن حوقل أن عبدالله بن سعد حارب البجة فى عام ٣١هـ / ٦٥٢م، وعقد معهم صلح وشرط عليهم شروطه، ثم سامحهم فى بعض الشروط لما أظهروه من إحسان، وهذا القول لا نسلم بصحته، لأن هذه الأحداث التى تحدث عنها ابن حوقل ربما تكون أحداث صلح النوبة الذى عقد فى ذلك الوقت، فلم نعثر فى المصادر التى تحدثت عن غزو النوبة وعقد الصلح معهم على قول ذكره أحدهما عن محاربة عبدالله ابن سعد، للبجة بعد غزو النوبة أمثال ابن عبد الحكم[4]، والبلاذرى[5]، والمقريزى[6].

وإضافة إلى هذا القول نستنتج من كلام ابن حوقل أيضا أن البجة تحولت إلى الإسلام فى عام ٣١هـ من خلال قوله: "البجة كانت أمة تعبد الأصنام وما استحسنوه إلى سنة ٣١هـ /٦٥٢م" مضيفا قوله: "فأسلم أكثر البجة " وما كتبه المؤلفين عن هذه القبائل، فى نصف القرن الثالث الهجرى أمثال قول اليعقوبى[7]

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ص١٨٩.

(٢) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٥.

(٣) صورة الأرض ص٥٠ ، ٥١ .

(٤) فتوح مصر وأخبارها ص١٨٨.

(٥) فتوح البلدان ص٢٣٨٠

(٦) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٩٠

(٧) وذكر أن ليس لهم شريعة إنما كانوا يعبدون صنما يسمون ححا خواه(البلدان ص٣٣٧).

يذكرون: بأنهم يعبدون الأوثان فكيف يكونوا أسلموا فى بداية الفتح، ثم عادوا إلى الوثنية بعد قرنـــان ونـــصف من إسلامهم.

وصفوة القول أن تاريخ قبائل البجة فى العصر الإسلامى، يكتنفه الغموض، بسبب عدم اهتمام هذه القبائل البدوية بتدوين تاريخها من ناحية، وعدم تعرض المؤلفين العرب لذكر تاريخها من ناحية أخرى. وقـــد يكـــون عدم اهتمام المؤلفين العرب بهذه القبائل راجع إلى قول ابن حوقل: " أنه لم يذكر بلدان السودان فـــى المغـــرب والبجة والزنج ومن فى أغراضهم من الأمم، لأن انتظام الممالـــك بالـــديانات وتقـــويم العمـــارات بالـــسياسة المستقيمة، وهؤلاء مهملون فى هذه الخصال ولا حظ لهم فى شيء من ذلك، فيستحقوا به أفراض ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك"[1].

بالإضافة إلى ما استقر فى نفوس العرب، فى المرحلة الأولى من مراحل التوسع الإســـلامى، مـــن أن أرض البجة وأهلها أهل سلم، شأنها فى ذلك شأن بلاد الحبشة المجاورة
لبلادهم من ناحية الجنوب، لأن الحبشة أوت الطليعة الأولى من المسلمين الذين هاجروا إليهـــا زمـــن لرســـول صلى الله عليه وسلم[2] ويتضح لنا ذلك من قول ابن حوقل على ما ذكره على أهل الحبشة فيقول عـــنهم: "هـــم نصارى وتقرب ألوانهم من ألوان العرب، والجميع أهل سلم وليست دارهم بـــدار حـــرب"[3] ويـــضيف أيـــضا المقريزي[4] فى رواية نقلها عن ابن سليم الأسواني يقول: "إنه قرأ فى خطبة الأجناس لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ذكر البجة، ويقول عنهم: شديد كأبهم قليل سلبهم".
كل هذه الأسباب كانت نتيجة حتمية أدت فى السنوات الأولى التى تلت الفتح إلى عدم وجود صلة عدائية مبكرة بين العرب الفاتحين والبجة.

ب- البجة في عصر الولاة (فى الفترة من ٢٠هـ- ٢٥٤هـ /٦٥٢- ٨٦٨م).

مضت الفترة الأولى والتي شهدت على فتح مصر، ومحاولات العرب في توطيد أقدامهم في جوانبها. والتزمـــت المصادر الإسلامية الصمت عن ذكر الأحداث السياسية للبجة ضد العرب في الفترة الأولى من عـــصر الـــولاة؛ وربما يرجع ذلك إلى عدم تمركز القبائل العربية بصورة مباشرة في منطقة مصر العليا في هذه الفترة، فلم يكن هناك اتصال بين تلك القبائل وهذه المنطقة، إلا مرابطة الجنود في ثغر أسوان، ومن ثم لم يكن لمـــصر العليـــا دور في الأحداث السياسية التي حدثت في مصر بصفة عامة وقبائل البجة بصفة خاصة خلال الفتـــرة الأولـــى لحكم العرب.

واستمر ولاة مصر تنعم بالهدوء من جانب البجة فترة من الزمن لم تتجاوز ثلاثة وسبعين عام، وذلك حين وجد هؤلاء القوم فى أنفسهم الكفاءة الحربية، ما دفعهم إلى القيام بشن الغارات على صعيد مصر[5]، لذلك كانت

---

(١) صورة الأرض ص٥٦.

(٢) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٢٤.

(٣) صورة الأرض ص ٥٦.

(٤) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٧.

(٥) كرم الصاوى باز: مصر والنوبة فى عصر الولاة ص٢٩٧.

علاقة البجة بولاة مصر الإسلامية بعد المدة المذكورة تتسم بالعداء، ذلك لأن البجة بطبيعتها الصحراوية الجافة كانت عنصرا من عناصر التمرد ضد مصر، فكثيرا ما كانت تغير على جنوب البلاد وتقوم بالنهب والإفساد، الأمر الذى أدى إلى أن يجرد إليهم ولاة مصر الحملات لردعهم[1].

فأول غارة شنها البجة على حدود مصر الجنوبية عند أسوان فى عام ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م زمن خلافة هشام بن عبد الملك ١٠٥- ١٢٥هـ / ٧٢٣- ٧٤٣ م ومن المحتمل أن المسلمين صدوا تلك الغارة لدليل الاتفاقية التى عقدها معهم عبد الله بن الحبحاب السلولى[2] والتى ذكر فيها: أن له من البجة ثلاثمائة بكر (إبل صغيرة) فى كل عام، وحين ينزلون الريف مجتازين غير مقيمين، وألا يقتلوا مسلما ولا ذميا فإن قتلوه فلا عهد لهم، وألا يؤوا عبيد المسلمين، وأن يردوا آبقيهم إذا وقعوا فى أيديهم، ويقال أنهم كانوا يأخذون بهذا، وبكل شاه أخذها البجاوى فعليه أربعة دنانير وللبقرة عشرة، وكان وكيلهم مقيما بالريف رهينة بيد المسلمين[3].

ولم تذكر الدوافع التى كانت سببها هذه الغارة وربما كانت الهدف منها السلب والنهب، أو ربما يرجع سبب هذه الغارة إلى الأختلاف فى المعاملات التجارية بين البجة وأهالي أسوان لقربهم منهم ، وعلى أي حال فان هذه الاتفاقية ضمنت للمسلمين تأمين حدودهم الجنوبية المطلة على الحدود الشرقية، وفى الوقت نفسه تركت العلاقات التجارية حرة كما كانت من قبل[4].

ولقد استمرت هذه العلاقات والمعاملات بين البجة والعرب المسلمين بقرابة قرن حيث كانت تتردد بعض الجماعات البجاوية لقضاء كثير من المصالح التى تتطلبها قرب بيئة حضارية راقية زاخرة بالحياة والحيوية من بيئة أخرى بدوية فقيرة، فيذكر عن ذلك ابن حوقل[5] "أن المسلمين فى إقليم أسوان كانوا مستظهرين على من جاورهم من النوبيين والبجة"، ورغم هذه العلاقات التى تظهر الصفاء فى المعاملة الحسنة، إلا أن البجة كان يتخلل فى نفوسهم العداء ضد العرب ويتضح لنا هذا فى رواية ابن حوقل[6] والتى جاء فيها: أن البجة كانوا يترددون على مدينة قفط[7] ليمتاروا البُرَة – القمح – والتمر، وإذا حصر رئيسهم (مُحا) إلى قفط لهذا الغرض، فإنه كان يكرم ويعظم.

وكان لأهل قفط رئيس منهم يعرف بإبراهيم القفطى، وفى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م عزم هذا الزعيم القفطى على أن يحج إلى بيت الله الحرام فى جماعة من أهل قفط عن طريق وادى العلاقى وعذاب. فوصلوا إلى بلدة

---

(١) عطية القوصي: دولة الكنوز الإسلامية ص٢٨ ، ٢٩.

(٢) عبدالله بن الحبحاب السلولي: هو عامل الخراج فى مصر فى ذاك الوقت من قبل هشام بن عبد الملك، وكان من موالى قبيلة سلول القيسية (المقريزى: البيان والإعراب ص٢٢).

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٩.

(٤) محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى ص ٦٢.

(٥) صورة الأرض: ص٥١ .

(٦) صورة الأرض ص٥١ ، ٥٢.

(٧) قفط: من مدن الصعيد، ويرجع اسمها إلى قفط بن مصر بن بيصر، وهى ليست على ضفة النيل بل بينها وبين النيل نحو ميل، وبينها وبين قوص نحو فرسخ، ومعيشة أهلها التجارة والسفر إلى الهند وتشتهر بأسواق وأصحاب الثروات وحولها المزارع والبساتين الكثيرة . (ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٤ ص ٣٨٣).

عينونة، قرب جزائر بنى حدان، وتطرقوا بمُحا البجاوى وجماعته الذين صحبوهم فى الصحراء ليدلوهم على الطريق إلى عيذاب، لخبرتهم بطرقها ومسالكها، غير أن البجة اجتمعوا إلى رئيسهم مُحا وقالوا له: "لابد من قتل هذا المسلم لمعرفته بديارنا ومقارنا ومظان مياهنا، ولسنا نأمنه ". فلم يوافقهم مُحا على ما طلبوه، ولكنهم غلبوه على رأيه، واتفقوا على إتاهة إبراهيم القفطى وجماعته، فمات الجميع عطشا، ماعدا طفل صغير لإبراهيم القفطى، رق له بعض البجة، واحتال على إنقاذه وأوصله إلى ناحية اتفو[1] من الصعيد فأوصلوه أهلها إلى قفط. ثم أخبر هذا الطفل أهل مدينة قفط لما حدث إلى أبيه وصحبه، فكتموا غيظهم، ولم يبدوه، وعزموا على الأخذ بالثأر من البجة.

ثم جاء مُحا على عادته إلى مدينة قفط وكان معه هذه المرة نحو ثلاثين رجلا من وجوه قومه.، فأنزلهم أهل قفط فى معبد للبجة، ثم قتلوهم جميعا. ولما علم البجة بما حل لرئيسهم مُحا وجماعته، هاجموا مدينة قفط، واحتلوها، وأسروا من أهلها نحو سبعمائة نسمة، وقتلوا منهم عددا كبيرا، ومن نجا من أهل قفط فر ناحية الغرب، وكان يعيش بمدينة قفط وقت ذلك (حسنىّ) [2] له محل فقصد البجة فرد عليهم بعض السبى، أما أهل قفط فإنهم ذهبوا إلى (الفسطاط)، لرفع شكواهم من البجة إلى والى مصر[3] وإرسال حملة لتأديبهم. غير أن الوالى لم يستجيب لندائهم لأنه كان ببعض شأنه مشغولا. فاتجه أهل قفط إلى الحوف الشرقى – محافظة الشرقية الآن وكانت مركز تجمع القبائل العربية آنذاك- للاستنجاد برجل من قبيلة قيس عيلان يدعى (حكم النابغى)، وكان ذا يسار وخير وجهان. وشكا أهل قفط إلى حكم ما حل بهم، وطلبوا إليه أن يكفيهم شر أولئك البجة، واستطاع أهل قفط أن يحصلوا على فتوى قاضى البلد وشيوخها، لتقضى بشرعية الحرب ضد أولئك البجة، وسار معهم فى سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م فى ألف رجل بين فارس وراجل حتى ورد قفط، ثم غزا البجة وظل يحاربهم حتى استرجع السبية بعد أن أقام فى بلدهم ثلاثة سنين، وكان مقره بالمكان المعروف بماء حكم[4] وهو على مرحلة من عذاب وعلى أربع مراحل من العلاقى، حتى استرجع جميع ما سباه البجة، ثم قفل حكم معاودا إلى أسوان ومنها انحدر إلى بلدة طود قرب قوص، فملكها ومات بها.

ومن الملحوظ هنا أنه بالرغم من انتصار حكم النابغى على البجة، إلا أنه لم يقم بعقد معاهدة يلتزم بها البجة من عدم التعرض للمسلمين، تضمن لهم عدم شن الغارات عليهم من البجة، ولكنه اكتفى بأن يقيم فى بلدهم حتى لا يعاود البجة هجومهم ويسترد باقى ما سباه البجة من المسلمين. وربما يرجع ذلك إلى أن حكم النابغى ليس من ولاة الأمور فى الدولة، ولكن ما هو إلا رجل ذو خير وجهاد.

---

(١) إتفو: هى مدينة إدفو الحالية ، حيث تم تغيير حرف التاء إلى حرف دال ، وهى مركز من مراكز محافظة أسوان (الشاطر بصيلى: تاريخ وحضارة السودان ص١٥٢).

(٢) الحسنى: هو أحد العلويين فى ذلك الوقت وكان يتمتع باحترام البجة وتقديرهم له (مصطفى مسعد: البجة والعرب ص١٨٢).

(٣) الوالى فى هذا الوقت هو السري بن الحكم فى الفترة من (٢٠١ – ٢٠٥هـ / ٨١٧ – ٨٢٠م) وكانت هذه الفترة هى فترة الولاية الثانية من قبل المأمون بعدما ثار عليه الجند فى ولايته الأولى وعزل، والتى كانت فى الفترة من (١٩٩ – ٢٠٠هـ / ٨١٥ – ٨١٦م). (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١ ص٢٧١).

(٤) ماء حكم: هو المكان الذى اتخذه حكم النابغى مركزا لعملياته الحربية ضد البجة ولا يزال يعرف باسمه هذا إلى زمن ابن حوقل. (مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٢٩).

غير أنه لم يكد تمضى سنة على إنهاء حرب حكم النابغى على البجة، حتى عادت إلى شن الغارات من جديد على جهة أسوان، وكثر إيذائهم للمسلمين، فرفع ولاة الأمور فى أسوان خبرهم إلى الخليفة المأمون سنة ٢١٦هـ / ٨٤١م، فجرد إليهم حملة بقيادة (عبدالله بن الجهم) وكانت له معهم وقائع، انتهت بموادعتهم وعقد صلح جديد بينه وبين ملكهم (كنون بن عبد العزيز)، كانت شروطه:[1]

– أن يكون سهل بلاد البجة وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر، إلى حد ما بين دهلك (ماسوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا لأمير المؤمنين.

– أن يكون كنون وأهل بلده من البجة عبيدا لأمير المؤمنين، على ان يبقى كنون ملكا عليهم.

– أن يؤدى ملك البجة الخراج فى كل عام، على ما كان عليه سلف البجة، وذلك مائة من الإبل او ثلاثمائة دينار لبيت المال.

– ألا يذكر أحد من البجة محمد صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغى أن نذكره.

– إن قتل البجة أحد من المسلمين حرا أوعبدا، برأت منه ذمة المسلمين وحل دمه.

– إن عاون أحد من البجة المحاربين على الإسلام، بمال أو دله على عورة من عورات المسلمين، أو أسر لعزتهم، فقد نقض ذمة عهده وحل دمه.

– إن قتل أحد من البجة مسلما، عمدا أو سهوا أو خطأ، حرا أو عبدا، أو واحد من أهل ذمة المسلمين، فى بلاد البجة أو بلاد الإسلام أو بلاد النوبة، أو فى أي شيء من البلدان برا أو بحرا، فعليه فى قتل المسلم عشر ديات، والعبد المسلم عشر قيم، وفى قتل الذمى عشر ديات من دياتهم.

– أن فى كل مال أصابه البجة للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه.

– إذا دخل أحد من المسلمين بلاد البجة، تاجرا أو مقيما أو مجتازا أو حاجا فهو آمن حتى يخرج.

– على البجة ألا يؤوا آبقى المسلمين، وأن يردوهم إذا وقعوا فى أيديهم.

– على البجة أن ترد أموال المسلمين إذا صارت بلا مؤنة فى بلادهم.

– على البجة إذا نزلوا ريف صعيد مصر تجارا أو مجتازين، لا يظهرون سلاحا، ولا يدخلون القرى أو المدن.

– على البجة ألا يمنعوا المسلمين وأهل ذمتهم من الدخول فى بلادهم للتجارة فيها برا وبحرا، ولا يقطعوا عليهم الطريق، ولا يخفوا السبيل، ولا يسرقوهم.

– على البجة ألا يهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمين بصنجة[2] وهجر[3].

---

(١) المقريزى: ج١ ص١٩٥.

(٢) صنجة: وهى سنجة وهى سنكات الحالية التى تقع حاليا على خط السكة الحديد بين بور سودان ونهر العطبرة ، وكانت فيما مضى محطة لها أهميتها على مفرق طرق القوافل، تقع هذه البلدة فى قلب القطاع الذى شرط الأمير ملكيته للخليفة، بمقتضى عقد الأمان. ويحتمل أن يكون هذا صحيحا، وهناك من خالف ذلك وذكر أن هذا الاسم (صنجة) هى ميناء على البحر الأحمر بالقرب من ميناء عيذاب – ويبدو أن هذا الاسم قد استعمل لأكثر من مكان حيث ذكر أيضا أنه استعمل فى منطقة كسلا، وعلى حوض وادى النيل الأزرق، وتغير حرف الصاد وصارت حرف سين (الشاطر بصيلى: تاريخ وحضارات السودان ص ١٥٨).

(٣) هجر: وهى الواقعه فى إقليم لملم، على رافد (تكازى) نهر ستيت، الذى يلتقى بالعطبرة وتعرف الآن ببلدة أم حجار، أو أم هجر، حيث اكتسبت هذه البلدة موقعا مهما ومركزا تجاريا للقوافل فى بلاد البجة، و تميز موقعها الاقليمى بقيامه على المدخل بين حوض النيل وأثيوبيا–

– أن يقيم كنون بن عبد العزيز بريف مصر، وكيلا يفى للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج، ورد ما أصابه البجة للمسلمين من دم ومال.

– على البجة ألا يعترضوا حد القصر[1] إلى قرية يقال لها قبان من بلد النوبة حد الأعمدة.

– على كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم منهم.

وجاء فى نهاية هذا العقد أن على كنون الوفاء بما شرط عليه وإن أخل أحد بهذه الشروط نقض هذا العهد وذكر أن ترجم جميع ما فى هذا العقد من شروط حرفا حرفا زكريا ابن صالح المخزونى من سكان جدة، وعبدالله بن إسماعيل القرشى.

ومن الملحوظ هنا فى هذا العقد أن الحد الجنوبى الذى ورد فيه لا يمثل الواقع، لأن ميناء باضع تقع جنوب سواكن، ودهلك مجموعة من الجزائر فى البحر الأحمر أمام ميناء مصوع[2]، كما يتضح لنا أيضا من نص هذا العقد أن بلاد البجة، لأول مرة أصبحت جزءا من الدولة الإسلامية، بدليل فرض الخراج عليها. كما أنه ورد نص أيضا يلزم البجة بعدم التعرض للمسلمين، الذين يجتازون بلادهم للحج والتجارة أو الإقامة بأذى فضلا عن حفظ المساجد القائمة فعلا ببلاد البجة، وجمع صدقات من أسلم من البجة، وفى ذلك دليل على أن الإسلام أخذ ينتشر فى تلك الأقاليم وأن بعض المسلمين يقومون بها كذلك[3] ومما لا شك فيه أن هذه الجماعات العربية المسلمة تركت لهم نوع من التأثير فى من اختلطت بهم من البجة، بل إن بعضهم تعلم اللغة التبداوية (لغة البجة) ليسهل عليه التعامل مع البجة، والتأثير فيهم، والدليل على ذلك أن زكريا بن صالح المخزونى من سكان جدة، وعبدالله بن إسماعيل القرشى، قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة التبداوية[4].

وعلى الرغم من توقيع المعاهدة بين البجة وعبدالله بن الجهم، ما لبثت البجة خمسة عشر عام حتى عاودوا شن الغارات من جديد على مدن الصعيد فتوجه إليهم ابن الجهم للمرة الثانية فى عام ٢٣٢هـ / ٨٤٧م، زمن خلافة المتوكل ٢٣٢- ٢٤٧ هـ / ٨٧٤ – ٨٦١ م لردهم على إيذاء المسلمين، حيث أن البجة هجمت على مدينة أتبو[5] مدينة من الصعيد كان بينها وبين أسوان مرحلة، وكان عبدالله بن الجهم يتولى أسوان، وعيذونا، والحوراء، وكانت أتبو مضافة إليه، فركب من عيذونا والحوراء فى جلاب (سفن صغيرة) فارسى بأقصى جزيرة مصر بمعسكره فغزا البجة وقاتلهم قتالا شديدا وسباهم، واسترد ما سباه البجة من أتبو وعاد إلى أسوان وعبر إلى عيذونا[6].

–وهذا الأمر الذى جعل القوافل تتخذه منفذا لها بين تلك البلاد، وساحل البحر الإرتيرى فى مختلف موانيه من مصوع وباضع وسواكن وغيرها (الشاطر بصيلى: معالم تاريخ سودان وادى النيل، ط القاهرة، ١٩٥٥، ص٢٣-٢٤).

(١) القصر : هى أول بلد النوبة وبينها وبين أسوان خمسة أميال من الجنوب، وبينها وبين آخر حصن المسلمين جزيرة بلاق ميلا واحدا. (المقريزى : المواعظ والاعتبار ج١ ص١٨٩).

(٢) الشاطر البصيلى: تاريخ وحضارات السودان ص١٤٥ .

(٣) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٢٦٠.

(٤) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٢٩٠.

(٥) أتبو: وهى مدينة كوم امبو الحالية، وهى من مراكز محافظة أسوان، وتغير حرف النون وصار حرف ميم، وأضيف إليها لفظ كوم (الشاطر بصيلى: تاريخ وحضارات السودان ص١٥٣).

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٣.

ويبدو لنا من هجوم البجة على مدن الصعيد، ونقض البجة للمعاهدات من وقت إلى آخر، وإن دل هذا فيدل على أن البجة بطبيعتها الصحراوية الجافة كانت عنصرا من عناصر التمرد لذلك كثيرا ما كانت تقوم بالنهب والإفساد على جنوب البلاد، بالإضافة إلى بيئتها القاحلة التى لم تكن تلبى لهم وسائل الإعاشة.

وكيفما كان الأمر، حتى عاودت البجة الإغارة على الصعيد فى زمن خلافة المتوكل، فى عهد ولاية عنبسة بن إسحاق الضبى[٥] حيث أنفذ إليهم المتوكل حملة بقيادة (محمد بن عبدالله القُمى)[١] فى عام ٢٤١هـ/٨٥٤م ويذكر السبب فى هذه الحملة: أن فى عام ٢٣٨هـ /٨٥٢م وقعت شحناء بين بجاوي ورجل عربى فى أرض المعدن فسب البجاوى النبى صلى الله عليه وسلم[٢] ومن هنا بدا الخلاف بين العرب والبجة فى أرض المعدن – وادي العلاقي، فتعرضوا للمسلمين الذين يعملون بأرضهم ، وقتلوا عدة ممن كان يعمل بأرض المعدن، ويستخرج الذهب والجوهر، وسبوا عدة من أبنائهم ونسائهم فانصرفوا عن أرض المعدن خوفا على أنفسهم وأولادهم[٣] كما تعرضوا لمن يعمل فى معادن الزمرد من العمال والفعلة والحفارين، فاجتاحوا الجميع[٤] وامتنعوا من أداء ما كان يؤدونه من معادن الذهب التى بأرضهم[٥] فانقطع بذلك ما كان يأخذه المتوكل بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر الذى يستخرج مكان المعدن[٦] وكان يقدر بأربعمائة مثقال تبر قبل أن يطبخ أو يصفى كل سنة[٧] بالإضافة إلى ما كان يؤديه البجة للمسلمين كل سنة من خمسمائة نفر من العبيد والجوارى، مع غير ذلك من النجب البجاوية، وزرافتين، وفيلين، وأشياء أخرى[٨].

وبعد ذلك قامت البجة بالإغارة على أرض الصعيد[٩] وبلغ بهم الأمر فى عام ٢٤١هـ/٨٥٤م حتى اتصلت غاراتهم بأعالي الصعيد، ونهبوا بعض القرى المتطرفة مثل:

---

(١) عنبسة بن إسحاق الضبى: هو عنبسة بن اسحق بن شمر بن عيسى بن عنبسة الأمير أبو حاتم وقيل: أبو جابر، وهو من أهل هراة (وهى مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خرسان) وولى مصر من قبل المنتصر محمد بن الخليفة المتوكل على الله جعفر فى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م وهو آخر من ولى مصر من العرب وعزل عنها سنة ٢٤٢هـ /٨٥٦م فكانت ولايته على مصر أربعة سنين وأربعة شهور، ثم خرج من مصر وتموجه إلى العراق وكان هذا فى عام ٢٤٤هـ/٨٥٨م (ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٢ص٢٩٥).

(١) القُمى: هو أبى أحمد محمد بن عبدالله القُمي، وهو قائد شرطة وإلى مصر (عنبسة الضبى) فى ذلك الوقت، وسمى بالقُمى نسبة إلى (قُم) بلد بين ساوة وأصبهان (ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٢ ص٢٩٤) وقيل: أنه من ولد أبى موسى الأشعرى، وكان مطالبا بدم لا ولى له (ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٣).

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٠.

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج٩ حوادث ٢٤١هـ ص٢٠٤.

(٤) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٥.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤٠.

(٦) ابن الأسير: الكامل فى التاريخ ج٧ حوادث ٢٤١ ص٧٧.

(٧) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص٢٠٣٠.

(٨) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٥.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤٠٠.

إسنا[1]، وإتفو، وظواهرهما، ففر أهل الصعيد عن أوطانهم خوفا منهم[2].

فكتب صاحب البريد بمصر[3] ما فعلته البجة، فشاور المتوكل فى أمرهم، فذكر له أنهم أصحاب إبـل وماشـية، وأن الوصول إلى بلادهم صعب، لأنها مفاوز، وبينها وبين بلاد الإسلام مسيرة شهر[4] فى أرض قفـر وجبـال وعرة وأن من يدخلها من الجيوش يحتاج إلى أن يتذود لمدة شهر حتى يخرج منهم، فإن جاوز تلك المدة هلك، وأخذتهم البجة باليد، وإن أرضهم لا ترد على السلطان بشيئا[5] كما أخبر أيضا أن هؤلاء الطائفة متى طـرقهم طارق من جهة البلاد الإسلامية، طلبوا النجدة ممن يجاورهم من طريق النوبة، وكذلك النوبة طلبوا النجدة مـن ملوك الحبوش، وهى ممالك متصلة بشاطىء نهر النيل حتى تنتهى بمن قصد السير إلى بلاد الـزنج، وانتهـى إلى جبل القُمر الذى ينبع منه النيل وهى آخر العمران من كرة الأرض[6].

فلما وقف المتوكل على ما ذكره أرباب الخبرة لأحوال تلك البلاد، فترت عزيمته عما كان قد عزم إليـه من تجهيز العساكر، فأمسك المتوكل عن التوجيه إليهم بحملة إليهم، وجعل أمره يتزايد وجرأتهم على المسلمين تشتد، حتى خاف أهل الصعيد على أنفسهم وأولادهم منهم[7].

وبلغ ذلك محمد بن عبدالله القُمى وذهب إلى (الفتح بن خاقان) وزير المتوكل، وذكر لـه مـا فعلتـه البجة، وأنه متى رسم له المتوكل إلى عمال مصر بتجهيزه، عبر إلى بلاد البجة وتعدى منها إلى أرض النوبـة وغزا سائر تلك الممالك، فلما عرض الفتح حديثه على المتوكل، أمر المتوكل بتجهيزه وسائر ما يحتاج إليـه، وكتب إلى عنبسة بن إسحاق، أن يمده بالخيل والرجال والجمال وما يحتاج إليه من الأسـلحة والأمـوال، وأن يوليه الصعيد الأعلى ليتصرف فيه كيف ما شاء، وسار القمى حتى وصل إلى مصر، وعندما وصـل قـام لـه عنبسة بتجهيز سائر ما اقترحه عليه، وأنزل له عدة ولايات من أعمال الصعيد[8] فولاه قفط والأقصر[9]

---

(١) إسنا: بالكسر ثم السكون، ونون، وألف مكسورة: مدينة بأقصى الصعيد، وليس ورائها إلا إدفو وأسوان ثم بلاد النوبة، وهي على شاطئ النيل من الجانب الغربي في الإقليم الثاني، وهي مدينة عامرة طيبة كثيرة النخل والبساتين والتجارة (ياقوت الحموي: معجـم البلـدان ج١ ص١٨٩).

(٢) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٦.

(٣) كان يلي بريد مصر في ذلك الوقت، رجل من خدم المتوكل يقال له: يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي مـولى الهـادى وهـو المعـروف (بقوصرة) وجعل إليه بريد مصر والاسكندرية وبرقة ونواحي المغرب (الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص٢٠٣).

(٤) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٦.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤٠.

(٦) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٦.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص ٢٠٤.

(٨) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٧.

(٩) ذكرت الأقصر بالقصير في بعض الروايات (ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٧).

– الأقصر: كأنه جمع قصر، جمع قلة، اسم مدينة على الشاطئ الشرقي للنيل، بالصعيد الأعلى فوق قوص، وهي أزلية قديمة ذات قـصور، لذلك سميت الأقصر وكان يضاف إليها كورة (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص٢٣٧).

– أما القصير: موضع قرب عيذاب، بينه وبين قوص خمسة أيام، وبين عيذاب ثمانية أيام، وفيه مرفأ سفن اليمن. (ياقوت الحموي: معجـم البلدان: ج٤ ص٣٦٧).

وإسنا وأرمنت[١] وأسوان[٢] كما سأل القمى أن يختار من الرجال من أحب، ولم يرغب فى الكثير لصعوبة المسالك[٣] وجهز بما طلب من الرجال والسلاح[٤] فلما فرغ من استخدام الرجال وبذل الأموال، حمل ما قدر عليه من الأزواج والأثقال.

وبعد أن جهز من ساحل السويس سبع مراكب موقرة بجميع ما تحتاج إليه عساكره[٥] من الدقيق والزيت والتمر والسويق والشعير، وأمر أصحابه أن يوافوه بها فى ساحل البحر مما يلى بلاد البجة[٦] بعد أن عينت لهم الأدلاء مكان من ساحل البحر الأحمر نحو عذاب، يكون اجتماعهم فيه بعد مدة معلومة[٧] فخرج إليهم من مصر فى عدة قليلة من الرجال المنتخبة، وسارت المراكب[٨] وكان عددهم فى البداية ألف رجل ما بين فارس وراجل، كما كان معه خزانة بعشرة آلاف دينار وسار بهم إلى أسوان ثم أتى العلاقى، وأخذ منها رجال من قبيلة ربيعة ومضر واليمن، وكان عددهم ثلاثة آلاف رجل من كل بطن ألف رجل[٩] كما انضم إليه أيضا جميع ما كان يعمل فى المعدن فأصبح معه قوم كثير من المتطوعة[١٠] حتى بلغت عدته نحو سبعة آلاف مقاتل[١١] ما بين وفارس وراجل[١٢] وسار بهم حتى تعدى حفائر الزمرد، وأوغل بهم فى بلاد البجة حتى قارب مدينة دنقلة وشاع خبر قدومه إلى أقصى بلاد السودان[١٣] فنهض ملكهم وكان يقال له (على بابا) فى جيش كبير، أضعاف من مع القمى، وهم على إبل فرهة تشبه المهارى[١٤] وبلغ عددهم مائتى ألف مقاتل، منهم ثمانون ألف يركبون النجب[١٥] كما يحاربون بغير ثياب، وأكثر سلاحهم الحراب والمزاريق – الرماح القصيرة – كما أن نجوبهم غاية من الزغاوة (الشراسة) والنفور[١٦].

---

(١) أرمنت: بالفتح، والسكون، وفتح الميم، وتاء: كورة بصعيد مصر بينها وبين قوص في سمت الجنوب مرحلتان، ومنها إلى مدينة أسوان مرحلتان (ياقوت الحموي: معجم البلدان: ج١ ص١٥٨– ١٥٩).

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤٠.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٦ .

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(٥) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٧ .

(٦) البلاذري : فتوح البلدان ص٢٤٠.

(٧) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٧.

(٨) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٦.

(٩) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص ٢٠٥.

(١١) تقول بعض الروايات أن الجيش كان مكونا من عشرين ألف مقاتل (ابن خلدون: العبر ط بولاق ١٢٨٤هـ ج٣ ص٢٢٧) و(البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٣٩) و(الطبرى ج٩ ص٢٠٥) و (ابن الأثير: الكامل ج٧ص٧٨). ويقول البعض: أن الجيش كان مكون من سبعة آلاف (ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٧)، ويبدو أن هذا الرقم الصغير أقرب إلى الصواب بسبب المصاعب التى كانت على الجيش أن يقابلها خلال اختراقه الصحراء، وكانت حاجته ماسة إلى الماء.

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤٠.

(١٣) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٧.

(١٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤١.

(١٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(١٦) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٨.

فلما التقى الجمعان وعاين ذلك المسلمين هال لهم وعظم عليهم، فقال لهم القمي: مالنا من محيص، فقاتلوا عن دمائكم، وأحسابكم، فإنكم حاصلون[1] فتقاتلوا أياما ولم يصدقوهم القتال[2] وأخذ البجة يناوشوهم ويطاردوهم حتى تطول الأيام طمعا فى نفاذ الزاد والعلوفة التى معهم، ولا يكون لهم قوة، ويموتون هزلا فيأخذهم البجة بالأيدى، فلما توهن عظيم البجة أن الأزواد قد نفذت، أقبلت السبع مراكب التى حملها القمي، حتى خرجت إلى ساحل من سواحل البحر الأحمر فى موضع يعرف بصنجة فوجه القمى إلى هناك جماعة من أصحابه يحمون المراكب من البجة، وفرق ما فيها على أصحابه، فاتسعوا فى الزاد والعلوفة[3]. فقويت قلوب العساكر الإسلامية بذلك، فعندما تيقنت البجة أن المدد لا ينقطع عنهم من جهة الساحل، فهموا على محاربتهم. ودنوا إليهم فى أمم لا تحصى[4] وصادقوهم القتال، وكانت إبلهم ذعرة، تنفر من كل شيء، فلما رأى ذلك القمي، جمع كل الجرس الذى فى عسكره وجعلها فى أعناق خيله[5] وأمر أصحابه. بتحريك الطبول، ونفير الأبواق ساعة الحملة[6] وهم على بابا بالهجوم على المسلمين، ولكن حال بينه وبين ما أراد الليل، فرمى القمى حسك الحديد – سورا – على عسكره. وأنشأ القمى كتابا فى طوامير كتان بالذهب، وجعلها بخط جليل، ووضعها على أسنة الرماح، ونادى عند طلوع الشمس: هذا كتاب أمير المؤمنين إليكم يا معشر البجة، وهم صافون، ولما رأت البجة ذلك استطرقت، وتحللت من المصاف وقصدته والتفت البجة بالطوامير[7] فعند ذلك أمر أصحابه بالتكبير. ثم حمل بعساكره على البجة حملة رجل واحد، وحركت نقاراته وخفقت طبوله، وعلا حس تلك الأجراس، حتى خيل للبجة أن السماء قد انطبقت على الأرض. فرجعت جمال البجة عن ذلك جافلة على أعقابها، وقد تساقط عن ظهورها أكثر ركابها، واقتحم عساكر الإسلام البجة فقتلوا ما ظفروا به منهم، حتى كلت أيديهم، وامتلأت تلك الشعاب بالقتلى، حتى حال بينهم الليل[8] وكان ذلك فى أول سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م ثم رجع إلى معسكره ولم يقدر على إحصاء القتلى لكثرتهم، فلما أصبح القمى وجدهم قد جمعوا جمعا من الرجالة. ثم صاروا إلى موضع أمنوا فيه من القمى، فتوجه إليهم القمى فى الليل، فوجدهم قد هربوا وهرب ملكهم، فأخذ تاجه ومتاعه[9] وبعد ذلك طلب على بابا الأمان من القمى. فأمنه على أن يؤدى ما عليه، فحمل إليه الخراج للمدة التى منعها وهى أربع سنين[10] لكل سنة أربعمائة مثقال[11] ثم وطأ على بابا بساط القمى فخلع عليه خلعة من ملابسه،وعلى ولده،وعلى جماعة من أكابر أصحابه،ثم شرط عليه أن يتوجه معه إلى بين

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤١.

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص ٢٠٥.

(٤) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج٧ص٧٨.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٨.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣، ٥٤.

(٨) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٨.

(٩) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص ٢٠٦.

(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤١.

(١١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٦.

يدى الخليفة المتوكل على الله، ليطأ بساطه. فامتثل على بابا لذلك[1] واستخلف ابنه على مملكته[2] وأخذ القمى على بابا أسيرا، بعد أن كان على ربوة، وحلف ألا يزول أو تنقلع الربوة، فلما أسره القمى عاد به وبمن معه من الغنيمة إلى أسوان، فباع ذلك فكان مبلغه خمسين ألف وقية تبرا[3] ثم ذهب القمى بعسكره وبصحبته على بابا حتى وصل إلى مصر. فأكرمه عنبسة وبعد ذلك انصرف القمى بعلى بابا إلى المتوكل، فوصل إليه فى آخر السنة، فكسا على بابا ذراعه دباج، وعمامة سوداء، وكسا جمله رحلا مدبجا وجلال دباج، ووقف بباب العامة مع قوم من البجة نحو من سبعين غلاما على الإبل بالرحال، ومعهم الحراب فى رؤوسها رؤوس البجة الذى قتلهم القمى[4] فلما دخل على المتوكل خلع عليه المتوكل وعلى أصحابه الدباج[5] وأمره الحاجب بتقبيل الأرض فامتنع، فعزم المتوكل أن يأمر بقتله، وخاطبه على لسان الترجمان: أنه بلغنى أن معك صنما[6] معمولا من حجر أسود، تسجد له فى كل يوم مرتين، فكيف تأبى عن تقبيل الأرض بين يدى، وبعض غلمانى قد قدر عليك وعفا عنك: فلما سمع على بابا كلامه قبّل الأرض ثلاث مرات، فعفا عنه المتوكل وأفاض عليه الخلع وأعاده إلى بلاده[7] بعد أن شرط عليه دفع الجزية وهى سبعة دنانير فى كل يوم وهى قيمة ثمنه بعد أن عرض بالمناداة بالمزاد هو وملك النوبة، فبلغ ملك النوبة تسع دنانير وعلى بابا سبع، فأجرى لكل واحد منهما فى كل يوم مثل ثمنه مقابل إقامته فى بلده ورئيسا على قومه[8] وشرط عليه أداء الإتاوة والبقط، واشترط عليه أن

---

(١) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٨.

(٢) ذكرت بعض الروايات اسم ابنه بأشكال مختلفة فذكره الطبرى (تاريخ الرسل ج٢ ص٢٠٥) باسم لعيس، وذكر عنه ابن الأثير (الكامل ج٧ ص٧٩) باسم بغش، وذكر عند ابن تغري (النجوم الزاهرة ج٩ ص٢٩٩) باسم ليعس، واختلف معهم المقريزى (المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٦) إذ يقول: قُتل كبيرهم وقام من بعده ابن أخته وبعث يطلب الهدنة.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٤.

(٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص ٢٠٦.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤١.

(٦) ذكر أنه على هيئة الصبي (الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص٢٠٦).

(٧) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٩٩.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٤.

– ويتضح لنا من رواية ابن حوقل هذه – أي فيما يختص بالمناداه بالمزاد على ملك النوبة بعد ذهابه إلى بغداد، وهذه مسألة لا يمكن التسليم بها، وذلك نظرا لعدم ذكر ابن حوقل الأسباب التى جعلت القمي يطلب ملك النوبة إلى الذهاب إلى بغداد. ويبدو فى ذلك أن ابن حوقل قد اختلط عليه الحدث وفى ذكر تاريخه وشخصياته، ويمكن تحديد ذلك الخلط من خلال رواية المقريزى (الخطط ج١ ص٢٠١) فيذكر: عندما تعرض النوبيين فى عهد المعتصم للضغط المتزايد، من قبل ولاة المسلمين، فى صعيد مصر الأعلى، على عجزهم من دفع البقط، فاستنكر ابن ملك النوبة (قيرقى) طاعة أبيه (زكريا بن بحنس) المسلمين وعدم حربه لهم، وأشار إليه والده: أن يرسله رسولا إلى بلاد المسلمين فى بغداد، لكى يتعرف على قوة المسلمين الحربية، ويقارن بينهم وبين قوته، وكيف يستعد لصدهم، فتوجه إلى بغداد وانحدر بانحداره رئيس البجة، ولقيا المعتصم"

وبعد أن أشرنا إلى رواية المقريزى يمكن لنا أن يتضح أن ابن حوقل قد اختلطت عليه الأحداث ويحتمل ذلك أن يكون لبعده عن وقوع الأحداث لقرابة قرن من الزمن، وهذا كفيل بخلط الأحداث وتغيير الأسماء فنجده ذكر (بركى) وهذا يقارب (قيرقى) فى الحروف والصوت.
وهذا نجده أيضا عند اليعقوبى (البلدان ص٣٣٦) وهو السابق فى ذكر الأحداث عن ابن حوقل فقد ذكر اسم قيرقى باسم (قرقى)– علاوة على ذلك من تشابه الأحداث فى الذهاب إلى بغداد، فقد حدث أن حضر رئيس البجة مرة مع القمى إلى بغداد فى عهد المتوكل، وقد انحدر مرة سابقة رئيس البجة مع ملك النوبة إلى بغداد فى عهد المعتصم–

لا يمنع المسلمين من العمل فى المعدن[1] وولى المتوكل (سعد الخادم الإيتاخى) البجة، والطريق ما بين مصر ومكة[2]، فولى سعد القمى، فخرج

القمى بعلى بابا وهو على دينه[3] وعاد القمى إلى أسوان ثم ذهب إلى العلاقى، وكان قد خلف عليها رجلا من بنى حنيفة يعرف(باشهب) ربيعة من بنى عبيد بن ثعلبة[4] وقد مس الناس بالجور، فرفعوا عمله عند القمى فقبض عليه، ثم حبسه مدة طويلة على ما فعله، ثم أطلق سراحه وقد حفظ أشهب فعل القمى به، فقتله وكان هذا فى عام ٢٤٥هـ /٨٦٨م[5] مستندا فى ذلك إلى قوة قبيلته ازدياد نفوذها فى المنطقة.

ويبدو لنا من قتل القمى على أيدى العناصر العربية فى العلاقى، كانوا الغرض منه رغبة هذه العناصر العربية فى التخلص من سيادة الدولة الإسلامية على هذا الإقليم، ولا سيما بعد أن كشفت هذه العناصر العربية عما يحويه إقليم العلاقى من مناجم للذهب والزمرد، ومحاولتها الإنفراد باستغلال هذه المناجم دون تدخل من جانب الدولة الإسلامية، وذلك بعد أن زاد نفوذ الأتراك على حساب العرب[6] إذ عاينوا التبر وآثار العمل فيه للروم عند أول دخولهم أرض البجة مع عبدالله بن الجهم وأصروا القيام فى العلاقى ورفضوا العودة منه[7] وأنهم من ذلك الوقت أي من سنة ٢٤٥هـ / ٨٦٨م زاد نفوذ الخليفة فى إقليم العلاقى على حين أن الإسلام فى بعضها مريض[8] ويعنى هذا أن رقابة الدول الإسلامية فى أرض البجة على نشر الإسلام، وتنظيم جباية الجزية والخراج والزكاة لم تعد قائمة فى هذا الإقليم منذ ذلك الوقت[9].

أما عن البجة فإن الصلح الذى عقده معه القمى كفل وقف غاراتهم على الصعيد فترة من الوقت استطاع العرب خلالها مواصلة العمل فى مناجم الذهب، ومعادن الزمرد دون خوف من تعرض البجة لهم. واجتذب هذا السلام جماعات عربية أخرى جاءت للبحث عن الثروة، الأمر الذي انتهى بمخالطتهم للبجة، وإسلام عدد كبير من رجالهم والتزوج منهم.

– إضافة إلى أن سبقه من المؤلفين أمثال البلاذري ت ٢٧٩هـ (فتوح البلدان ص ٢٣٩) الذين تحدثوا عن حرب القمى لم يذكر فى روايته شيء عن ذهاب القمى بملك النوبة إلى بغداد.

وإضافة إلى تأكيد هذا القول من أن ابن حوقل قد تلتبس عليه الأحداث والتواريخ، لأنه عندما ذكر ذهاب القمى و معه رئيس البجة بعد حربه عليهم إلى بغداد كان فى عام ٢٣٨هـ، وأن سابقيه ولاحقيه من المؤلفين اتفقوا على أن هذا كان فى عام ٢٤١هـ.

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٦.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤١.

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص ٢٠٦.

(٤) وهو أشهب بن ربيعة بن حنيفة بن لجيم بن صعب، وظل رئيسا لربيعة حتى قتله عبد الرحمن العمرى على تشيعه (المقريزى: المقفى ج٤ ص٤١٤).

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٤.

(٦) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٣١.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٣.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٤.

(٩) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٣١.

ج- البجة من بداية عهد الدولة الطولونية إلى سقوط الدولة الفاطمية

(في الفترة من ٢٥٤هـ ـ ٥٧٠ هـ / ٨٦٨ ـ ١١٩٠م).

عقب تأسيس الدولة الطولونية فى مصر، عام ٢٥٤هـ / ٨٦٨م، على يد أحمد بن طولون، ظهر رجل بالصعيد، يقال له عبد الحميد أب عبدالله بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ويكنى بأبى عبد الرحمن العُمري[١] كان مقيما بقاصية منه[٢] ولكنه ولد بالمدينة، ونشأ بها. وقدم إلى مصر، وسمع منه الناس الحديث. ثم غادرها إلى القيروان ومضى بها وقتا من حياته. ثم عاد إلى مصر عام ٢٤١هـ / ٨٥٥م، وكانت فيه أدوات من فقه وأدب وشعر ومعرفة بالنجوم والفلسفة، وما أن بلغه خبر المعدن وإشارة الناس للتبر، فاشترى عبيدا للعمل بالمعدن، واتجه بعد ذلك إلى أسوان على سبيل التجارة، ونزل بها وجالس شيوخها وجاراهم العلم[٣]، بعدما كثر المسلمون فى المعدن، واختلطوا بالبجة وقل شرهم، وظهر التبر لكثرة طلابه[٤].

ورغم هذا القول راح بعض الكتاب. يشير إلى أن العُمري وحملته إلى بلاد البجة والنوبة – كانت بتكليف من أحمد بن طولون، وأوكل قيادتها إليه. وهذه الإشارة لم تكن صائبة، لأنها لا تطابق ما أشار إليها التاريخ ويتضح ذلك فى الآتى:

– إن تاريخ أحمد بن طولون، يؤكد وصوله إلى مصر فى ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤هـ (١٥سبتمبر سنة ٨٦٨م) فى وظيفة نائب لواليها باكباك[٥] و يؤكد تاريخ العُمري وصوله إلى مصر، كان للمرة الثانية فى عام ٢٤١هـ / ٨٥٥-٨٥٦م. ثم دخل إلى أرض المعدن بعد ذلك بزمن قصير[٦] ونستنتج من التاريخان : أن العُمري دخل أرض المعدن، قبل دخول أحمد بن طولون مصر.

ـ إن العلوى[٧] عندما التقى بالعُمري عام ٢٦٠هـ / ٨٧٤م، وكانت بينهما واقعة، انهزم فيها العلوى.

---

(١) البلوى: سيرة احمد بن طولون ص ٦٤.

–ذكر اسمه بأشكال مختلفة عند المؤلفين العرب فورد اسمه عند ابن خلدون (العبر، المجلد ٤ القسم ٣، ط بيروت ١٩٨٣: ج٤ ص٦٤٦) عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر، وورد عند المقريزى (الخطط ج١ ص١٩٦) أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري، وورد في (المقفى الكبير ج ٤ ص٤٠٣) عبد الله بن عبد الحميد بن عبد الله الناسك بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٢) ابن خلدون: العبر، المجلد ٤ القسم ٣ ج٤ ص٦٤٦.

(٣) المقريزى: المقفى الكبير ج٤ ص٤٠٤.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٦.

(٥) البلوى: سيرة أحمد بن طولون ص٦.

(٦) المقريزى: المقفى الكبير ج٤ ص٤٠٤.

(٧) العلوى: ذكر أنه إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب، وكان يعرف بالصوفى، حيث خرج على ابن طولون عام ٢٥٣هـ فى أقصى الصعيد، واستطاع الاستيلاء على إسنا عام ٢٥٥ هـ وفتحها وعاث وأفسد فى نواحيها، فجرد إليه أحمد بن طولون جيشا بقيادة بن يزداد، ولكن ابن الصوفى تغلب عليه وهزمه، ثم قطع يده ورجله وصلبه، فبادر ابن طولون بإرسال جيش له بقيادة بهم بن الحسين، حيث التقى بابن الصوفى فى أخميم عام ٢٥٦ هـ، واستطاع بهم التغلب عليه وهزمه، مما أدى إلى فراره إلى نواحى الواحات، وبقى بها مدة حتى حوالي عام ٢٥٩ هـ، واستطاع خلالها أن يجمع حوله أنصارا جدد، ثم خرج إلى الأشمونين، فأرسل إليه ابن طولون جيش بقيادة أبى المغيث، فوجده متوجه إلى الصعيد لقتال العمرى، فالتقى بالعمرى سنة ٢٦٠ هـ –

وسار إلى ناحية أسوان فعاث بها وأفسد، وكتب بخبره إلى أحمد بن طولون. فكتب إلى قائده بهم بن الحسين، يأمره بأن يصعد فى طلبه حيث قصد[1] فلو كان العُمري من قادة ابن طولون. ما كان عليه أن يترك العلوى، بل كان لاحقه أينما قصد، حتى يتم له القضاء عليه، ولكن العُمري كان يدافع عن منطقته المستقلة فقط.

بالإضافة إلى ن ابن طولون عندما كتب بخبر العلوى إليه، أرسل إليه القائد بهم بن الحسين من القاهرة يلاحقه أينما ذهب، ولم يرسل إلى العُمري بالرغم من قربه إليه، وقد انتصر عليه بعد ذلك – فبدلا من إرسال حملة من القاهرة إلى جنوب الصعيد كان أسهل عليه إرسال قائده الأقرب منه.

ــ إن ابن طولون عندما وقف على خبر العُمري، واشتدت شوكته على البجة وغيرهم. أرسل إليه أحد قادته وهو شعبة بن خركام[2] وعند ملاقاته بالعُمري، خاطبه العُمري قبل حربه فقال له: إن الأمير لم يبلغه خبرى على حقيقته ، وقد قدموا عليه فى أمرى، فإنى لم أخرج أبغى فسادا[3] والدليل على ذلك لم أؤذى مسلما ولا ذميا، إنما خرجت فى طلب أعداء المسلمين حتى كفانا الله أمرهم[4] وفى خطاب العُمري لشعبة، يوضح فيه العُمري لابن طولون خروجه إلى أرض البجة والنوبة. وهذا القول يؤكد عدم معرفة ابن طولون بالعُمري وخبره من البداية، وينفى العلاقة بينهما تماما – فكيف يكون من قادته وأرسله إلى هذا الغرض وهو لا يعلم أمره.

وكيف ما كان الأمر، اتجه العُمري بعد ذلك إلى أرض المعدن، ونزل على حى من مضر، وقد حدث خلاف بين بنى مضر وبنى ربيعة. بسبب مقتل رجل من مضر، فاجتمع الفريقان دون دعوة العُمري، فغضب من ذلك ورحل عن موطنهم، فلحق به جماعة من القوم، فرفض الرجوع معهم ولم يقبل العودة إلا بعد أن أعطوه عهدا بألا يفعلوا عملا إلا بأمره، واستغل ذلك العُمري، وجعلها بيعة له فانحاز بالجميع بعد ذلك إلى أرض المعدن مما يلى الجنوب من بلاد البجة[5] ثم اوغل فى بلاد البجة حتى التقى بهم، وقتل فيهم مقتل عظيما، وضيق عليهم بلادهم، وصار شجا فى حلوقهم، حتى أدوا إليه الجزية استكفافا له، وما أدوها إلى أحد قبله[6] وكان السبب فى خروجه وحربه على البجة.

– وانتهى هذا اللقاء بهزيمة العلوى، فارتد على آثارها إلى أسوان وهناك عاث فسادا، وقطع ثلاثمائة ألف نخلة. وما أن سمع ذلك ابن طولون حتى أرسل له بهم بن الحسين، غير أنه غادر أسوان إثر الخلاف بينه وبين أصحابه، ثم دخل بلاد البجة إلى أن وصل إلى ميناء عيذاب ومنها إلى مكة، وقبضه صاحب مكة وأرسله إلى ابن طولون فحبسه بعدما شهر به للناس، وبعدما أظهر توبته، فأطلق سراحه وأحسن إليه وخرج إلى المدينة ومات فيها. (الكندى: الولاة والقضاة ص٢١٢-٢١٤ / ابن خلدون: العبر المجلد ٤ القسم٣ ص٦٤٧ / ابن الأثير: الكامل حوادث عام ٢٥٩ / البلوى: سيرة ابن طولون ص٦٢ – ٦٤).

(١) ابن خلدون: العبر المجلد ٤ القسم٣ ص٦٤٧.

(٢) انظر فيما بعد عن ملاقاة شعبة بالعمرى.

(٣) البلوى: سيرة ابن طولون ص٦٦.

(٤) ابن خلدون:العبر المجلد ٤ القسم٣ ص٦٤٧.

(٥) ويبدو أنه استقر فى بلاد البجة فى المنطقة المعروفة باسم أم نبارى وهى الواقعة شمال شرق محطة السكة الحديد رقم ٦ الحالية الواقعة غرب طريق القوافل بين كرسكو وأبو حمد (الشاطر بصيلى: تاريخ وحضارات السودان ص١٦٣).

(٦) البلوى: سيرة ابن طولون٦٥.

أنهم أقبلوا في يوم عيد يقودهم رجل أعور مارد[١] يعرف (بكلاز شديد مقدام) وله جمل أعور كذلك، ما سمع بمثله في السرعة، وقد أشرف على مصلى مصر يوم العيد في جبل المقطم[٢] من ناحية جبل الزمرد وهو من جبال البجة الذى يتصل بجبل المقطم[٣] وكلهم ركبان على النجب – إبل البجة – حتى كبسوا الناس في مصلاهم، وقتلوا فيهم ونهبوا ورجعوا من حيث جاءوا سالمين، وكان لهم قبل هذا مقدمات كذلك، فكمن لهم العُمري في طريقهم حتى أقبلوا كعادتهم، فهجم عليهم وقتل رئيسهم الأعور ومن معه[٤] ولهذا السبب كان الطولونية وغيرهم من أمراء مصر، يقفون على سفح جبل المقطم، بالموضع المعروف بالدبش، جيشا كثيفا مراعيا للناس حتى ينصرفوا من عيدهم في كل عيد[٥].

وبعد أن ثبت العُمري أقدامه في بلاد البجة وأرض المعدن، واجهته مشكلة كبرى – ألا وهي مشكلة ندرة المياه وقلته في هذه البلاد، ولكنه نظر ذات يوم إلى طير فقال: هذا من طيور الشطوط، فأحسب أن النيل قريب. فأرسل من رجاله للبحث عن الماء، وعاد إليه رجاله من يومه بقرب الماء، وأخبروه ما شاهدوه من بلد مقرة، وأنهم في ظهره، فسر بذلك العُمري وأمر الناس بالورود على النيل، ولكن النوبة رفضوا السماح لهم بذلك، وقبضوا على بعض جماعته، فسار إليهم يطلب خلاصهم، بعد أن راسلهم وتلطف منهم. وكان العُمري ورجاله يحصلون على الماء مقابل التبر حتى بلغت الشنكة – قرية الماء – بدراهمين تبرة، حتى عرفت منطقة المعدن هذه باسم الشنكة. وفي هذه المنطقة كان النيل يتجه شرقا حتى يصبح بينه وبين منطقة الشنكة بضع نهار، ثم يتجه النيل غربا، فسأل العُمري النوبة أن يجعلوا له ولأصحابه طريقا للماء، وعليهم ألا يتعدوها، ولكن النوبة امتنعوا عن ذلك وقتلوا من أسروا من أصحابه، فشق عليهم ذلك وعاد إلى المعدن وجمع أصحابه وسار بهم إلى النوبة ووقع عليهم بغفلة في موضع يعرف بشنقير[٦] وقتل فيهم مقتلا عظيما حتى كثر السبي في يد أصحابه، حتى أن أحدهم إذا حلق أعطى الحلاق رأسا[٧] وإذا اشترى أحدهم حاجة من البائع أو البقال أعطاه نوبي أو نوبية لكثرتهم في أيديهم[٨] وبعد ذلك الانتصار الذى حققه العُمري على البجة والنوبة، كتب إلى أسوان يسأل التجار الخروج إليه بالجهاز من طريق المعدن، فخرج إليه رجل يعرف بعثمان بن حجلة التميمي في ألف راحلة محملة بالجهاز والبر، فسر بذلك العُمري وتلقاه، وكثر رقيقهم بأسوان والمعدن حتى صار أكثر سراري أهل البلد من سبي النوبة وعرفوا باسم الهكيات لرخصهم[٩].

---

(١) البلوي: سيرة ابن طولون ص٦٤.

(٢) المقريزي: المواعظ ج١ ص١٩٤.

(٣) الهمداني: مختصر البلدان ص٥٩.

(٤) البلوي: سيرة ابن طولون ص٦٤.

(٥) المقريزي: المواعظ ج١ ص١٩٤.

(٦) شنقير: أطلق هذا الاسم على الإقليم الذى يضم المنطقة ما بين جنوب شرق بلدة أبو حمد إلى شمال وادى حلفا تقريبا، ويعتمد أن بلدة أبو حمد الواقعة على نهر النيل عند انحناءاته نحو الغرب هي تقريبا في حوالي منتصف إقليم شنقير – ولفظ شنقير يرجع إلى اللفظ النوبي الأصل (شُنْقُر) وينطق بضم حرف الشين وسكون حرف النون وضم حرف القاف، ومعناه النقود أو المعدن (الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان ص ١٦١).

(٧) المقريزي: المقفى ج٤ ص٤٠٥.

(٨) البلوي: سيرة ابن طولون ص٦٥.

(٩) المقفى ج٤ ص٤٠٦.

وما لبث العُمري حتى دخل فى حرب طويلة مع النوبيين أدت إلى هزيمته وتشتت عنه أصحابه[١] ولكن سرعان ما تجمع إليه حلفاؤه من القبائل العربية حتى أهابته النوبة، وطلبوا منه الصلح. ولكن بعد ذلك وقع خلاف بين حلفائه العرب – إذ وقع شر بين الشاميين ثم انتهز العُمري فرصة النزاع الذى نشب بين البيت الملكى النوبى، وحصل من الأمير (نيوتى بن قشمة) الثائر على خاله (قيرقى بن زكريا) ملك النوبة – على حق الإقامة على جانب النيل من بلاد النوبة[٢].

وهم من سعد العشيرة وقبيلة قيس عيلان – فاتهم الشاميون العُمري ظلما أنه انحاز إلى قيس، وانتهز قائد النوبة[٣] فرصة ذلك الخلاف فراسل الشاميين، يدعوهم إليه ويعطيهم ما يريدوا، فاستجابوا له واتجهوا إليه، فحصلوا من النوبيين على حق الإقامة الدائمة فى منطقة المريس[٤] من ناحية يقال لها ديدان وأدوى وما يليها[٥] وخاف العُمري من تحالف الشاميين مع ملك النوبة، فسار إلى معدن على ثلاثة مراحل من النيل، وأرسل للشاميين يدعوهم للصلح. فأتوا إليه فانقض عليهم جميعا وهم فى طريقهم إليه فقتلهم جميعا[٦] واحتل بعد ذلك منطقة المريس، مما أثار قائد النوبة، فسار إليه على رأس جيش ضخم، ولكن العُمري تمكن من الفرار من أمامهم حتى قرب من أسوان، ونزل على قرية يقال لها أرطلما[٧].

وعلى الرغم من هذه النتائج الطيبة التى حققها العُمري. على أثر نجاح حملاته فى بلاد البجة والنوبة، فإن ابن طولون بدأت تساوره المخاوف والشكوك من جهة العُمري، بعد أن زاع صيته فى الصعيد وبلاد النوبة، وخاف أن يدفع به طموحه إلى الاستقلال عن الدولة وخاصة إنه يمتلك أدوات التمرد وهى المال والرجال، فهو صاحب مناجم الذهب، وقائد عناصر عربية ساخطة، وعناصر بجاوية تهوى القتال[٨]. فخاف ابن طولون من سوء العاقبة فى أمره أن أغفله، فقلق منه بعما وقف على خبره، واشتدت شوكته على البجة

---

(١) المقفى ج ٤ ص٤٠٦.

(٢) المقفى ج ٤ ص٤٠٩.

(٣) هو زكريا ابن ملك النوبة (قيرقى)، حيث تولى قيادة الجيش والحرب على العمرى بعد هزيمة أخوه الأكبر على يد العمرى (المقفى ج٤ ص٤٠٦).

(٤) المريس: ذكر المسعودى فى (مروج الذهب ج١ ص١٨) عن المريس فقال: هى البلد المتصل بأرض أسوان وتضاف إليها الرياح المريسية، وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان. ويذكر عنها ابن حوقل (صورة الأرض ص٥٨) هى البلد التى من حد أسوان إلى آخر بلد المقرة. ويذكر عنها الهمدانى (مختصر البلدان ص٧٤ – ٧٥) وهى تعنى الجنوب فى القبطية، وينسب إليها الرياح المريسية وهى الرياح الجنوبية الباردة التى تهب على مصر فى فصل الشتاء. ويذكر عنها المقريزى (الخطط ج١ ص١٩٠ – ١٩١) نقلا عن ابن سليم الأسوانى فيقول عنها: أنها تضم لمنطقة الممتدة من قرية تعرف بالقصر أول بلد النوبة على بعد خمسة أميال جنوبى أسوان، ويمتد الحد الجنوبى إلى المقس الأعلى (عكاشة حاليا)، وآخر قراه من قرية تعرف بستو من ناحية مقرة، وعاصمة المريس مدينة بجراش (فرس الحالية) وبها قلعة أبريم، وميناء تعرف بأدواء، ولها والي من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل، وهو من أجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام، ولا يمكن لأحد أن يصعد إلى بلاد النوبة إلا بإذن منه.

(٥) ديدان (هى أدندان الحالية) أما أدوى (فهى على مقربة من بلدة بلانة)، (محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى ص ٧٠).

(٦) المقفى ج ٤ ص٤١٠.

(٧) المقفى ج ٤ ص١١١.

(٨) عطية القوصى: دولة الكنوز ص٣٣ – ٣٤.

وغيرهم فأرسل إليه جيش بقيادة (شعبة بن خركان البابكى)[1] فقدم على العُمري، وعند قدومه عليه خرج عليه، وخاطبه قبل وقوع الحرب بينهما وأخبره: إن ظن ابن طولون به غير صحيح، إنما هى مجرد شكوك، وإن خروجه فى هذه البلاد وحربه عليها، لم يكن الغرض منه الفساد، إنما الغرض منه هو محاربة أعداء الإسلام. ودلل له على صدق نيته أنه لم يأذى مسلم ولا ذمى ....[2]، فطلب العُمري من شعبة، أن يتمهل فى حربه، حتى يرسل حقيقة أمره إلى ابن طولون. فإن قبل عذره وأرسل إلى شعبة بعدم حربه وتركه حرا. لكن شعبة رفض ذلك بشدة ودخل فى حرب عنيفة مع العُمري انتهت فى آخرها بهزيمة شعبة وجيشه[3] وكان العُمري قد قسم جيشه إلى جزئين جزء لمواجهة شعبة وجيشه، وجزء فى ناحية النوبة حتى لا ينقضوا عليه، وبعد هزيمة شعبة توجه شعبة إلى الفسطاط، فأخبر ابن طولون ما قاله العُمري له قبل حربه، فذم ابن طولون تصرف شعبة وأخبره أنه لذلك هزم، وبعد ذلك أهمل ابن طولون العُمري وأمره[4].

وبعد انتصار العُمري على شعبة سار إلى قرية إدفو بحرى أسوان، وعبر منها إلى الشرق، وكان له وقعة مع واليها بعد شعبة، ثم دخل أرض المعدن (العلاقى) وجرت له حروب أعظم من الأولى مع ربيعة، ثم عاود أرض المعدن (أم نبارى) فى سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م[5] وعند دخوله أرض المعدن بسط سيطرته، وزاعت شهرته، وبلغت قواته ما يزيد على مائة ألف رجل، من رجال القبائل المختلفة، حيث كان يرأس قوات ربيعة رجلان، هما أشهب بن ربيعة، والآخر دباس بن روح. وكان على بنى قيس بن ثعلبة بن بكر بن وائل وحلفائهم رجل يعرف محمد بن صريح. وكان على الجهينين رجل يعرف بعثمان بن سعد. وعلى الشاميين رجل من سعد العشيرة ورؤوساء آخرون دون هؤلاء[6]. فكثرت بهم العمارة فى أرض البجة ، حتى صارت الرواحل التى تحمل إليهم الميرة من أسوان، ستون ألف راحلة، غير الجلاب التى كانت تحمل في البحر الأحمر إلى عيذاب لهم[7].عندما علم بذلك ابن طولون، اعترض ذلك الأمر وأمر بمنعه، ولكن العُمري كتب له أنه فى مائة ألف مقاتل أو يزيدون على ذلك، فترك ابن طولون اعتراضه. ولكن لسوء حظ العُمري وقعت المنافسة والمنازعة فى أرض البجة بين العرب، وبدأت تتشتت أحلافه، ومالت البجة إلى ربيعة واتفقت معه، وتزوجوا إليهم. ويذكر

---

(١) البلوى: سيرة ابن طولون ص٦٦.

- وذكر اسمه فى كتاب المقريزى شعبة بن حركان البابلى (المقفى ج٤ ص٤١١)

(٢) ابن خلدون: العبر ج٤ ص ٦٤٧.

(٣) البلوى: سيرة ابن طولون ص٦٦-٦٧.

(٤) المقفى ج٤ ص ٤١٢.

(٥) ويتضح لنا من هذا التاريخ الذى أورده المقريزى عن دخول العمرى أرض المعدن عام ٢٥٥ هـ بعد ملاقاته لشعبة. أنه لم يطابق ما ذكره الآخرون من ابن خلدون (فى تاريخه المجلد٤ القسم ٣ ص٦٤٧) والبلوى (سيرة ابن طولون ص٦٢ – ٦٥) والكندى (الولاة والقضاة ص٢١٢ –٢١٣) وابن الأثير (الكامل حوادث عام ٢٥٩ هـ) حيث أنهم ذكروا جميعا: أن العلوى عندما انهزم وفر إلى الواحات بعدما التقى بجيش ابن طولون، وانهزم عند أخميم سنة ٢٥٦ هـ عاد إلى الصعيد سنة ٢٥٩ هـ ثم صار إلى الأشمونين، ثم صار إلى لقاء العمرى، وهزمه العمرى وكان هذا فى عام ٢٦٠ هـ، ثم كان بعد ذلك لقاء العمرى مع شعبة – فكيف ما يكون أن العمرى التقى بشعبة بعد ملاقاته للعلوى سنة ٢٦٠ هـ ، ثم سار إلى ارض المعدن بعد لقائه بشعبة عام ٢٥٥ هـ.

(٦) المقفى ج٤ ص ٤١٢ – ٤١٣.

(٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٦.

السبب فى تشتت أحلاف العُمري. أن للعمرى أخ من أمه يعرف بإبراهيم المخزونى. خرج إلى عيذاب ليمتار فاعترضته البجة فقتلته هو ومن معه، فغضب لذلك العُمري فكتب إلى ربيعة حليفة البجة، يسألها الإنصاف من البجة، أو التخلى بينه وبينهم، ولكنهم ردوه فى الحالتين. وتبع ذلك أن تخلت عنه قبائل مضر بنى هلال وبنى تميم وجهينة، فلم يبقى معه إلا القليل من الأنصار، واستطاع العُمري بأتباعه وأنصاره أن يتغلب على الجميع، فحاربهم جميعا وهزمهم، فى موضعين يقال لهم ميزح وبكيا[١].

ونتيجة لذلك رسم ابن طولون بمقتل العُمري، ذلك المغامر العربى الجرىء الذى حاول أن يقيم أول إمارة عربية مستقلة فى بلاد البجة، ولكن العمر لم يمتد به لتحقيق ذلك[٢]. إذ أنه قتل غيلة على يد رئيس من مضر، يعرف بمحمد بن هارون، وذلك بسبب مقتل العُمري لرئيس ربيعة على تشيعه وهو أشهب، مما أدى إلى غضب الرئيس المضرى وأصر على قتل العُمري[٣] وبعد مقتله حملت رأسه إلى أحمد بن طولون، مع غلامين من غلمانه، زعم أنهما قتلاه، فدعا ابن طولون بجماعة من أهل الصعيد ممن يعرف العُمري، فشهدوا على أنها رأس العُمري. فحزن ابن طولون على مقتله وسأل الغلامين فى قتلهم له فأجابوه: أنهم أرادوا منه منزلة وقرب، فذم ابن طولون هذا الفعل، وأمر بضرب أعناقهم فضربا وصلبا، ثم أمر بغسل الرأس وتطييبه وكفنه ودفنه[٤].

وهكذا انتهت حياة ذلك السائر المغامر، الذى هدد دولة ابن طولون، وكاد أن يزعزع أركانها، فقد أدى دورا ناجحا فى منطقة الحدود المضطربة بين مصر والنوبة من ناحية، وبين مصر وبلاد البجة من ناحية أخرى، فقد حقق هذا الدور فى كثير من الأحيان ما لم تستطع أن تحققه الحملات العسكرية، التى كانت ترسلها السلطة المركزية فى مصر، لصد غارات النوبة والبجة[٥] فى منطقة شغلت المساحة من شرق أبو حمد إلى شمال وادى حلفا تقريبا، وكان مركز رئاسته فى المنطقة المعروفة بأم نبارى، والتى عرفت هذه المنطقة بإقليم شنقير[٦].

ولولا تدخل ابن طولون من ناحية، وانقسام القبائل التى صحبت العُمري، وخروج بعضها عليه من ناحية أخرى، لتمكن العُمري من تكوين إمارة عربية فى بلاد البجة تحت زعامته، ولعلها كانت تكون أول إمارة عربية فى سودان وادى النيل.

وبالرغم من هذا، فلا أحد ينكر النتائج التى حققها العُمري فى بلاد البجة والنوبة، من وقف هجومهم على المسلمين. فلا أحد ينكر النتائج التى ترتبت على نجاح حملاته وسيطرته على بلاد البجة، أن البجة مالت إلى ربيعة وتزوجوا إليه، وقيل أن كهان البجة قبل إسلام من أسلم منهم، ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة

---

(١) المقريزى: المقفى ج ٤ ص٤١٣ – ٤١٤.

(٢) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، تحقيق زكى حسن وسيدة الكاشف، القاهرة ١٩٥٣ م ص٩٤.

(٣) المقريزى: المقفى ج ٤ ص٤١٤.

(٤) البلوى: سيرة ابن طولون ص٦٧.

(٥) محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى ص٧١.

(٦) الشاطر بصيلى: تاريخ وحضارات السودان ص١٦١.

ولكانون معا[1] وتصاهرت ربيعة إلى رؤساء البجة كذلك[2]. ويبدو لنا أن عرب ربيعة لجأوا إلى وسائل مختلفة للتقرب من الحداربة، ومنها ما ذكرناه: فأنهم تحايلوا على كهانهم للدعوة بالطاعة لربيعة، والانطــواء تحـت لوائها، لتتخذهم عونا لها ضد منافسيها من العرب، والانفراد بحكم هذه البلاد[3] وبذلك اشتدت شــوكة ربيعــة، وقويت ربيعة بمن صاهرها من البجة، من الجنس المعروف بالحدارب على من نواها وجاورها مــن قحطــان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار، وقويت البجة من الجنس المعروف بالحــدارب علــى ســائر أجناس البجة[4].

وكانت نتيجة هذه المصاهرة هى أن: أدت إلى وقف هجمات البجة وكف ضررهم عن المسلمين[5] كما أدت إلــى استيلاء ربيعة على معدن الذهب بالعلاقى فأصبحوا أهل خاصته فى بداية القرن الرابع الهجــرى[6] وادى هــذا إلى اتساع نفوذهم وكثرة أموالهم، فسارت لهم مرافق ببلاد البجة، واختلطوا لهم بها قريــة تعــرف بالنمــاس وحفروا بها آبارا[7].

ولعل أهم نتائج هذه المصاهرة هو إقبال البجة على اعتناق الإسلام، وعلى التزود بالثقافــة العربيــة، ومن ذلك يقول المسعودى[8] "الحداربة وهم المسلمون ممن بين سائر البجة وباقى البجة كفار يعبدون صنم لهم ". بل ترتب على هذه النتيجة نتيجة أخرى سياسية أهم، ألا وهى سيطرة من أسلم من البجة وهــم الحــدارب، على غيرهم ممن لم يسلم من سائر البجة وهم الزنافج[9] فأصبح الحدارب شوكة القوم ووجوهم، وبات الزنافج تبعا لهم وغفرائهم يحمونهم ويجبونهم المواشى، وأصبح لكل رئيس من الحدارب قوم من الزنافج فى حملتــه، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كان الزنافج قديما أظهر عليهم[10].

ومن الواضح أن اختلاط عرب ربيعة بالبجة ولا سيمات الحداربة، قد أملته عوامل سياســية وأخــرى اقتصادية. فأما من ناحية البجة فيبدو أن هؤلاء الحداربة، وهم الطبقة الحاكمة الذى خضع لها معظــم البجــة، كانوا فى نزاع مستمر مع جيرانهم النوبة فى الغرب حول مواطن المياه والرعى وكانت دائما الغلبــة للنوبــة، وهذا من ناحية البجة. أما من ناحية ربيعة فقد ظهر التنافس بين القبائل العربية حول امتلاك معــادن الــذهب والزمرد، وازدياد العصبية القبلية بينهم، لذلك جمعت بين ربيعة والحداربة مصالح مشتركة اقتضت تعاونهمــا معا للتغلب على منافسيهما[11].

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٦ (كنون هو رئيس البجة المقيم بقرية هجر، وهو الذى عقد معه عبدالله بن الجهــم عقــد الأمان، انظر فيما سبق البجة فى عصر الولاة)

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٧.

(٣) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٣٩.

(٤) المسعودى: مروج الذهب ج١ ص١٨.

(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٧.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥١.

(٧) المقريزى: البيان والإعراب ص٤٤.

(٨) المسعودى: مروج الذهب ج١ ص١٨.

(٩) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٧٣.

(١٠) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٥.

(١١) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٣٨.

لذلك سعى كلا منهم إلى مصاهرة رؤساء الآخر والتزوج من بناته، ونجد ذلك في قول ابن حوقل[1] الذى يذكر فى زمنه أي فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر ميلادى تقريبا فى عام ٣٣٢هـ/٩٤٣م : كان يرأس الحدارب أجمع رئيسان هما عبدك وكوك، ويعرف عبدك بأنه خال ولد أبى بكر إسحاق بن بشر صاحب العلاقى، ويعرف كوك بأنه خال أبى القاسم حسين بن على بن بشر".

ويبدو لنا من قول ابن حوقل[2] أن ربيعة أدركت قيمة نظام الوراثة عند البجة، الذي يعتمد على وراثة ابن البنت أو ابن الأخت دون ولد الصلب لذلك استفادوا منهم وكانت النتيجة: أن أنجبت ربيعة أبناء ورثوا الإمارة عن أخوالهم، كما يتضح لنا أن إمارة العلاقى قد انتقلت إلى أبو مروان إسحاق بن بشر دون غيره عن طريق وراثته لها من خاله عبدك[3].

فبعد موت العُمري مباشرة نشب النزاع بين القبائل النازحة فى المنطقة، لفرض السيادة عليها، ودخلت ربيعة فى حرب مع غيرها من القبائل النازحة هناك، لكن فى النهاية انتصرت ربيعة فى هذه الحرب لاعتمادها على البجة، وأحلافهم من العرب، ويذكر ذلك المسعودى[4]: كان صاحب المعدن بشر بن مروان بن إسحاق وهو من ربيعة يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن، وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة بالحجف البجاوية". وهذا يؤكد أن الصلة قد توثقت إلى حد كبير بين ربيعة والبجة كما يذكر ابن فضل الله العُمري[5] فيقول: صارت هى والبجة كالشيء الواحد. وبعد أن تحقق لربيعة الانتصار على من خالفها من القبائل العربية قامت بطردهم من هذه المنطقة حتى تكون صاحبة السلطة المطلقة على أرض المعدن[6] وما لبث أن دار النزاع بين بنى ربيعة أنفسهم، فنشب النزاع بين بنى بشر وبنى يونس (طائفة أخرى من ربيعة) وكانوا أحد بطونها بعيذاب فطردتهم منها، فساروا إلى الحجاز[7].

وبعد أن تحقق لربيعة كل هذه النتائج، من السيطرة على أرض المعدن، ورجال البجة، وطرد من خالفها من القبائل. تحققت لهم السيادة فى المنطقة، وانفردوا بالأمر فى وادى العلاقى، وأقاموا لهم هناك إمارة عربية كانت رعاياها قبائل البجة، الذين ارتضوا عن ذلك عن طيب خاطر[8].

فاستمرت ربيعة فى حكم البجة واستمر أبو مروان إسحاق بن بشر حاكم لإمارة ربيعة فى العلاقى مدة، إلى أن

---

(١) صورة الأرض ص ٥٦.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٤.

(٣) المقريزى: البيان والإعراب ص٤٥.

(٤) المسعودى: مروج الذهب ج١ ص١٨.

– وعلى الرغم من كون المسعودى معاصرا لشخصية صاحب المعدن، وزيارته لمصر فى ذلك الوقت إلا أنه اختلط عليه الأمر، وذكر أن صاحب المعدن فى وقته أي فى سنة ٣٣٢هـ هو بشر بن مروان بن إسحاق، وهذا جاء مخالفا لما أورده ابن حوقل (فى صورة الأرض ص٥٥) والمقريزى فى (البيان والإعراب ص٤٥) من أن شخصية المعدن فى ذلك الوقت هو أبو مروان إسحاق بن بشر.

(٥) مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار ج١٥ القسم ٢ ص٤١٩.

(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٧.

(٧) المقريزى: البيان والإعراب ص٤٤.

(٨)Mac Michael , op . I ,p . vol . cit .149

قتل نتيجة النزاع الذى نشب بين رجاله، إذ خرج عليه بعض أهله ووقعت الحرب بين بنى بشر قتل فيها إسحاق[١].

ولم تحدثنا المصادر عن أسباب هذا الخلاف، الذى وقع بين رجال ربيعة فى وادى العلاقى، وادى إلى مقتل مروان بن بشر. ولا نستطيع التكهن بطبيعة ذلك النزاع الذى نشب بين بنى بشر وأنفسهم إلا أنه: صورة من صور النزاع القبلى الذى اتصفت به حياته القبائل العربية، ووقوع الخلاف والحرب على أقل الأسباب. ومن العجيب أن فرع ربيعة فى العلاقى لم يتفق على اختيار زعيما لهم فى تلك المنطقة خلفا لإسحاق: وربما يرجع السبب فى ذلك إلى خلو المنطقة من شخصية مناسبة تصلح لتولى الزعامة[٢].

وكان لحسن حظ ربيعة فروع أخرى انتشرت فى أرجاء مصر، فكان الفرع الأول من ربيعة قد نزل بالحوف الشرقى عند بلبيس وأقام بها[٣] وأقام الفرع الثانى حول أسوان فى قرية محاذية لها وتسمى المحدثة[٤] أما الفرع الثالث وهم الذين نتحدث عنهم الذى أقاموا فى بلاد البجة وفى الصحراء الشرقية بين النيل وبحر القلزم فى منطقة وادى العلاقى[٥] .

ويبدو أن ثمة رابطة كانت تربط بين فروع قبيلة ربيعة الثلاث كما أنهم كانوا على حلقة وصل بما يدور معهم فى كل منطقة، فبعد مقتل إسحاق اختارت القبيلة ابن عمه الشيخ أبى عبدالله محمد بن على بن يوسف، المعروف بأبى يزيد بن إسحاق لتولى زعامة فرع ربيعة فى بلاد البجة، وأبو يزيد بن إسحاق هذا من فرع ربيعة الأول: أي الذى نزل بالحوف الشرقى عند بلبيس، ويرجع نسبه إلى مسروق بن معدى كرب بن ربيعة[٦]. وبهذا الإجراء لم تعط قبيلة ربيعة فرصة الأحداث أن توسع الخلاف بين أبنائها مما يقضى على نفوذ القبيلة، ويطمع فيها أعدائها، وهذا يثبت لنا مدى ترابط القبيلة برغم عوارض النزاع بينها، ومدى حرصها على الاستمساك بحكم قبائل البجة ومنطقة المعدن[٧] فبذلك تولى أبى يزيد بن إسحاق رئاسة الإمارة فى العلاقى، ويبدو أن منطقة العلاقى فى ذلك الوقت لم تنل إعجابه، لذلك أصر إلى نقل مقر رئاسة ربيعة على ضفاف النيل عند أسوان، فى مكان كان معروفا بساقية شعبان[٨] ومن المحتمل أن أسوان حازت إعجابهم عندما وقف بها فى طريقه إلى العلاقى وتولى الزعامة هناك[٩].

ولعل الدافع إلى ذلك إنه أدرك ببعد نظرة أهمية موقع أسوان فى الأشراف على الإمارة المتحدة بين فرعى ربيعة، المتواجدين فى العلاقى وأسوان، فضلا عن أهمية أسوان التجارية فى ذلك الوقت، لتحكمها فى

---

(١) المقريزى: البيان والإعراب ص٤٤ – ٤٥.

(٢) محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى ص٣٢.

(٣) المقريزى: البيان والإعراب ص٤٥.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٤.

(٥) المقريزى: البيان والإعراب ص٤٤.

(٦) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٤٠.

(٧) عطية القوصى : دولة الكنوز ص٣٧.

(٨) المقريزى : البيان والإعراب ص٤٥.

(9) Mac Michael , op . cit. vol. I ,.p 149

طرق التجارة بين مصر والسودان. كما أن أبي يزيد لابد أن يكون قد أدرك أن الإمارة في إمكانها أن تتوسع رقعتها على حساب بلاد النوبة الشمالية، وذلك خيرا لها من التوسع في الصحراء[1] بعدما أتيح لبني ربيعة في أسوان أن اختلطوا بالنوبيين، وأن يتزوجوا من بنات رؤسائهم. وبهذا أصبحت لهم مصالح مادية في بلادهم، واندفاعهم بنظام الوراثة عند النوبيين، وهو نظام وراثة الأم، ونجاح هذا الفرع من ربيعة كذلك في أن يقيم طبقة حاكمة خضع لها النوبين من أهل المريس (النوبة الشمالية) ولا سيما بعد أن تحول معظمهم إلى الإسلام[2] وعلاوة على ذلك أن موارد الذهب في هذه الصحراء، وفي وادي العلاقي بالذات، كانت قد بدأت في النضوب، بالإضافة إلى ما كان يوجد فيها من قبائل البجة الشكيمة، وقبائل العرب التي كانت تتنازع فيما بينها أحياناً كثيرة، وقد راح في هذا النزاع ابن عمه حاكم ربيعة السابق إسحاق بن بشر[3].

فيذكر المقريزي[4] أنه نقل أبي يزيد بن إسحاق مقر أقامته إلى أسوان، وظل رئيسا لإمارة ربيعة حتى مات، فخلفه ولده هبة الله بن أبي عبد الله محمد بن علي الذي عرف بالإهواج المطاع، وهو الذي ظفر بأبي ركوة[5] الخارج على الحاكم بأمر الله[6]، وقبض عليه فأكرمه الحاكم إكراما عظيما، ولقبه كنز الدولة[7]، وهو أول من لقب بذلك الاسم منهم، ولم تزل الإمارة فيهم وكلهم يعرفون بكنز الدولة.

---

(1) عطية القوصي: دولة الكنوز ص47 – 48.

(2) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة 1960 ص134.

(3) رمضان عبد العظيم: الحدود المصرية السودانية ص255.

(4) المقريزي : البيان والإعراب ص44-46.

(5) أبو ركوة : كان ظهوره في سنة 395هـ، وادعى أنه الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموي، وتلقب بالثائر بأمر الله، والمنتقم من أعداء الله، حيث ولد بالأندلس ونشأ بها وخرج منها إلى القيروان، ليعلم الصبيان القرآن، ثم اتجه إلى الاسكندرية، ثم إلى مصر فأقام بها، ثم توجه إلى الفيوم، ثم عاد إلى مصر وانتقل إلى إحدى قرى المنوفية، ثم ذهب إلى قرى قليوب، وسار منها إلى البحيرة حتى نزل على بني قرة (فخذ من جذام) وكان الحاكم بأمر الله قبل ذلك في عام 395هـ قد أرسل إليه أبو الفتيان التركي، وقد قتل منهم مقتلا عظيما وحرقهم، وقد وجدهم أبو ركوة مجتمعين لمحاربة الحاكم بأمر الله، ولكن دون قائد، فأخبرهم أنهم من بيت الخلافة، فانقادوا إليه، وانضم إليه قبائل لواتة ومزاتة وزناتة من المغرب، وجاءوا في مكان قريب من برقة، فلما سمع الحاكم بأمر الله هذا أرسل إليه جيش بقيادة (ينال الطويل التركي) في نصف شعبان عام 395هـ، ولكنه هزم على يد أبي ركوة، ثم صار أبو ركوة إلى برقة وحاصرها واستولى عليها، ثم أرسل إليه الحاكم جيش في ربيع الأول سنة 396 هـ بقيادة (ابن الأرمينية)، لكنه هزم أيضا غرب الاسكندرية. وبعد ذلك اضطر الحاكم بأمر الله إلى عقد مجلس عسكري جمع فيه كل قواده لمواجهة أبي ركوة، وأشاروا عليه أن يسحب قواته التي بالشام، فأرسل إليه قوات للمرة الثالثة ولكنها هزمت أيضا على يد أبي ركوة، ثم أرسل إليه جيش للمرة الرابعة فالتقى الجمعان على نصف مرحلة من الفيوم، لكن في هذه المرة هزم فيها أبي ركوة، واتجه بعد ذلك إلى بلاد النوبة. ولكنه قبض عليه بمساعدة الشيخ أبو المكارم هبة الله – شيخ بني ربيعة في ربيع الآخر سنة 397هـ ، وفي 17 من جمادى الآخر لهذه السنة صلب أبو ركوة بعد أن شهر به للناس، وقطعت رأسه وانتهى أمره (النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب القاهرة1992ج28 ص180-183).

(6) الحاكم بأمر الله: ولي الحاكم بأمر الله الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 386هـ، وله من العمر إحدى عشر سنة ونصف (القلقشندي: صبح الأعشى ج3 ص489) أما نهاية حكمه فقد اكتنفها الغموض فذكر أنه ركب في ليلة الاثنين – السابع والعشرين من شوال سنة 411هـ قاصدا جبل المقطم ومنذ ذلك لم يعرف مصيره بعد (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج4 ص181-182).

(7) كنز الدولة: هو لقب منحه الحاكم بأمر الله للشيخ ربيعة أبو المكارم هبة الله، وذلك تكريما له على مساعدته في القبض على أبي ركوة الثائر، وهذا اللقب ذا نفوذ سياسي، لقب به رؤساء ربيعة، ولفظة كنز هذه هي لفظة قديمة كانت تطلق على منطقة من بلاد النوبة، وتعني بالمصرية القديمة أرض القوس. واكتسبت ربيعة لفظ الكنز نتيجة لتصاهرها واختلاطها الشديد مع النوبة في هذه المنطقة. كما أن إضافة لقب كنز الدولة هو نوع من الألقاب المستخدمة عند الفاطميين، وهذا تقليدا منهم للخلفاء العباسيين، وذلك من باب المكافأة والاعتراف له-

ومهما كانت الأسباب التى دفعت إلى نقل مركز رئاسة الإمارة من العلاقى إلى أسوان. فلم يكن ذلك يعنى أن بنى ربيعة قد تخلوا عن منطقة العلاقى وتركوها نهائيا، فإن أعداد كبيرة منهم ظلت تقيم فى الصحراء الشرقية تشرف على المناجم وتنوب عنهم فى حكم البجة، وتحمى ثغر عيذاب[1].

ومنذ ذلك الوقت أي فى حوالي النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) لم نعد نعرف شيء عن بنى ربيعة فى العلاقى منذ انتقال مقر ربيعة إلى أسوان، والواضح أنه تم اختلاط هؤلاء بالبجة، وأنهم أخذوا عنهم اللغة التبداوية، بعد أن طعموها بكثير من الألفاظ العربية، وأنهم أعطوهم الدين الإسلامى الذى يربطهم بالنسب العربى[2].

وأيضا لم نعد نسمع منذ ذلك الوقت ولا حتى فى المصادر المعاصرة لتلك الأحداث، عن أي غارة شنها البجة على حدود مصر الجنوبية، أو مدن الصعيد، وخاصة أسوان،
ومما يؤيد ذلك القول أنه عندما عبر ناصر خسرو[3] الصحراء الشرقية من أسوان إلى عيذاب فى ربيع الأول عام ٤٤٢هـ (يوليو ١٠٥٠م) قال عن البجة: "هم ليسوا أشرار، فهم لا يسرقون ولا يغيرون، بل يشتغلون بتربية ماشيتهم".

وصفوة القول أن السياسة الخارجية التي قام بها البجة من بداية الفتح الإسلامي حتى نهاية الدولة الفاطمية كانت بمثابة الفرصة الحقيقية من جهة العرب للدخول في هذا الإقليم، ومحاولة نشر الرسالة الإسلامية والثقافة العربية في هذه المنطقة لتتحول بعد ذلك إلى مركز ثقافي عربي إسلامي أثر في الإقليم عامة، كما كانت الفرصة للبجة لتتعلم من الشعوب المتحضرة مبادئ وضروب النشاط الإنساني لتتحول من قبائل همجية إلى محتضن لإمارة عربية ساعدت على تحويل السودان إلى دولة إسلامية عربية.

– بخدماتهم الجليلة للدولة. فعرفوا بنى ربيعة من خلال هذا اللقب فيما بعد بإمارة بنى الكنز أو إمارة الكنوز (عطية القوصى: دولة الكنوز الإسلامية ص٥٥ –٥٦).

(١) عطية القوصى: دولة الكنوز ص٤٨.

(٢) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٤١.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامة ص١٣٤.

ثانياً: النظم الإدارية والسياسة الداخلية للبجة:

أ- نظام الحكم والإدارة

لم يتفق المؤرخون العرب في وصف نظام الحكم عن البجة، فراح بعضهم يصفه بالنظام الملكي، وأطلق عليهم ممالك البجة. وراح البعض الآخر يصفه بالنظام القبلي، وأطلق عليهم قبائل البجة. ولا يمكن لنا نقف على حقيقة ذلك إلا بعد أن نرد ما ذكره عنهم هؤلاء المؤرخون.

فتحدث عنهم اليعقوبي[١] واصفا نظام حكمهم بالنظام الملكي، فيذكر عنهم فيما أسماه ممالك البجة وعددها خمس: "في كل مملكة ملك منفرد، فالمملكة الأولى: من حد أسوان شمالا إلى حد بركات(خور بركة) جنوبا، وهم الجنس الذي يقال له نقيس، ومدينة المملكة يقال لها هجر ولهم بطون وقبائل كما تكون للعرب فمنهم: الحدرات، وحجاب، والعماعر، وكوبر، ومناسة، ورسفة، عريريعة، والزنافج[٢] وفي بلادهم المعادن من التبر والجوهر والزمرد، وهم مسالمون للمسلمين، ويعملون في بلادهم في المعادن.

والمملكة الثانية: مملكة بقلين، وتحتوي هذه المملكة على مدن كبيرة وواسعة، وديانتهم الماجوسية والوثنية، ويسمون الله عز وجل الزنجير الأعلى، ويسمون الشيطان صحي حراقة، ومن عاداتهم ينتفون لحاهم، ويقلعون ثناياهم، ويختتنون، وبلادهم بلاد مطر.

المملكة الثالثة: مملكة بازين يحدها شرقا مملكة بقلين، وغربا مملكة علوة من النوبة، وهم يحاربون، ويزرعون الدخن- الذرة - ويعتمدون عليه وعلى اللبن في طعامهم.

المملكة الرابعة: مملكة جارين، ولهم ملك خطير، وملكه يمتد من ميناء باضع على ساحل البحر الأحمر، إلى حد بركات من مملكة بلقين عند موضع يقال له: حل الدجاج، وسكانها يقلعون ثناياهم من فوق ومن أسفل.

المملكة الخامسة: مملكة قطعة، وهي آخر ممالك البجة، ومملكتهم واسعة تمتد من ميناء باضع إلى مكان يقال له فيكون، ولهم حد شديد، وشوكة صعبة، ولهم دار مقاتلة يقال لها دار السوا، وفيها أحداث شباب جلد مستعدون للحرب والقتال".

ويذكر اليعقوبي في موضع آخر[٣] مؤكدا قوله السابق من أن بلاد البجة اعتمدت في نظام حكمها على النظام الملكي فيقول: "ومن العلاقي الذين يسمون الحداربة، خمسة وعشرون مرحلة، ومدينة ملك البجة الحداربة يقال لها هجر ويأتي إليها الناس للتجارة، والبجة ينزلون خيام جلود، وينتفون لحاهم، وينزعون فلك ثدي الغلمان، ويأكلون الذرة ويركبون الإبل والخيل ويحاربون عليه وسلاحهم الحراب وهم بارعون في الرمي، ومن العلاقي إلى أرض البجة الذين يسمون الزنافجة خمسة وعشرون مرحلة والمدينة التي يسكونها ملك

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج١ ص١٩٢-١٩٣.

(٢) الحدرات وهي المعروفة (الحدارب)، حجاب وهي المعروفة (بحباب)، العماعر وهي المعروفة الآن (بالأمرار). ومناسة ما زالت تعرف باسمها هذا في إرتيريا، أما كوبر ، ورسفه، و غريريعه، فغير معروفة (الشاطر بصيلي: تاريخ و حضارات السودان ص ١٤٧).

(٣) البلدان ص ٣٣٦-٣٣٧.

الزنافجة يقال لها بقلين، وقد يسيروا إليها المسلمون للتجارة، ومذهبهم مثل مذهب الحداربة، وليس لهم شريعة إنما كانوا يعبدون صنما حجاخوا".

وبعد هذا العرض لما ورد في مؤلفات اليعقوبي، نأتي بما ذكره ابن حوقل[1] عنهم لكنه لا يشير في وصفهم عن نظام الحكم المتبع عند البجة كما أشار اليعقوبي. فقد أشار إلى أن البجة ينقسمون إلى قبائل وبطون كثيرة واتبعو في نظام حكمهم النظام القبلي، فمنها ما هو بنواحي بركة من البطون كدبم المعروفة بعجات، ويليهم شرقا إلى ساحل البحر الأحمر، قبائل الجاسا (الخاسة). وبين وادي بركة، ووادي دكن (خور القاش) قبائل بازن وبارية، ومن عادة بارية قلع ثنايهم، وبحر أذانهم. وبين وادي بركة وحدود مصر الجنوبية، يعيش قبائل بواتيكة من البجة، وتقطن بطون تعرف بقصعة بين وادي بركة وميناء باضع، وهم أغنى بطون البجة الداخلة، وأكثرها مالا. وبين وادي بركة وجبل مسمار، يعيش قبائل الماتين، وسيتراب، وغركاي، ودحنت. وتعيش بالقرب من سواكن، بطون تعرف برقابات، وحنديبيا، وهم خفراء على الحدربية -الحداربة .

أما هؤلاء الحداربة فهم من البدو الغير مستقرين، وينتقلون في طول البلاد وعرضها، وتكون بلادهم التي تمطر وتزرع، وينتجعونها بمواشيهم طولا نحو شهرين مسيرة، وتمتد من النيل إلى البحر الأحمر، ويقضون شتاهم بالقرب من ساحل البحر الأحمر، والصيف في بطون الأودية، والخريف فيما قارب النيل مغربين عن ديارهم. ويخضع الحدارب لرئيسين من شيوخهم، رئيس لكل بيت زمام، ورئيس يسوسهم، وينقسم الحداربة إلى بطون منها: العريتيكة، والسوتباروا، والحوتمة، والعكنابيرة، والبحريروا والحنيتيكة والواخيكة، والجريبب. وتنقسم كل بطن من هذه البطون إلى نحو مائة فخذ، لكل فخذ منها رئيس أو رئيسان. وتقرب ألوانهم من ألوان العرب، بين السواد والبياض، وتتصل بلادهم ببلاد النوبة والحبشة، وهم مفترقون مجتمعون إلى أن يحازوا عدن، وغذاء الحداربة من اللبن واللحم، يأكل فقراءهم صيد الوحش كالغزال والنعام والحمار، أما أغنيائهم فلا يرون أكل الصيد، ولا مخالطة أكلهم، ولا يستعملون أذية من اسجاز ذلك واستحلها، ولا يحلبون فيها، ولا يشربون. ويتكلم الحداربة لغة البجة، ولبعضهم لغة خاصة ينفردون بها، أما دينهم مسلمون بالاسم".

وفى موضع آخر يذكر أن في وسط وادي دجن يقع إقليم تفلين قرى للبادية، ينتجعها البجة للرعي في فصل المطر، وعليهم ملك مسلم يتكلم العربية من قبل صاحب علوة، و يختص أهل تفلين بالإبل و البقر و لا زرع لهم، ومنهم مسلمون كثيرون، ومنهم تجار يسافرون إلى مكة و غيرها، و يجاور تفلين بازين أمم مقيمة في أخصاص كالقرى، ولهم ماشية من البقر و الزرع، و رئاستهم بأيدى شيوخهم، و ليس فيهم إلا راجل و لا فارس فيهم، وسلاحهم الحراب و النمران، و ليس لأحد عليهم طاعة، و لا دين لهم ولا هم متصلون بشريعه غير الإقرار بالله وحده و التسليم له و كان اسمه عندهم أذنه"[2]

أما المقريزي[3] فيأتي بما نقله عن بن سليم الأسواني وإن كان ينقصه التوضيح، لكنه متفقا في وصفه لما أشار إليه ابن حوقل، ذاهبا بقوله من البجة اتبعت النظام القبلي في حكمهم، فيذكر عنهم قائلا: "إنهم بادية

---

(١)ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٥-٥٦.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٥٧.

(٣) المواعظ و الاعتبار ج١ ص١٩٤.

يتبعون الكلأ حيثما كان الراعي بأخبيه من جلود، وأنسابهم من جهة النساء ولكل بطن منهم رئـيس، ولـيس عليهم ممتلك، ولا لهم دين، وهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب...، وكان لهم رئـيس يرجـع جميع رؤسائهم إلى حكمه يسكن قرية تعرف بهجر وهي أقصى جزيرة البجة" وأضاف في موضع آخر "أن فـي آخر بلاد البجة جنس يقال له البازة"[1]، كما أضاف أن هناك جنس آخر يسمى بالحدارب ووصفهم بأن إسلامهم ضعيف، وهم شوكة القوم ووجوهم، وهم مما يلي مصر من أول حدهم العلاقي وعيذاب والمعبر منه إلى جـده، وما وراء ذلك. ومنهم جنس أخر يعرفون بالزنافج، وهم أكثر عددا من الحدارب، غير أنهم تبع لهم، وخفرائهم يحمونهم ويجبونهم المواشي، ولكل رئيس من الحدارب قوم من الزنافج في حملته، وهم كالعبيـد يتوارثـونهم بعد أن كان الزنافج قديما أظهر عليهم[2].

كما يذكر أن هناك أجناس أخرى، وهم البجة الداخلة، وهم الذين يقطنون صحراء علوة مما يلي البحـر الأحمر إلى حدود الحبشة، وهم كفار يعبدون الشيطان، ولكل بطن من أولئك البجة الداخلة كاهن يقتدون به[3].

وبعد أن تعرضنا إلى قول هؤلاء المؤلفون. واختلاف ما ذكروه من وصف نظام الحكم عند البجـة. إلا أننا نقف على أن نظام الحكم المتبع عند البجة، اعتمد على النظام القبلي سواء كان ذلك في شئون الحكـم، أو كان ذلك في شئون الإدارة.

وربما يرجع ذلك إلى طبيعة البجة البدوية التي تعتمد على التنقل والترحال وعدم الاستقرار، ومعنى هذا أننا نرفض ما قدمه اليعقوبي[4] من وصف نظام الحكم عند البجة، وذلك لكون البجة بدو رحل غير مـستقرون. وإن من بعض قول اليعقوبي ما هو مؤيد لما نقوله: فقد ذكر في موضع من كتابـه: أن الحـدارب والزنـافج يقمون في المملكة التي يقال لجنسها نقيس، وعاصمتها هجر[5] وجاء قوله في موضع من كتاب آخر: "أن ملك الحداربة يقيم في مملكة عاصمتها هجر – يعني المنطقة التي بها جنس نقيس – وملك الزنافجة يقيم في مملكة آخر وهي بقلين" [6].

ويستدل من القولين أن البجة الزنافج كانوا في المنطقة التي يقال نقيس، ثم أصبحو فيما بعد في منطقة بقلـين وقد يكون العكس. ومعنى هذا القول أن هؤلاء الزنافج يتنقلون ما بين منطقة وأخـرى إذا فهـم رحـل غيـر مستقرون. وإضافة إلى ذلك أيضا أن البجة الحداربة كانوا أيضا غير مستقرين و ذلك على حد قولـه : "أنهـم ينزلون خيام جلود"[7] وهذا القول هو ما أكده لنا بن حوقل[8] بقوله عن الحداربـة: "وجمـيعهم منتجعـون لا حاضرة له". وقد يكون السبب في ذلك هو البحث عن وسائل العيش. وهذا ما أكده لنا المقريزي[9] بقوله: "وهم

---

(١) المقريزي: المواعظ و الاعتبار ج١ ص ١٩٥.

(٢) المقريزي: المواعظ و الاعتبار ج١ ص ١٩٥.

(٣) المقريزي: المواعظ و الاعتبار ج٢ ص ١٩٧.

(٤) تاريخ اليعقوبي ج١ ص١٩٢.

(٥) البلدان ص٣٣٦.

(٦) البلدان ص ٣٣٦.

(٧) صورة الأرض ص٥٤.

(٨) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٤.

(٩) صورة الأرض ٩-١٠.

يتبعون الكلأ حيثما كان الراعي بأخبية من جلود".

وبعد أن اتضح لنا أن هؤلاء البجة غير مستقرون. فهل ينطبق هذا التنقل وعدم الاستقرار مع واقع نظام الممالك الذي تعتمد على النظام الملكي في شئون الحكم والإدارة ؟

فيجيب عن هذا السؤال ابن حوقل[1] بقوله: "أن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة". فكيف يكون هناك سياسة مستقيمة ونظام حكم ثابت مع التنقل والترحال وعدم الاستقرار؟ لذلك استكمل بن حوقل قوله عنهم : "وهؤلاء مهملون في هذه الخصال".

ومجمل القول أن ما وصفه اليعقوبي بأن منطقة البجة تضم عدة ممالك، في كل بلد ملك منفرد – فيبدو أن قوله ممالك تعريف لا ينطبق عله المفهوم الحالي الذي يدل عليه هذا اللفظ – فهذه الممالك التي يشير إليها اليعقوبي لم تزد عن كونها زعمات أو مشيخات أو سلطة قبلية، لها أعمالها في مدينة أو بلدة قد تضم رقعة من الأرض للرعي وغيره، وربما كان في بعضها أخصاص للسكن أحيانا[2].

وبعد أن اعترضنا قول اليعقوبي، ووقفنا عليه وعلى حقيقته، يأتي قول ابن حوقل والمقريزي موضحا ومؤكدا بما أشرنا إليه سابقا، أن البجة اتبعت النظام القبلي لا الملكي في شئون الحكم والإدارة، ويتضح لنا هذا أكثر إذا ما قارنا قول اليعقوبي بقول بن حوقل والمقريزي.

- فقد أشار اليعقوبي[3] في وصفه أن المملكة الأولى: هي التي تقع ما بين حد أسوان شمالا إلى خور بركة جنوبا ويقال لها نقيس، وعاصمتها هجر وسكانها من البجة قبائل وبطون كثيرة ومن بينهم الحدارب. أما ابن حوقل[4] فقد اتفق في وصفه مع اليعقوبي في تحديد المكان وما يقيم به من الأجناس فذكر: أن الحدارب وبطونهم، وما خضع لهم من بطون، يقيمون في بلاد تتصل فيها بلادهم ببلاد الحبشة والنوبة ويتضح لنا اتفاق الوصفان عن المكان إذا ما قارنا قول اليعقوبي بقول المقريزي عن هجر. فيذكر اليعقوبي: "هي مدينة ملك البجة"[5] ويذكر المقريزي: "هي أقصى جزيرة البجة"[6].

ونستنتج من القولان أن الحداربة كانوا يقيمون في آخر بلاد البجة، من أرض الحبشة والنوبة، وهذا ما ذكره بن حوقل عن نهاية بلاد البجة بقوله: وينتهي حدهم ما بين الحبشة وأرض مصر وأرض النوبة[7] وبهذا يأتي ما ذكره بن حوقل من أن الحدارب ومن معهم تكون بلادهم المتصلة ببلاد الحبشة والنوبة، متفقا مع ما ذكره اليعقوبي في وصفه من تحديد المكان. ولكنه اختلف مع اليعقوبي في وصفه لنظام الحكم، فذكر: "أن هؤلاء الحدارب ومن معهم يتبعون النظام القبلي في شئون الحكم والإدارة بقوله يخضع الحدارب لرئيسين من شيوخهم، رئيس لكل بيت زمام ورئيس يسوسهم، وينقسمون إلى بطون، لكل بطن منها نحو مائة فخذ، لكل فخذ منها رئيس أو رئيسان"[8]

---

(١) صورة الأرض ص٩ –١٠.

(٢) الشاطر بصيلي: تاريخ و حضارات السودان ص ١٤٧.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج١ ص١٩٢.

(٤) صورة الأرض ص٥٦.

(٥) البلدان ص٣٣٦.

(٦) المواعظ و الاعتبار ج١ ص١٩٤.

(٧) صورة الأرض ص٥٠.

(٨) صورة الأرض ص٥٦.

ويتضح لنا من هذا القول كيفية تطبيق النظام القبلي عند هذه القبائل وكيفية إدارتها، من جعل رئيس يكون بمثابة الحاكم لهذه القبائل، ورئيس يكون بمثابة القاضي لها، وتنحدر منه رؤساء آخرين تنوب عنهم في باقي البطون والأفخاذ، حتى تكون صلة وصل بين هذه الأفخاذ ومشايخهما في جميع المناطق.

ويأتي قول المقريزي مؤكدا بوصف ابن حوقل، رافضا وصف اليعقوبي بقوله: "وكان لهم قديما رئيس يجتمع جميع رؤسائهم إلى حكمه وكان يسكن قرية تعرف بهجر" [1] كما ذكر في موضع آخر: "أن لكل رئيس من الحداربة قوم من الزنافج في حملته كالعبيد يتوارثونهم" [2]

- وأشار اليعقوبي أن المملكة الثانية هي (بقلين). أما ابن حوقل فقد ذكرها باسم (تفلين)، ويبدو أن الاسم الصحيح هو ما ذكره ابن حوقل، أما ما ذكره اليعقوبي فيحتمل أن يكون خطأ، وقد يرجع هذا إلى النقل في جعل التاء باء والفاء قافا [3] وكيفما كان الأمر فقد ذكر بن حوقل عن هؤلاء البجة البادية، كان يحكمهم ملك مسلم، يتكلم العربية من قبل صاحب علوة [4].

وإن كان في وصف ابن حوقل هذا الاتفاق مع وصف اليعقوبي في نظام الحكم، فلا يكون هذا إلا في ظاهر القول، أما حقيقة القول فهو ليس حاكم عليهم، ولا هو النظام المتبع عندهم، بل هي طاعة عليهم لبلاد النوبة، فكان نطاق حكم بلاد النوبة يقتصر على فرض نفوذها على هذه المنطقة، التي قد يأتيها البجة، لا حاكم على هذه القبائل ويتضح ذلك من قول ابن حوقل: ووسط هذا الوادي قرى للبادية ينتجعونها للرعي حين المطر [5] ومعنى هذا أنهم قد يرحلون عن هذا الوادي في غير المطر، وبالتالي يسقط عنهم ولائهم وطاعتهم للنوبة، لكن نظام حكمهم القبلي ظل بينهم يعتمدون عليه في نطاق قبائلهم في شئون الحكم والإدارة.

- كما أشار اليعقوبي [6] في وصفه للمملكة الثالثة والتي تسمى (بازين)، وهي التي تجاور علوة من ناحية، وبقلين من ناحية أخرى. أما بن حوقل فقد اتفق في وصفه مع اليعقوبي في تحديد المكان فذكر: "تجاور تفلين بازين" [7] ولكنه اختلف معه في وصف نظام الحكم بقوله: "ورياستهم بأيدي شيوخهم" [8] وبهذا يتضح لنا أن النظام المتبع في نظام الحكم هو النظام القبلي، كما يضيف في قوله: "وليس لأحدهم عليهم طاعة" [9] ويعني هذا أن حكمهم الداخلي اعتمد على النظام القبلي، في سلطة مطلقة سواء كانت داخلية أو خارجية. فليس عليهم طاعة ولا ولاء لأي سلطة أخرى. وهذا بخلاف ما ذكرناه سابقا عن القبائل التي سكنت وادي تفلين، وتأكيدا لما وقفنا عليه سابقا.

---

(١) المواعظ و الاعتبار ج١ ص١٩٤.

(٢) المواعظ و الاعتبار ج١ ص١٩٥.

(٣) الشاطر بصيلي: تاريخ و حضارات السودان ص ١٩٤.

(٤) صورة الأرض ص٥٧.

(٥) صورة الأرض ص٥٧.

(٦) تاريخ اليعقوبي ج١ ص١٩٢.

(٧) صورة الأرض ص٥٧.

(٨) صورة الأرض ص٥٧.

(٩) صورة الأرض ص٥٧.

- وقد أشار اليعقوبي[1] أن المملكة الرابعة هي جارين، وهي التي تقع ما بين ميناء باضع على ساحل البحر الأحمر وبين خور بركة. وأشار أن المملكة الخامسة هي قطعة وهي الأخيرة وتقع ما بين باضع إلى مكان يقال له فيكون. أما ابن حوقل فقد أغفل في وصفه هاتين المملكتين، لكن يبدو لنا إن هذا يغطيه قوله: "وتقيم في شق بركه قبائل كثيرة"[2] وذلك لأن من الملاحظ أن هاتين المملكتين كانتا على ساحل البحر الأحمر ما بين سواكن ومصوع، وفي ظهيرهما خور بركة[3].

أما عن نظام الحكم المتبع عند هذه القبائل، فمن المؤكد أنه النظام السائد عند جميع قبائل البجة، ألا وهو النظام القبلي.

وفي نهاية القول وبعد أن قارنا بين وصف اليعقوبي بوصف ابن حوقل المقريزي عن نظام الحكم المتبع عند هذه القبائل، وإن كان ينقصه بعض الشئ من التوضيح، إلا أنه جاء مؤكدا لما وقفنا عليه من أن نظام الحكم السائد عند البجة سواء كان في شئون الحكم أو في شئون الإدارة هو النظام القبلي.

ولا تزال إلى اليوم تنظم شئون قبائل البجة بهذا النظام، فلكل قبيلة رئيس ويسمى (الناظر) ويتولى شئونها العامة، ويكون حلقة الإتصال بين الحكومة والقبيلة[4].

ب- وراثة الحكم

حرصت قبائل البجة على اتباع نظام وراثة الحكم، وهو نظام يسود جميع الأمم والشعوب الأفريقية الحامية، ألا وهو نظام الوراثة المتعلق بالنسب إلا الأم فيذكرابن حوقل[5] عن نظام وراثة الحكم عن طريق الأم فيقول: "ومن سنة جميع السودان، إذا هلك الملك، أن يقعد ابن أخته دون كل قريب وحميم من ولد وأهل".

فليست قبائل البجة وحدهم الذين ينسبون أنفسهم إلى أمهاتم، ولكن هذا النظام متبع لدى النوبيين وغيرهم من شعوب الأفارقة، وإن دل هذا فإنما يدل على أنه مظهر من مظاهر أهمية المرأة عند هذه الشعوب، فكان الفتى يعلو شأنه بعلو شأن خاله، ويظهر هذا في أحاديثهم وقصصهم وأغانيهم[6].

فمن الثابت أن النسبة إلى الأم شئ مألوف عند الشعوب الحامية؛ وذلك لأن الأم كانت عماد الأسرة عند هذه الشعوب، حتى أن بعض العرب كانوا أيضا ينسبون أنفسهم إلى أمهاتهم[7].

ويؤكد أيضا هذا القول المقريزي[8] بقوله عن البجة نقلا عن بن سليم الأسواني فيقول: "وأنسابهم من

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج١ ص١٩٢.

(٢) صورة الأرض ص٥٥.

(٣) الشاطر بصيلي: تاريخ و حضارات السودان ص١٤٩.

(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٣٨.

(٥) صورة الأرض ص٥٧.

(٦) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٤٤.

(٧) عبد العظيم رمضان: الحدود المصرية السودانية ص ٣١٣.

(٨) المواعظ و الاعتبار ج١ ص ١٩٤.

جهة النساء.... فهم يورثون ابن البنت دون ولد الصلب" ويقولون: "إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، فإنه إن كان من زوجها أو من غيره، فهو ولدها على كل حال".
فيؤكد لنا هذا القول السبب في اتباع البجة لنظام الوراثة المتعلق بالمرأة بصفة عامة والأم بصفة خاصة.

وإضافة من هذا القول يتضح لنا الأسباب في اتباع البجة نظام الوراثة هذا، وهو أنه أن لا يكون اختلاف حول صحة النسب إلى الأم، فالأم هي الأم، ولن يحدث التباس في النسب إليها لذلك كان الميراث وتولية الحكم يفضل أن يكون عن طريق النسب إلى الأمهات[1].

وربما يرجع ذلك إلى ما أشار إليه المقريزي في موضع آخر من قوله على نساء البجة على أنه لا يكترثن دائما بالمحافظة على عفافهن، ومن ذلك يقول على النساء الصانعات للحراب: "وصناع هذه الحراب نساء في موضع لايختلطن بهم رجل، إلا المشتري منهن. فإذا ولدت إحداهن من الطارقين لهن جارية استحيتها، وإن ولدت غلام قتلته ويقلن: إن الرجال بلاء وحرب"[2].

ويأتي قول بن تغري بردي[3] مؤكدا هذا المعنى بقوله – نقلا عن ابن فضل الله العُمري فيقول: "إن سكان هذه البلاد لا فرق بينهم وبين الحيوانات الوحشية، لكونهم حفاة عراة، ليس على أحدهم من الكسوة ما يسترهم...." مكملا لقوله: "ولا يعترف أحد منهم بزوجة ولا بولد ولا بأخ ولا بأخت، بل هم على صفة البهائم ينزو بعضهم على بعض".

وإن كان هذا القول به شئ من المغالاة والمحاملة على هذه القبائل، إلا أنه يؤكد لنا بعض الاحتمالات في اتباع البجة نظام الحكم المتعلق بالأم.

ومهما كانت الأسباب التي جعلت البجة يحرصون على اتباع هذا النظام المتعلق بالأم. إلا أنه كان من أهم الوسائل التي جعلت العرب تبسط سلطانها على هذه القبائل عن طريق الزواج، وما يترتب عليه من حقوق تقضي بنظام وراثة الأم.

لذلك صار على العرب في التزوج من البجة، بعد أول لقاء حربي معهم في عام١٠٧هـ /٧٢٥م ويذكر عن ذلك المقريزي[4] فيقول: "ثم كثر المسلمون في المعدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم" .

فمن المحتمل أن العرب عندما استقروا ببلاد البجة عند أول لقاء حربي معهم، أدركوا قيمة نظام الوراثة المتعلق بالأم عند هذه الشعوب. لذلك سارع العرب في التزوج من بنات البجة، وذلك ليضمنوا حق الإقامة الدائمة في هذه المنطقة بعد أن ضاقت بهم بلادهم.

وهناك من القبائل ما تطلع إلى السيطرة على هذه القبائل وبسط الهيمنة عليهم، وذلك لتحقيق مصالحهم السياسية والاقتصادية في هذه المنطقة.

ومن بين هذه القبائل التي تطلعت لذلك قبيلة ربيعة، فلم تقف هذه القبيلة على التزوج من بنات البجة فقط، بل

---

(١) عبد العظيم رمضان: الحدود المصرية السودانية ص ٣٠٧.

(٢) المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٤.

(٣) النجوم الزاهرة ص٢٩٦.

(٤) المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٥- و عن أول لقاء حربي بين العرب و البجة أنظر فيما بعد معاهدة عبد الله بن الحبحاب.

سعوا إلى التزوج من بنات رؤسائهم وذلك لينجبوا أبناء يرثوا الإمارة عن أخوالهم، وفي ذلك يقول المقريزي[1] عن ربيعة: "وتصاهروا إلى رؤساء البجة".

فلابد أن قبيلة ربيعة أدركت قيمة حق الوراثة عن طريق الأم، أي نظام الأمومة في وراثة الحكم. فتزوجوا رؤساء ربيعة من بنات رؤساء البجة؛ لينال أبناء هؤلاء العرب حقا مشروعا في السيطرة على قبائل البجة، حسبما يقتضيه هذا النظام الأموي[2]. وبعد ما تحقق لربيعة مصاهرة رؤساء البجة، استفادوا من نظام وراثة الحكم عند البجة، فنجحت في السيطرة عليهم، وعلى أرض المعدن، بعدما أنجبوا أبناء ورثوا الإمارة عن أخوالهم، فيذكر ابن حوقل[3] عن هذا في زمنه – أي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري أي في عام ٣٣٢هـ / ٨٤٦م تقريبا: "كان برأس الحداربة اجمع رئيسان، هما عبدك وهو خال ولد أبي بكر إسحاق بن بشر صاحب العلاقي، وكوك وهو خال أبو القاسم حسين بن بشر".

ويتضح لنا من هذا القول أن إسحاق بن بشر أصبح رئيس الإمارة في العلاقي والتي جمعت بين عرب ربيعة وحداربة البجة، وكان ذلك عن طريق وراثته لها من خاله عبدك، حسبما يقتضيه نظام وراثة الحكم عند البجة. ومن المؤكد أن هذا النظام الوراثي عند البجة قد ساهم بدوره في بث العرب للفكر والثقافة الإسلامية والعربية في هذه المنطقة لتصبح بدورها مركز إشعاع إلى وسط أفريقيا.

ج- المنازعات و الخلافات الداخلية

إن الوضع الداخلى لقبائل البجة إتسم بالعداء و التمرد، و ذلك لطبيعتها الصحراوية الجافة، و هى التى صبغتهم بصبغتها القاسية، بعد أن تمرسوا بها حتى أصبحوا جزءا منهـا، بعد أن عايشوا فيها آلاف السنين. فكثيرا ما تحملوا الشدائد و شظف العيش، و يتجزئون بالقليل من الزاد إذا تيسر، و يصبرون على الحرمان فى أوقات الجهد و المشقة، و لكن يتغلب عليهم الطابع الحربى الذى اتسم بالعدوانية، فيلجئوون إلى الغارات و السلب و النهب و الإفساد، و محاولة الهيمنة على المناطق التى تتوفر فيها وسائل العيش.

و أدى هذا بدوره إلى وجود الغارات و الغزوات بين قبائل البجة فى هذه المنطقة، و كان كهنتهم (رجال الدين) تحثهم على هذا و تلجأ الى الحيل للحصول على ذلك و يذكر عن ذلك المقريزى[4] نقلا عن بن سليم الأسوانى فيقول: "و كان لكل بطن كاهن يضرب له قبة من أدم – خيمة الجلد – معبودهم فيها، فإذا أرادوا استخباره عما يحتاجون إليه، تعرى ودخل إلى القبة مستدبرا، ويخرج إليهم و به أثر جنون وصرع و يقول: الشيطان يقرؤكم السلام و يقول لكم: ارحلوا عن هذه الحلة – منزل القوم – فإن الرهط الفلانى يقع بكم، وسئلتم عن الغزو إلى بلد كذا فسيروا فإنكم تظفرون، وتغنمون كذا وكذا، والجمال التى تأخذونها من موضع كذا هى لى، و الجارية الفلانية التى تجدونها فى الخباء الفلانى، والغنم التى من صفاتها كذا، ونحو هذا القول

---

(١)المواعظ و الاعتبار ج١ ص١٩٧.

(٢) مصطفى مسعد : البجة و العرب ص ٣٩.

(٣) صورة الأرض ص٥٥.

(٤) المواعظ و الاعتبار ج١ ص١٩٧.

.... فيزعمون أنه يصدقهم فى أكثر من ذلك فإذا غنموا، أخرجوا من الغنيمة ما ذكره و دفعوه إلى الكاهن".
ومن الملاحظ أن هذا القول ينقصه التوضيح فى ذكر موقع الغزوات و الغارات بين أى منها و تحديد البلدان التى يقع عليها هذا الغزو، و ذكر الأحداث، إلا أنه يحمل فى مجمله أن هذه الغزوات و الغارات كانت تقع بين قبائل البجة أنفسهم. وذلك لأنه ذكر: ما يطلبه الكاهن من الغنيمة، وهى الجمال و الجارية الموجودة بالخباء والغنم، وهذه الأشياء تتطابق مع بيئتهم ووسائل معيشتهم. لكن على أى حال من الأحوال يوضح النزعة الحربية التى تتغلل فى نفوس أولئك البجة.

و لكن فى قول آخر أكثر إيضاحا يوضح لنا أن المنازعات ربما تكون قد وقعت بين قبيلتين من قبائل البجة، و حاولت كل منها فرض هيمنتها على الأخرى، وكان هذا بين قبائل الحداربة والزنافجة فيذكر المقريزي[1]: "أن الحدارب هم شوكة القوم ووجوههم ... وما وراء ذلك آخرون يعرفون بالزنافج هم أكثر عددا من الحدارب غير أنهم تبع لهم وخفرائهم يحمونهم و يجبونهم المواشى، و لكل رئيس من الحدارب، قوم من الزنافج فى حملته، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الزنافج قديما أظهر عليهم".

فمما لا شك فيه أن هذه العناصر البجاوية من الحداربة و الزنافج، حاول كل منها فرض سيطرته و هيمنته على الآخر، و لا يكون هذا إلا من خلال النزاع السياسى و الحربى ووسائله من غزو و غارات. فمن المحتمل أن الزنافج كانوا فيما سبق عنصرا بارزا على الحداربة و غيرهم من قبائل البجة، فحاولت الحداربة أن تقضى على نفوذ هذه القبيلة، فكانتا دائما فى نزاع و خلاف مستمر، حتى تمكن الحداربه فى النهاية أن ينتزعوا نفوذهم، و يتضح هذا فى القول السابق: "لكل رئيس من الحدارب قوم من الزنافج فى حملته كالعبيد يتوارثونهم بعدما كانوا أظهر عليهم". فبذلك أصبحوا العنصر البارز بين قبائل البجة، وأقاموا فى النهاية طبقة حاكمة، لم يخضع لها الزنافج فقط، بل خضع لها معظم قبائل البجة. و مما يؤكد هذا القول قول ابن حوقل[2] فيذكر : "أن هناك بطون في مقابل سواكن، تعرف برقابات وحنديبا، و كانوا خفراء للحداربة".

ومن خلال القول السابق يتضح لنا أن الحداربة بعدما تحقق لهم أن ينتزعوا نفوذ الزنافج، اتجهت سياستهم بعدما أتيح لهم ذلك، إلى بسط نفوذهم على باقى القبائل و البطون الأخرى مثل بطون برقابات و حنديبا، حتى أصبحوا فى النهاية طبقة بارزة خضع لها قبائل البجة.
ويؤكد هذا المقريزى[3] بقوله: "و كان لهم رئيس – أي البجة – يرجع جميع رؤسائهم إلى حكمه، يسكن قرية تعرف بهجر و هى أقصى جزيرة البجة". ويؤكد اليعقوبى[4] أن هذه البلدة هي التي يقيم فيها رئيس الحداربة فيذكر : "ومدينة ملك البجة الحداربة يقال لها هجر".

وخلاصة القول أن قبائل البجة قد تعرضت لحروب داخلية و غزوات قبلية و خلافات و منازعات، و ذلك لفرض السيادة والسيطرة على مصادر العيش فى هذه البيئة القاسية، وما هذا إلا صورة من صور النزاع

(١) المواعظ و الاعتبار ج١ ص ١٩٥.
(٢) بن حوقل : صورة الأرض ص٥٦.
(٣) المواعظ و الاعتبار ج١ ص ١٩٤.
(٤) البلدان ص٣٣٦.

القبلي الذي اتصفت به حياة القبائل البدوية سواء كانت بجاوية أو غيرها.

وصفوة القول أن إقليم البجة وقبائلهم يعد من أهم أقاليم الجنوب المصري، والذي ساهم بشكل مباشر في نشر الثقافة العربية والإسلامية في السودان الأوسط والشرقي؛ وذلك بفضل الاحتكاك العسكري الخارجي بين العرب والبجة خلال فترات متعاقبة، لمدة زادت عن أربعة قرون من الزمن، نتج عنها عدد من المعاهدات التي كان بموجبها أن أمن العرب الاستقرار في بلاد البجة. وبالتالي أدى لظهور مظهر آخر للاحتكاك بين العرب والبجة، ألا وهو الاحتكاك الداخلي والذي يتمثل في الارتباط الاجتماعي، والذي نتج عنه ظهور جيل جديد يحمل صفات البجة وأصول العرب ويدين بالإسلام ليعمل بعد ذلك على نشر الإسلام والثقافة العربية في المنطقة الجنوبية من خلال دور حيوي لا ينكر فضله التاريخ في طياته.

الفصل الثالث :

مظاهر الحياة الاقتصادية عند البجة

أولاً: الزراعة و الرىّ وتتمثل فى:

أ – موارد الماء و الرى.   ب – أنواع المحاصيل.   ج – معيشة الفلاح.

ثانياً: الرعى و الثروة الحيوانية ويتمثل فى:

أ – حرفة الرعى.   ب – الثروة الحيوانية.

ثالثاً: الصناعة وتتمثل فى:

أ – المواد الأولية.   ب – أهم الصناعات.

رابعاً: التجارة وتتمثل فى:

أ – التجارة الداخلية وتمثلت فى:

١ – مراكز التجارة وأهم الأسواق

٢– أهم السلع التجارية

ب – التجارة الخارجية وتمثلت فى:

١ – أهم الطرق

٢– الموانئ التجارية

يتوهم الإنسان أن هذه المنطقة الصحراوية القاحلة تخلو من النشاط الاقتصادى ودروبه، ولكن الحقيقة أن هذه المنطقة شهدت نشاطاً بارزاً فى مجال الحياة الاقتصادية فى العصور الوسطى، وذلك لما حظيت بـه مـن مقومات جغرافية طبيعية، وظروف مناخية وموارد مائية، إضافة إلى العناصر البشرية التى أجادت التعامل مـع مثل هذه الظروف والاستفادة منها فى دروب النشاط الاقتصادى، وفى النهاية تكاتفت عليها هذه العوامـل ممـا جعلتها تتبوأ مكانه مرموقة فى هذا النشاط لا على المستوى الإقليمى بل على المستوى العالمى، ويمكـن لنـاً معرفة المجالات الاقتصادية عند البجة من خلال الآتي:

<u>أولاً: الزراعة والري</u>

ليس من المنتظر في بيئة تغلب عليها الصفات الصحراوية في معظم جهاتها، أن يكون فيهـا للزراعـة شأن كبير، ومع ذلك هناك جهات متفرقة أمكن أن تنشأ فيها حياة زراعية، ولكن لـم تكـن تمـارس بحمـاس وإخلاص مثل الشعوب المزارعة، لأن شأن البجة في ذلك شأن جميع الرعاة في جميع الأقطار.[١]

وقد ذكر ابن حوقل أن في الوقت الذي كان يمارس فيه البجة حرفتهم الأساسـية الرعـي، كـان علـى الجانب الآخر جماعة منهم تمارس حرفه جديدة وهي الزراعة فيقول: " أن أرض دجن (دلتـا الجـاش) كمـا تعرف حاليا – كانت قرى متصلة ذوات مياه ومشاجر وزرع وضرع، ثم ذكر أن وسط الوادي تفلين – أي فـي الجانب الذي يقع بين نهر دجن وخور بركه – تقع قري للبادية ينتجعونها للرعي حين المطر ويربـون الإبـل والبقر"[٢] ويعني هذا أن هذه المنطقة تضم حوض دجن وسكانه من المشتغلين بالزراعـة وهـذا يـدل علـى استقرار حياتهم وعلاقتهم بالأرض، أما القسم الثاني فكانت تسكنه مجموعات تعيش في البادية علـى الرعـي، وحيواناتهم الإبل والبقر[٣].

ومن المرجح أن البجة قد عرفوا الزراعة زمناً طويلا، ولكن دون أن يمارسوا تلك الحرفة أو يقلدوا من يحترفها – ولا شك أنهم منذ زمن طويل جدا عرفوا فائدة الغلات الزراعية، وعلى الأخص الحبـوب، وحـصلوا عليها واستخدموها في غذائهم، دون أن يفكروا في استنباطها بأنفسهم، وحسبهم أنهم كانوا يحصلون عليهـا: إما بالإغارة على الزراع وسلبهم إياها، وإما بالمبادلة. وظل البجة وقتا طويلا في الحصول على حاجتهم مـن الغلات الزراعية بأحدى هاتين الوسيلتين، ومن الجائز أن البجة قد مارست الزراعة، مقلـدين لجيـرانهم مـن المستقرين الملازمين لحقولهم ومزارعهم[٤].

ويمكن أن نؤكد هذا القول بما أورده اليعقوبي[٥] فذكر: "أن القوم الذي يقال لهم (بازين) من البجـة، وهم الذين يجاورون علوة من النوبة، وبقلين(تفلين) من البجة، زرعهم الذي يأكلونه الدُخن وهـو طعـامهم". ويعني هذا أن البجة الذين يجاورون النوبة يشتغلون بالزراعة، وهذا لأن النوبة شعب مزارع حيث كانت

---

(١) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٤٩

(٢) صورة الأرض ص ٥٧

(٣) الشاطر بصيلي : تاريخ وحضارات السودان ص ١٤٩

(٤) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٥٢

(٥) اليعقوبى : تاريخه ص ١٩٣

للزراعة عندهم شأن كبير، وهذا بفضل نهر النيل ويؤكد ذلك ابن حوقل بقوله عن النوبة: "إن نيل مصر يخترق مدنهم ونواحيهم، وإن قراهم عامرة خصبة كثيرة التمر والزرع والخضر"(١).

ومن الواضح أن البجة قد مارسوا الزراعة، مقلدين لجيرانهم النوبة، وهذا بخلاف البجة الغير مجاورين لهم، مثل الذي يقيمون في تفلين فقد اعتمدوا في معيشتهم على الرعي واقتناء الإبل والبقر.

ومن الراجح أن البجة مارست الزراعة، وذلك لما وجدوه في أرضهم من مقومات إيجابيـــة، ســـاعدتهم على زراعتها بسهولة ويسر، فقد حظيت البيئة البجاوية على تنوع ملحوظ في التــضاريس أدى إلـــى تنـــوع المناخ الذي ساعد على تواجد المياه المناسبة للزراعة، وإن كانت تغلب عليها قلة المطـــر عامـــة. والطبيعـــة الصحراوية التي تسودها في الشمال، فهي لا تخلو من بعض الجهات التي يتنوع فيهـــا المطـــر بـــين الـــشتاء والصيف، وهذا عدا الأنهار التي تجري في أجزاء منها مثل خور بركة وخور الجاش، والأنهار التـــي تجـــري بالقرب منها مثل العطبرة، ليؤدي هذا في النهاية إلى سهولة الزراعة وتنوع النبات(٢).

وقد جاء وصف ابن حوقل عن أرض البجة مطابقا لما ذكرناه، من أن أرض البجة احتوت فـــي بعـــض المواضع على المياه المناسبة للزراعة فقد ذكر: "إن هناك بعض المواضع تسمي (قلعيب) وهي أودية متصلة ذات مياه، وتتصل بجبل يسمي (ملاحيب) وأكبر أوديته وادي بركة، ثم أضاف إن من الحـــد الـــشرقي الجبـــل ملاحيب يتصل به وادي يعرف (ببصيغيوات) وهو كثير الماء أيضاً، كما ذكر أن هذا الجبل أخذ بأوديتـــه مـــن نواحي البحر الأحمر إلى (دُكن) وهي أرض مزارع وأحواف يجري إليها ماء النيـــل ويـــزرع عليهـــا الـــذرة والدُخن"(٣).

ومن الملاحظ من قول ابن حوقل إن أرض البجة احتوت علـــى الأوديـــة والأراضـــي العـــامرة بـــالزرع والضرع، واعتمادا في ريها بالأخوار والأنهار، إضافة إلى ذلك أنه حدد أنواع المحاصيل المزروعة من الـــذرة رفيعة ودُخن.

ويمكن لنا عرض ذلك بشئ من التفصيل في نقاط تتمثل في: الري ومواد المـــاء، وأنـــواع المحاصـــيل، ومعيشة الفلاح.

أ - الري وموارد الماء:

لكي نحدد نوع الري المستخدم عند البجة. سواء كان حوضي أو فيضي أو راحة، لابد لنا أن نقف علـــى موارد الماء. ولكي نقف على موارد الماء لابد لنا من تحديد المناطق المنزرعة ووسيلة ريها، فقد ذكرنا منهـــا بعض الأودية في قول ابن حوقل سابقا، إضافة إلى ذلك بلدنا كسلا وطوكر وبعض السهول مثل سهل البطانـــة، وبعض الأقطار كالمتاخمة لحدود الحبشة، فاعتمدت في ريها على الأنهار والأخوار والأمطار في بعض الجهات.

---

(١) صورة الأرض ص ٥٦

(٢) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٢٥

(٣) صورة الأرض ص ٥٤ ، ٥٥

فأول موارد الري النهر المعروف بالدجن، كما ذكر ابن حوقل وذكر: "أنه يأتي من بلد الحبشة فينقطع في أعمال دجن ومزارعها"[1] والنهر الذي ذكره ابن حوقل بالدجن يعرف حاليا بخور الجاش أو القاش، كما إن أعماله ومزارعه التي ذكرها هي أيضاً دلتا القاش كما تعرف حاليا[2].

وخور القاش ينبع من أقصى شمال الهضبة الحبشية جنوب أسمرة نحو ٢٥ كيلو متر ا، ويمثل مجراه الأعلى الحد الفاصل بين إريتريا والحبشة، بعد التقائه برافده بلسا، ثم يصبح مجراه بعد ذلك في إريتريا إلى ينتهي بدلتاه الفيضية في سهول السودان قرب كسلا، ويعرف جزءه الأعلى باسم مأرب وهو شديد الانحدار متوسط العمق، ولكنه يختلف عن ذلك في سهول السودان حتى يصبح نهراً واسعا قليل العمق، ويتجه مجراه الأعلى نحو الشمال الغربي، ولكنه بعد أن يصل إلى سهول السودان عند جلصا، يتجه نحو الشمال، وبعد أن يمر بالسفح الغربي لجبل كسلا يصل إلى رأس الدلتا، ومن كسلا ينبع الخور الشرقي الذي يعتبر الحد الشرقي للدلتا فيما عدا أطرافها الشمالية، أما الفرع الغربي للجاش فيستمر في اتجاهه في الشمال الغربي ليكون الحد الغربي للدلتا[3].

وبذلك تمتد دلتا الجاش برأسها بعد كسلا بقليل على هيئة مروحة فيضية في اتجاة شمالي غربي لنحو مائة كيلو متر، وتنحدر مباشرةً نحو الشمال، وبدرجة أقل نحو الغرب، وهي وإن كانت حدودها الشرقية والغربية غير محدودة بدقة، إلا أن مساحتها تقدر نحو ٧٠٠ ألف فدان، كما يتخللها بعض الأخوار الفرعية، وهي أخوار عرضية بين الفرعين الشرقي والغربي للدلتا، وأهمها خور السلام عليكم[4].

كما أن فصل فيضانه يبدأ من أوائل يوليه ويستمر إلى أواخر سبتمبر، وهو فيضان سيلي شديد التدفق حاملا معه كميات ضخمة من الطمي العالق بالمياه، وقد تبلغ كميته ستة أمثال ما يحمله نهر النيل من طمي في فيضانه[5].

– ويأتي ثاني مورد للمياه في أرض البجة كما ذكر ابن حوقل أنه خور بركة وقال عنه: "إنه يجري من بلد الحبشة مجتازا على بازين وأخذ إلى ناحية البجة وينصب بين سواكن وباضع في البحر المالح"[6].

وخور بركة ينبع من شمال الحبشة عند خط عرض ١٥ تقريبا، ويسير في معظم مجراه في اتجاه يكاد يكون شماليا، وهو يتكون في إريتريا من رافدين هما بركه وعنصبة، ويتصل به عند دخوله السودان خور (لانجيب) – الذي يأتي من المرتفعات الواقعة شمال دلتا الجاش – وبعد اتصاله بخور لا نجيب يصبح خور بركة منحدراً لكثر اتساعاً، وجنوب شرق طوكر بـ ٣٣ كم يدخل النهر في خانق ضيق يمر بجنادل شدن،

---

(١) صورة الأرض ص ٥٧

(٢) الشاطر بصيلي : تاريخ وحضارات السودان ص ١٤٩

(٣) السودان دارسة في الوضع الطبيعي و الكيان البشرى و البناء الاقتصادى: تأليف محمد محمود الصياد ود/ محمد عبد الغني سعودى، القاهرة ١٩٦٦، ص ٤٣

(٤) السودان دارسة في الوضع الطبيعي ص ٤٤

(٥) نفسه ص ٤٥

(٦) صورة الأرض ص ٥٧

وبعدها يصبح أقل انحدارا بمساحة ٦ كم، ثم يدخل النهر في السهول الساحلية ليبدأ في التفرع إلى ثلاث فروع رئيسية تحمل المياه إلى شرق ووسط وغرب الدلتا.

ويظهر فيضان بركة أكثر عنفاً وعدم انتظام من القاش، فهو يحدث على هيئة دفعات قوية عنيفة، ويبدأ من منتصف يوليه حتى منتصف سبتمبر، ويحمل في فيضانه كميات طمي أكبر بكثير من تلك التي يحملها القاش، ليكون في النهاية دلتا مروحية تقدر بمساحة ٣٨٦ ألف فدان على بعد ٩٠ كم من سواكن[١].

– إما نهر العطبرة يأتي بدوره ليكون المورد الثالث للري في بلاد البجة، وهذا لأنه يمثل جزءا من الحدود الغربية لمواطنهم[٢]، وهو نتيجة اتحاد عدة انهار وروافدها تنبع في إقليم غندار، حيث ينبع فيه نهر دار السلام وروافده وهما عنجريب وجرما، وفي هذا الإقليم أيضاً ينبع نهر أجوانج وغندوئة ومنابعهما، ثم يتحدان مع نهر دار السلام، ليكونوا في النهاية من اتحادهم نهر العطبرة، وعلى مسافة يتصل به رافد آخر، غير أنه أهم روافده على الإطلاق وهو نهر تكازي أوستيت " وهو ينبع من شرق الحبشة عند خط عرض ١٢ تقريبا، ويرسم مجراه انحنائين كبيرين بين خطي الشمال ١٢ ، ١٤ تقريبا ويشبه حرف Z "، وبعد التقاء تكازي بالعطبرة، يمتد العطبرة إلى سهول السودان ليصب في النهاية في نهر النيل، ويتميز بشدة انحداره، وحمل كميات كثيرة من الطمي إلى نهر النيل وهذا بخلاف غيره من الأنهار التي تصب في نهر النيل وذلك نسبةً إلى حجمه وطوله، كما إنه يختلف في فيضانه عن بقية الروافد الحبشية وذلك لأنه يكاد يجف لمدة خمس أشهر في السنة (من يناير إلى مايو) وباقي السنة يمتلئ بمياه الفيضان غير إن أكثر مياهه تكون في أغسطس[٣].

– ويأتي المورد الآخر والأخير من موارد الري عند البجة إلا وهو المطر حيث تسقط الأمطار بوفرة وغزارة في بعض الأقطار مثل سهل البطانة، وبعض الأقطار الجنوبية المتاخمة لحدود الحبشة، وامتازت تلك المناطق بخصوبة التربة ورطوبتها، وهذا أدي إلى جني محصول وافر لأقل مجهود يبذل[٤].

ونهاية الحديث عن موارد المياه في أرض البجة، نرى تعدد ملحوظ في مصادر الري في عدة مناطق، وإذا طابقناها لوجدنا أنها مصادر مؤقتة ليست دائمة، فهي مياه عبارة عن سيول وفيضانات صيفية تستمر في المتوسط ثلاثة شهور تبدأ في نهاية يونيه أو بداية يوليه، وبالتالي يكون نوع الري المستخدم فيضي ورغم هذا ساهم بدورة في إنشاء مزارع وفرت لهم الغلات الزراعية التي استخدموها في غذائهم وإطعام حيواناتهم.

ب – أهم المحاصيل:

من المؤكد أن المحاصيل الزراعية ارتبطت ارتباطا وثيقا بعوامل زراعتها، فيتحدد نوع المحصول تبعا لمصدر الري، ونوع التربة، ودرجة حرارة الجو. ومن الملحوظ أن مصادر الري في أرض البجة تكاد تكون

---

(١) السودان دراسة في الوضع الطبيعي ص ٤٥–٤٦

(٢) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٢٣

(٣) السودان دراسة في الوضع الطبيعي ص ٧٣–٧٥

(٤) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٥٠

كلها صيفية، كما أن نوع التربة جافة في جهات منها رملية، أما درجة حرارة الجو فإنها تصل إلى أعلى درجاتها، وبذلك كان لهذه العوامل دورا هاما في تحديد نوع المحصول، وقبل أن نتعرض لعلاقة الربط بين عوامل الزراعة في أرض البجة بالمحاصيل الزراعية - لابد لنا من معرفة هذه المحاصيل وما يناسبها لزراعتها.

فقد ذكر اليعقوبي نوع من هذه المحاصيل وقد اعتمدوا عليها في غذائهم فيقول: "إن من البجة ما يسموا باسم بازين إن زرعهم الذي يأكلونه الذخن وهو طعامهم"[1]، وتأكيدا لقول اليعقوبي عن أنواع المحاصيل

عند البجة ما ذكره ابن حوقل فقد ذكر: "إن ناحية البحر الأحمر توجد أودية هي أرض مزارع يجري إليها الماء، ويزرع عليها الذرة والذخن"[2]

ومن خلال قول اليعقوبي وابن حوقل يتبين لنا أنواع المحاصيل التي كانت تزرع في أرض البجة، وهذه المحاصيل تتمثل في الذره الرفيعة والذخن، وهي عبارة عن محاصيل حبوب غذائية، اعتمدوا عليها في غذائهم وإطعام حيواناتهم، ويبدو أنهم زرعوا هذه المحاصيل بالأخص، لما لها من مميزات تتناسب مع بيئتهم.

- الذرة الرفيعة[3]: وهي محصول صيفي يزرع في المناطق الاستوائية والجافة، بشرط أن تتوفر لها الكمية الكافية من المياه للري، ودرجة حرارة تتراوح ما بين ٢٦ ، ٣١ درجة مئوية، كما أنه يتحمل الجفاف بخلاف غيره عن المحاصيل الزراعية الأخرى، كما أنه يتناسب مع جميع أنواع التربة ويتحمل الملوحة والقلوية والجفاف، وتأتي مواعيد زراعية إبتداءً من مارس ويمتد حتى أغسطس، والأفضل مايو ويوليو.

- أما الذخن[4]: فهو أيضاً محصول صيفي سريع النمو، ويزرع في المناطق الدافئة، ويتحمل الجفاف بدرجة عالية أكثر من الذرة الرفيعة، وأفضل درجة حرارة مناسبة لزراعته هي ٢٠ - ٢٨ درجة مئوية، كما إنه يناسب جميع أنواع التربة ما عدا سيئة الصرف وأفضلها الطينية والرملية الجيدة الصرف، وتأتي مواعيد زراعته خلال شهري مايو ويونيه.

ومن الملاحظ أننا إذا ما طابقنا عوامل الزراعة في بيئة البجة، مع المحاصيل المزروعة، لوجدناها مناسبة للغاية، فنلاحظ أن مياه الأخوار والأنهار والأمطار يتناسب مواعيد توافرها مع مواعيد زراعة المحاصيل، وكما نوع التربة ودرجة الحرارة في هذة البيئة وفرت المكان والجو المناسب لنمو هذه المحاصيل. أما المحاصيل فقد امتازت بأنها سريعة النمو والنضج، كما وفرت الحبوب الغذائية لهم والأعلاف المناسبة لحيواناتهم.

<u>جـ- معيشة الفلاح:</u>

لقد اختلفت حياة الفلاح البجاوي وأسلوب معيشتة عن الراعي، وإن كان في الأساس يمارس حرفة

---

(١) اليعقوبي : تاريخه ص ١٩٣

(٢) صورة الأرض ص ٥٥

(٣) د/ عبد العليم عبد الرحمن متولي، وم /يحيى حسن مكاوي: محاصيل الحقل للصف الأول بالمدارس الثانوية الزراعية، وزارة التربية و التعليم ط ٢٠٠٨/٢٠٠٩ ص ١٢١-١٢٣

(٤) محاصيل الحقل ص ١٣٦-١٣٨

الرعي واعتمد عليها كوسيلة معيشة، ولكنه عندما بدأ تقليد الشعوب المزارعة – كان حتما عليه من تغير أسلوب حياته، وكان هذا واضحا في مسكنه واقتناء الحيوانات ويتضح لنا هذا من قول ابن حوقل فيذكر: " إن من البجة وهم الذين يعرفون ببازين يقيمون في أخصاص كالقرى، ولهم الماشية من البقر والزرع"[1].

ومن الملاحظ من قول ابن حوقل عن المسكن وإن كان بسيط يتكون من عيدان و سيقان الذرة أو الحطب أو غيرها. لكنه يكاد يكون دائم، وذلك لما تحتمه عليه حياة الزراعة من الاستقرار بجانب المحصول لحراسته وخدمته وحصاده، وهذا بخلاف حياة الرعي التي تعتمد على التنقل والترحال، وكان لهذا أثره في المسكن لذلك استخدموا الجلد والشعر في بنائه حتى يسهل حمله ونقله.

كما أن الزراعة كان لها أثرها في اقتناء الحيوانات المناسبة لذلك، لذلك اعتمدوا على البقر دون غيره من الحيوانات الأخرى وذلك لما له من دور في زراعة الأرض من الحرث والحمل والحصاد وغير ذلك من الأعمال الشاقة التي تتطلبها الزراعة، وهذا بخلاف الرعويون الذين يقتنون الإبل لأنه يتناسب مع التنقل والترحال ويتحمل المشاق من الجوع والعطش.

ثانيا: الرعي والثروة الحيوانية

أ – الرعي:

على الرغم من احتراف بعض البجة الزراعة، وتعدد أنواع المزارع، وضرورة الغلات الزراعية لاستكمال التغذية، كان الرعي هو الحرفة الأساسية لجميع البجة على الرغم من اختلاف قبائلهم وأوطانهم، وإن كانت قد تعددت ضروب النشاط الاقتصادي في العصور اللاحقة، فهذا لا يخفي الحقيقة الأساسية وهي أن البجة شعب من الرعاة. ومن الممكن أن نتصور أنهم في حين من الدهر لم يكن البجة يحترفون حرفة أخرى سواها[2] ويبدو أنهم أظهروا فيها براعة فائقة، وقد لاحظ هذا الشعوب القديمة منذ فجر التاريخ فقد وجدوا لوحة جدارية محفورة في معبد أضرحة الأسرة الثانية عشر في مير – على بعد ٥٠ كم جنوب مدينة أسيوط الحالية – ويظهر بهذه اللوحة رجال من قبائل البجة وهم يرعون قطيع من الماشية، تحت نظر ثلاثين عين من المصريين، مع ظهور ملامح البجة بصدورهم العريضة وأجسامهم النحيلة وشعرهم الكثيف[3].

وهذا يؤكد لنا مدى ارتباط البجة بالحياة الرعوية منذ عهد الفراعنة، فهم شعب موطد الأسس بالحياة الرعوية منذ فجر التاريخ، فهذه حقيقة أساسية لا يمكن اخفائها، لذلك لاحظها العرب عند بداية احتكاكهم بهم، وقد أشار كثير من المؤلفين العرب إلى ذلك منهم البلاذري[4] إذ يقول عنهم: "إنهم أهل بادية وأصحاب إبل".

---

(١) صورة الأرض ص ٥٧

(٢) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٢٣

(٣) روبرت بيرج : المجاى / البجة و الفراعنة، ترجمة: محمد جعفر أبو بكر مقال منشور بتاريخ ٩ يوليو ٢٠٠٧م بموقع (www: sudaneseonline.com)

(٤) فتوح البلدان ص ٢٤٠

وكذلك الطبري[1] قال: "إنهم قوم أهل بدو وأصحاب إبل وماشية"، أما الاصطخري[2] فقال عنهم: "ليس لهم قرى ولا خصب فيه غذاء، إنما هم بادية لهم نجب".

أما المقريزي فتطابق بقوله ــ نقلا عن ابن سليم الأسواني ــ مع سابقيه ، ولكنه أضاف كيفية المسكن للراعي فيذكر: " إنهم بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعي بأخبية من جلود"[3]، أما ابن حوقل فجاء بصورة تفصيلية عن البجة الرعويين فيذكر قائلا: "إنهم أصحاب أخبية شعر .... وأنهم بادية أغنام متوغلون في الجبال والآجام في عدد لا يحاط به"[4]، وفي موضع آخر يذكر كيف يتنقل أولئك البجة الرعاة إلى أماكن سقوط المطر بحثا عن المراعي، فيذكر عن البجة الحداربة" إنهم بدو غير مستقرون، يتنقلون في طول البلاد وعرضها، وتكون بلادهم التي تمطر وتزرع، يقيمون فيها بمواشيهم طولا نحو شهرين، وتمتد من النيل إلى البحر الأحمر، فيقضون شتاهم قرب ساحل البحر، والصيف في بطون الأودية، والخريف جهة الغرب قرب النيل، وغير هؤلاء البجة يقيم آخرون في بعض المناطق التي يسقط فيها المطر أيضاً وهي مناطق تقع في إقليم تفلين وسط وادي دجن (الجاش)"[5].

ومن الملحوظ من إشارة المؤلفين العرب من كون البجة رعاة، أشاروا إلى كيف حاول أولئك الرعاة من توفير البيئة المناسبة لحيواناتهم، وكان هذا من خلال التنقل والترحال إلى المناطق المطيرة، التي ساهمت بدورها في أن توفر الكمية المناسبة من المشرب والمأكل من الأعشاب والنباتات لإطعام حيواناتهم، وإنما جلّ إهتمام أولئك الرعاة بهذه الحيوانات ورعايتها لأنها مصدر طعامهم الذي اعتمدوا عليه في هذه الصحراوات القاحلة، وقد أشار إلى طعامهم هذا ابن حوقل فقال: "وطعامهم الذي يأكلونه اللحم واللبن"[6].

وبما ن حياة الراعي اختلفت عن غيره، واعتمدت على التنقل وعدم الاستقرار، كان حتما عليه أن تقضي حياته بان يكون المسكن خفيف يسهل نقله وبناؤه، فقد كان يصنع كما أشار المؤلفين العرب إما من شعر أو جلد.

وبما أن الزراعة كان لها أثرها في إقتناء الحيوانات التي تتناسب معها فأشار المؤلفون العرب من حديثهم، إن للرعي أثره في اقتناء الحيوانات التي تتناسب مع هذة الحرفة من تنقل وترحال وقلة الأعشاب والمياه في بعض الأحيان، ولا يمكن الحصول عليها إلا بقطع المسافات البعيدة، في مسالك وعرة في الجبال والفيافي الواسعة في الصحراء، ولا يتناسب مع هذه البيئة غير حيوان له مميزات يتناسب معها. إلا وهو الإبل فقد إتفقت إشارة المؤلفين العرب على مدى عصورهم من اقتناء البجة الرعويين للإبل، وإن ذكر بعضهم أنهم امتلكوا بعض القطعان الأخرى من الماشية و الغنم والماعز. ويمكن لنا عرض هذه من خلال النقطة التالية.

---

(١) المواعظ و الاعتبار ج١ ص ١٩٤
(٢) تاريخ الرسل و الملوك ج٩ ص ٢٠٣
(٣) المسالك و الممالك ص٤٢
(٤) صورة الأرض ص ٥٠
(٥) صورة الأرض ص ٥٧
(٦) صورة الأرض ص ٥٦

ب - الثروة الحيوانية:

بما أن البجة شعب موطد الأسس بالحياة الرعوية، كان الركن الأساسي والعنصر المهيمن هو امتلاك القطعان الضخمة من الحيوانات، وكانت الإبل في المرتبة الأولى ثم يليها الغنم والماعز والماشية، وبما أن الإبل كان أهمها، وليست القطعان الأخرى سوى أجزاء متممة للثروة الحيوانية، ولا وجه مقارنة بينها وبين الإبل في الأهمية عند البجة.

ومن المؤكد أن دخول الإبل إلى أفريقيا كان عن طريق سيناء، وقد ظهرت له في مصر بقايا ضمن آثار الأسرة الأولى (التاسعة والعشرين)، ومع ذلك فانه لم يستخدم بكثرة إلا في العهد الروماني، والجدير بالذكر إن دخوله إلى السودان كان من ناحية الشمال عن طريق مصر، ويرى الباحثون أن وقت دخوله السودان كان في القرن الرابع قبل الميلاد، وقد لوحظ ذلك في أثر كتابي في آثار دولة أكسوم، لكن بعض الباحثين يرون أن دخوله في الواقع واستخدامه كان في تاريخ سابق لسنة ٢٥ ق. م ، لأن المقبرة التي عثر فيها على تمثال برونزي للجمل كانت لحاكم تولى الحكم في دولة مروى فيما بين سنة ٢٥ - ١٥ ق. م ، وافتراض دخوله السودان في عهد مملكة مروى معقول للغاية، خصوصا وأنه لم يستخدم في مصر على نطاق واسع إلا بعد انقضاء الحكم الفارسي في عام ٣٣٦ق. م[١].

وإن كان الوقت الذي بدا فية البجة يقتنون الإبل غير معروف، لكن من المحتمل أن الإبل بعدما دخل مصر انتشر في أرجائها حتى تسرب إلى الجنوب، في وقت كان فيه البجة قد عرفوا كيف يربون الماشية وإن كانت من أنواع أخرى، ولابد أنهم قد أدركو ما للإبل من فائدة فأقبلوا على تربيتها في عناية فائقة، وإن كنا لا ندري متى بدأ البجة يربون الإبل، لكن براعتهم فيها اليوم تدل على أن عهدهم بها ليس حديثا[٢]، ومن الجائز أن البجة عندما بدءوا يقتنون الإبل قد عرفوا بعض القواعد الأساسية لتربيتها من الجماعات التي أخذوا عنها هذا النوع الجديد من الحيوان، ولكن لا شك أنهم زادوا كثيرا على ما تعلموه وتخصصوا في تربيتها على طريقتهم وأساليبهم حتى أصبحت نوعا مميزا خاص بهم ينسب إليهم[٣].

لذلك قد نشاهد كثير من إشارة المؤلفين العرب إلى القول بذلك فقد ذكر كل من ياقوت الحموي[٤] والبغدادي[٥] أن لهم إبل فُرهة (حسنة) تنسب إليهم ويقال لها بجاوية.

وبما أن من غير البجة قد لاحظ ما يميز الإبل البجاوية عن غيرها، فلابد أنهم عندما بدءوا يقتنونها أدركو الصفات الأساسية التي تميز بعضها عن بعض، فلا شك أن الإبل السريعة (الهجن) الخفيفة قليلة الشحم سريعة الحركة لاقت عندهم عناية خاصة، لعلها أعظم مما يبذل من العناية بالأنواع الأخرى، فكان ذلك

---

(١) صلاح الدين الشامي: المواني السودانية ص٤٨

(٢) محمد عوض: السلالات و الشعب الأفريقية ص ٢٥٥

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٥٣

(٤) معجم البلدان ج ١ ص ٣٣٩

(٥) مراصد الاطلاع ج ١ ص ١٦٣

من خلال مراقبة النسل، وما إن يولد بكر حتى يُدرب لكي يصبح صالحا للركوب وقطع المسافات الطويلة تبلــغ أحيانا سرعة الخيل[1]، وقد لاحظ العرب ذلك أيضاً، فقد أشار إلى ذلك الاصطخري[2] فيقول: "إن لهم نجب ويقال أن ما في النجب أسير منها"، وقد أشار إلى ذلك أيضاً المقريزي[3] - نقلا عن ابن سليم الأســواني - فيقــول عن الإبل: "أنها سريعة وشديدة العدو، وصبورة على العطش، يسابقون عليها الخيل، ويقاتلون عليهــا وتــدور بهم كما يشاءون، ويقطعون عليها البلاد ويطاردون عليها في الحرب، فيرمي الواحد منهم الحربة فإن وقعــت فى الرمية طار إليها الجمل فأخذها صاحبها، فإن وقعت فى الأرض ضرب الجمل الأرض بجيرانه (باطن العنق) فأخذا صاحبها".

ولا شك أن الدافع الأكبر الذي أخذ بالبجة إلى العناية بالسرعة هو ما لها شأن كبير في الحرب وفي الكر والفر والانقضاض الفجائي على العدو، حيث استخدموها بدلا من الخيل ويقول في ذلك المــسعودي[4]: "تتــصل سراياهم ومناسرهم على النجب فيغيرون ويسبون".

وبما أن الإبل البجاوية كان لها ما يميزها عن غيرها من الأنواع الأخرى، جعل هذا الأخرين إلى التطلــع على الحصول عليها، ومن بينهم العرب، رغم اقتنائهم للإبل كان أسبق من البجة، إلا أنهم من المحتمل تطلعــوا إلى الحصول على هذه الأنواع الجيدة، فيبدو أنهم لاحظوها في أول احتكاك فعلى بينهم وبين البجة الــذى كــان في عام ١٠٧ هــ / ٧٣٥م[5] لذلك بعد توقيع الصلح بينهم وبين البجة جعلوا أن يدفع البجة الخراج من الإبل، ومن الأرجح أن دفع الخراج جعل منها للحصول على هذه الأنواع المميزة من الإبل.

ومن الملحوظ من الأقوال السابقة يتبين لنا أن الإبل السريعة احتلت مكانه ظاهرة في حياة البجة، فكــان لها دورها في النشاط الحربي، وجمع شمل القبيلة من مختلف الأنحاء والأودية المنعزلة بشكل ســريع، ولكــن هذا يجب ألا ينسينا أن قوام الحياة الاقتصادية، اعتمد على الأنواع الأخرى من الإبل، وهي الإبل القوية ضخمة السنام - وإن كانت ثقيلة الوزن لما لها من عضلات وبطيئة الحركة - لا يمكن الاستغناء عنها، لأنها تستخدم في الحمل، وتدر الألبان الغزيرة، فتساعد على انتقال العشيرة من موطن إلى آخر. كما كان لهــا دورهــا فــي النشاط التجاري، حيث يؤجرها البجة للنقل في الصحراء[6] وقد لاحظ هذا ابن جبير[7] فذكر عنهم "هم نوع من السودان، ساكنون الجبال، فيكرون (يؤجرون) منهم الجمال".

وإن كانت الإبل عماد الحياة السياسية والاقتصادية والتجارية عند البجة فهذا لا ينسينا أن نغفل القطعان الأخرى التي كان يربيها البجة بجانب الإبل، وهي قطعان كبيرة من الغنم والماعز ويطلقون عليها اسم الماشية الدقيقة، وإلى جانب الإبل والغنم والماعز كان يربي البجة قطعان أخري من البقر، ولكن كان هذا مقتصر على

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٥٣

(٢) المسالك و الممالك ص٤٢

(٣) المواعظ و الاعتبار ج١ ص ١٩٤

(٤) مروج الذهب ج ١ ص١٨

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص١٨٩

(٦) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٥٥

(٧) رحلة ابن جبير ص٤٠

المناطق التي يتوافر فيها المراعي فترة طويلة من السنة، وفي المناطق التي تمارس فيها الزراعة[1].

وإلى جانب الحيوانات التي كان يربيها البجة كانوا يربون الحمير التي كانت تستخدم في أعمال الحمل ويذكر عنها الاصطخري[2] إنها أفضل الأنواع فيقول: "أن لهم وراء أسوان حمير صغار في مقدار الكباش ملمعة، تشبه البغال الملمعة، إذا خرجت من موضعها لم تعش، ولهم حمير يقال لها السملاقية بأرض الصعيد".

وصفوة القول أن شعب البجة من الشعوب الرعوية التي حظت بتنوع ملحوظ في الثروة الحيوانية التي ساعدتها في جوانب الحياة المختلفة، في هذه البيئة القاسية، منذ أقدم العصور. ولابد أن هذه البيئة صارعتهم وصارعوها، حتى سلس لهم في النهاية قيادتها، وطبعتهم بطباعها، حتى أصبحو عنصرا هاما من عناصرها.

ثالثاً: الصناعة

لقد نالت الصناعة في العصور الوسطى حظاً من حياة البجة، ولكنها ليست بالقدر الكافي من الاهتمام، رغم توافر المواد الأولية في بلادهم بمختلف أنواعها آنذاك من معدنية، ونباتية، وحيوانية.

أ – المواد الأولية: وقد نلاحظ وفرة المواد الأولية في هذه البلاد كما يشير إلى ذلك المقريزي – نقلا عن ابن سليم الأسواني – مؤكدا إلى كثرة المعادن الموجودة ببلادهم، وأكثرها الذهب، إضافة إلى وجود معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغناطيس والمرقشيثا والحمست والزمرد، وبجانب المعادن توجد بأوديتهم الأشجار المختلفة كشجر المقل والأهليلج والأذخر والشيح والسنا والحنظل وأشجار أخرى كثيرة كالنخل والكرم والرياحيين، أما عن الحيوانات الموجودة فيها فسائرها من سباع وفيلة ونمور وفهود وقردة وغزلان إضافة إلى الطيور المتنوعة مثل الببغاء والنقيط والنوبيّ والقماريّ ودجاج الحبش وحمام بازين، وهذا بخلاف ما يربيه البجة من جمال ومواشي من بقر وغنم وماعز وكباش[3].

ورغم إشارة المقريزي السابقة عن مدى التنوع الملحوظ في المواد الأولية وتوافرها التي تتيح الفرصة لازدهار مجال أوسع للصناعة، إلا أنه لم تنل الصناعة القدر الكافي من الاهتمام، فما السبب في ذلك؟

من المؤكد أن الحياة البدوية للبجة وما تتطلبه من كثرة التنقل والترحال، لا تساعد نشوء صناعات كبيرة ومتنوعة ورغم ذلك ظهرت مجموعة هامة من الصناعات لا يمكن إغفالها.

ب – أهم الصناعات: نلاحظ أن أهم الصناعة عند البجة اقتصرت على صناعة الأشياء الضرورية للمعيشة، وبما أن الصناعة اتجهت همتها إلى الفائدة العملية دون سواها، فيمكن لنا تقسيمها حسب أغراض ونوع عمل مناطقها وتمثلت في:

١ـ صناعات ضرورية:

وهي صناعات تمثلت في حرف تقدم مصنوعات الأشياء الضرورية للبقاء في هذه البيئة القاسية، وبالطبع اعتمدت مصنوعاتها على توافر المادة الأولية المشتقة من الحيوان والنبات المتواجد بها، وهذه المصنوعات تمثلت في دباغة الجلود وصنع الأوعية الجلدية (القرب) ونسج الصوف والشعر. وكانت تتم

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص ٥٦

(٢) مسالك الممالك ص٤٢

(٣) المواعظ و الاعتبار ج١ ص ١٩٤ – ١٩٥

عمليات دبغ الجلود باستخدام القرظ المشتق من شجر السنط، بعد أن يجف ويوضع في أحواض من الطين، ثم تملىء بالماء، بنسبة قربة ماء لكل رطل قرظ، وفي هذا المحلول يضعون الجلود ثلاثة أيام، ثم يقومون بتغيير الماء، وتكرر هذه العملية ثلاث مرات، ثم تستخرج الجلود بعدها، وتغسل مرارا بالماء، ثم تملىء بالطين وتعلق لكي تجف، ثم تنظف من التراب، وتخاط على شكل مصنوعات جلدية، وقرب تستخدم في نقل الماء وحفظه من مكان إلى آخر، وكانت هذه القرب تعد من أفضل الوسائل لحفظ الماء ونقله، كما كانت تستخدم في حفظ ونقل السمن، ولكن من المؤكد أن هذه الأوعية الخاصة بالسمن كانت في عملية دبغها تعالج بواسطة نباتات أخرى تجعلها أشد اندماجا بحيث لا ينفذ منها السمن(١).

وقد لاحظ ناصر خسرو هذه المصنوعات الجلدية في طريقة للحج عبر بلاد البجة، فأشار إلى قرب الماء التي يقدمها البجة للحجاج المارين ببلادهم، كما أشار إلى نوع آخر من المصنوعات الجلدية تسمى الشفق ويصنع من جلد السمك(٢) أما عن القرب التي استخدمت في نقل السمن واللبن والعسل فيمكن لنا أن نستنبطها من إشارة الإدريسي عنها في عملية التبادل التي كانت تتم بين رعاة البجة وأهل عيذاب(٣) وإذا لاحظنا استخدام دباغة الجلود في صناعة الأوعية لنقل وحفظ الماء والغذاء، يمكن لنا أن نلاحظ استخدامها في إقامة المسكن، وقد أشار إلى ذلك اليعقوبي(٤) في حديثه عن مساكن أهل البجة بقوله: "إن البجة ينزلون خيام جلود" وقد أكد هذا القول المقريزي في حديثه عن مسكنهم أيضاً "يقومون في أخبية من جلود"(٥) وبجانب استخدام الجلد في إقامة المسكن استخدموا الصوف وقد لاحظ هذا ابن حوقل(٦) فأشار إلى أن البجة "أصحاب أخبية شعر"، ومن المؤكد أن صوف الغنم وشعر الماعز استخدام في مصنوعات أخرى بخلاف المسكن بعد نسجه وخياطته كالملابس والغطاء.

وفي آخر الحديث عن المصنوعات الضرورية، نلاحظ كيف استعان البجة بما أتيح لهم من مواد أولية متوفرة في بيئتهم في صناعة مصنوعات تتناسب مع عناصر الحياة الأساسية من مشرب ومأكل وملبس ومسكن.

٢ – الصناعات الحربية:

من المؤكد أن الأعمال الحربية التي كان يقوم بها البجة في العصور الوسطى وتغلغلها في أنفسهم، أن تنال نصيبا من الصناعات القائمة آنذاك، فقاموا بصناعة الأسلحة التي تتناسب مع أساليبهم القتالية واهتموا بها، وقد أشار المقريزي إلى هذه الأسلحة وكيفية صناعتها، فذكر من أهمها صناعة سلاح يعرف بالحراب

---

(١) محمد عوض : السودان الشمالي ص ٦٠

(٢) سفر نامة ص١٣٢ – ١٣٥

(٣) نزهة المشتاق ج١ ص١٣٥

(٤) البلدان ص ٣٣٦

(٥) المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٤

(٦) صورة الأرض ص ٥٠

السباعية، ويقدر طولها سبعة أذرع، تبلغ حديدتها ثلاثة أذرع وهي في عرض السيف، وعودها يبلغ أربعة أذرع لذلك سميت سباعية، وفي آخرها شبيها بالفلكة، حتى تمنع خروجها من أيديهم، وأشار إلا أن القائم بصناعة هذه الحراب نساء يقمن في موضع خاص لهن، ولا يختلط بهن الرجال إلا المشتري منهن. وإضافة إلى صناعة الحراب السباعية كانت تصنع الدروق وكانوا يستخدمون جلود البقر في صناعتها، ودروق أخرى تعرف بالأكسومية والدهلكية، كما كانوا يصنعون القسي الكبيرة، ويعدون لها نبل مسموم إذا أصاب الإنسان قتله لوقته[1].

٣ - الصناعات الاقتصادية:

لقد حازت الصناعات والحرف الاقتصادية دون غيرها على أكبر قدر من نشاط الأعمال الصناعية وذلك لارتباط هذه الصناعات بنشاط الحركة التجارية التي تميزت بها هذه المنطقة في العصور الوسطى وتمثلت في حرف استخراج المعادن والأحجار الكريمة، وصناعات الخدمات التجارية.

أ - حرف استخراج المعادن والأحجار الكريمة: لقد كانت هذه الحرف من أهم الأعمال التي اشتهرت بها بلاد البجة من قديم الزمن، كما ساهمت في تفعيل دور هذه المنطقة على مختلف العصور وجوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكان أهمهما استخراج معادن الذهب والزمرد واللؤلؤ.

١ - استخراج الذهب: يعد من أهم وأقدم الحرف التي كانت قائمة في بلاد البجة خاصة لأن بلادهم اشتهرت بوجود كميات كبيرة منه في أرضها، فقد دل التاريخ على أن فراعنة النيل هم أول من تطلع للحصول على هذا المعدن، فقاموا بإرسال حملاتهم الحربية لجلبه، كما قاموا بإجبار أهاليه من شعوب البجة بالعمل في مناجمه وقد أشار إلى ذلك المقريزي بقوله: "كانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحيانا لحاجتهم إلى المعدن"[2] وقد أثبتت الأبحاث على أن الفراعنة قاموا باستغلال مناجم الذهب لتلك البلاد، فقد عثر على أقدم خريطة في العالم يرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٠ ق . م قد صور عليها أقدم مصور جغرافي عن مناطق استخراج الذهب بوادي العلاقي من أرض البجة، وكان أهم هذه المناجم هي المسماة (دارهيب)[3].

واستمر استغلال هذه المناجم حتى عهد البطالمة والرومان من بعدهم، وقد ظل الرومان يستخرجون الذهب من بلاد البجة حتى بعد الفتح العربي لمصر وقد ذكر ذلك المقريزي قائلا: "إن الروم لما ملكوا مصر كان لهم في المعادن آثار مشهورة وكان أصحابهم بها وقد فتحت مصر"[4]، ولما نزح العرب إلى بلاد البجة وقد شاهد بعضهم استمرار وجود معدن الذهب بالعلاقي، آثروا البقاء للعمل فيه، ولم يعودوا إلى صحبة الجيوش العربية.

---

(١) المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٤
(٢) المواعظ و الاعتبار ج١ ص ١٩٥
(٣) عطية القوصي دولة الكنوز ص ١١٣
(٤) المواعظ و الاعتبار ج١ ص ١٩٥

وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل بعدما عاينوا التبر وآثار العمل فيه للروم[1]. وظل استخراج الذهب طيلة العصور الوسطى، حتى نضبت مناجمه في عهد العاضد، آخر خلفاء الفاطميين، ومنذ ذلك الوقت تقريبا بدأ يتوقف استخراج الذهب[2].

وبالرغم من طول الفترة الزمنية لاستخراج معدن الذهب من بلاد البجة وقدم عهدها به، ذهب بعض المؤلفين مثل المقريزي إلى أن البجة لم تتعرض للعمل بحرفة استخراج الذهب[3].

ومن المؤكد أن هذا القول لا ينطبق على جميع البجة، لأن إشارة اليعقوبي عن البجة التي تقيم بالعلاقي وما حوله تؤكد عملهم بهذه الحرفة فقد أشار إلى أن الذهب الموجود بالعلاقي وما حوله، يعمل في استخراجه كل الناس من تجار (عرب) وغير تجار عبيد سودان (البجة)[4] ويتضح لنا من هذه الإشارة أن البجة التي لا تعمل في استخراج الذهب ربما هم خارج منطقة العلاقي وما حوله، أو احترفوا حرف أخرى كالرعي أو الزراعة.

وكما أضاف في حديثه موضحا ومحددا أماكن هذه المناجم قائلا: فمن أراد الذهب خرج من أسوان إلى موضع يقال له الضيقة بين جبلين ثم البويب، ثم البيضية، ثم بيت ابن زيادة، ثم عذيفر، ثم الجبل الأحمر ثم جبل البياض، ثم قبر أبي مسعود، ثم عفار، ثم وادي العلاقي، وكل هذه المواضع هي مناجم للذهب يقصدها طلابه، ثم أضاف في حديثه أماكن المناجم الأخرى وهي التي كانت حول وادي العلاقي، وذكر أولها موضع يعرف بوادي الجبل وهو يبعد عن العلاقي بمرحلة، وموضع يعرف بعتب، وموضع آخر يعرف بكنار، وآخر يعرف ببطن واح وبينه وبين العلاقي مرحلة، ثم موضع آخر يعرف بأعماد والوصول إليه من العلاقي مرحلتان، وموضع يعرف بماء الصخرة ومسافته من العلاقي مرحلة، أما موضع الأخشاب فمسافته مرحلتان، وميزاب أربع مراحل، وعربة بطحا مرحلتان، أما آخر هذه المواضع وأبعدها مسافة موضع يعرف ببركان ومسافته من العلاقي ثلاثين مرحلة، أما عن المواضع المتوسطه المسافة فهي دح والسنطة والرفق وسختيت ومسافة الوصول إليها من العلاقي عشرة مراحل[5] ومن خلال إشارة اليعقوبي عن مناطق استخراج الذهب نلاحظ مدى تعددها وكثرتها في بلاد البجة، كما نلاحظ أن وادي العلاقي كان يمثل مركزا هاما لتجميع الذهب من جميع المناطق الأخرى، حتى صار أكبر سوقا يتبادل فيه التجار بيع وشراء الذهب.

---

(١) صورة الأرض ص ٥٣

(٢) ابن بعرة: كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبد الرحمن فهمي، القاهرة ١٩٦٦، ص٣٩
(ذكر أن أول جمعة من شهر محرم عام ٥٦٧ هـ هو تاريخ سقوط الدولة الفاطمية، وذلك حين أصدر نور الدين أمراً لقائده صلاح الدين بمصر بقطع الخطبة للخليفة العاضد، فصعد صلاح الدين في هذا التاريخ إلى المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة المستضيء العباسي، وأمر في الخطب التالية بالدعاء له وعدم ذكر العاضد، وفي العاشر من محرم عام ٥٦٧ هـ توفي العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وهكذا انتهت الدولة الفاطمية وزال المذهب الشيعي بمصر – ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٤٩)

(٣) المواعظ و الاعتبار ج١ ص ١٩٥

(٤) البلدان ص ٣٣٤

(٥) البلدان ص ٣٣٥

أما عن طريق استخراجه فقد ذكرها كل من الإدريسي[١] وابن الوردي[٢] قائلين: إن طلابه كانوا يذهبون إلى صحراء رملية وسباسب سيالة، يتجولون فيها ليلا في أوائل الشهر العربي وآخره (عندما يضعف ضوء القمر) فينظر كل شخص أمامه في الأرض، فإذا أبصر التبر يضئ، وضع على موضعه علامته، ثم يبيتون جميعا، وفي الصباح يحمل كل شخص أكوام الرمل التي علمها بعلامته، ثم يذهبوا بها إلى أبار هناك ليغسلوها في أوعية خشبية، وبعد استخراج التبر يمزج بالزئبق ويسبك. ولم تكن هذه الطريقة هي الوحيدة التي يتم بها استخراج الذهب بل كان آخرون يقومون بالحفر، ويخرجون الذهب من مناجمه كالزرنيخ الأصفر، بعد ذلك يسبكونه[٣].

٢- <u>استخراج الزمرد:</u> أو ما سماه بعض المؤلفين العرب الزبرجد[٤] ويعد من أهم وأثمن المعادن التي استخرجت من أرض البجة، ويرجع شغف استخراجه والاهتمام في الحصول عليه إلى الزمن القديم فقد عرف المصريين القدماء مناجم استخراجه، وذكروا أنها بالصحراء الشرقية في المناطق المتاخمة لأعلى الوجه القبلي، أما في عهد اليونان فلم تقل أهمية استخراجه بدليل ما ذكره بعض مؤلفيهم عن تحديد مواقعة في تلال البحر على نفس خط عرض أسوان[٥].

والجدير بالذكر هنا، أن مناجم الزمرد لا تتجاوز بلاد البجة. وبعبارة أخرى أن الزمرد لا يوجد إلا في مرتفعات البحر الأحمر في بلاد البجة، وهذا ما اجتمع على ذكره قول المؤلفين العرب منهم اليعقوبي[٦] والاصطخري[٧] وابن حوقل[٨] والهمداني[٩].

---

(١) نزهة المشتاق ج١ ص ٤٦

(٢) خريدة العجائب ص ٤٨

(٣) البلدان ص ٣٣٤

(٤) أطلق بعض المؤلفين العرب اسم الزبرجد على معدن الزمرد منهم

- الاصطخري: مسالك الممالك ص٥١
- ابن حوقل: صورة الأرض ص١٥٠
- الهمداني: البلدان ص ٧٨
- إلا أن التيفاشي: ذكر في كتابه أزهار الأفكار في جوهر الأحجار، نشر أنطونيو رانيري، فرنسا ١٨١٨ م، ص١٧ يفرق بين الزمرد و الزبرجد، فيذكر أن الزبرجد يتكون في موضع الزمرد، ويوجد معه إلا أنه أقل وجوداً من الزمرد، ويذكر أن الزبرجد يتكون من مكونات الزمرد سواء بسواء وكأنه نوع منه ابتداء ليكون زمرداً، ثم قصر عنه في كيانه بسبب الأعراض الداخلة عليه من قبل الطبخ ونقص الحرارة فنقص لونه عنه)
- ويذكر ابن الأكفاني في كتابه نخب الذخائر في أحوال الجواهر، تحقيق أنستاس ماري الكرملي، القاهرة ١٩٣٩ م ص٥٣ (ذكر أن الزبرجد صنف واحد، فستقي اللون، شفاف، لكنه سريع الانطفاء لرخاوته، وهذا بخلاف الزمرد الأخضر اللون وله أربعة أصناف هما الذبابي و الريحاني و السلقي و الصابوني)

(٥) محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى ط ٢ ١٩٩٦م ص ١١٠

(٦) البلدان ص ٣٣٣

(٧) مسالك الممالك ص ٥١

(٨) صورة الأرض ص ١٥٠

(٩) مختصر البلدان ص ٧٨

واتفق معهم أيضاً البيروني[1] وياقوت[2] والتيفاشي[3] والإدريسي[4] والحميري[5] والعمري[6] وابن الأكفاني[7] والمقريزي [8].

وجاء في مجمل قولهم: أن مناجم معدن الزمرد تقع في برية منقطعة عن العمارة، في مرتفعات البحر الأحمر عند جنوب الصعيد، على حدود مصر والنوبة من أرض البجة، وهذه هي المنطقة الوحيدة في العالم التي يوجد بها هذا المعدن.

أما أماكن تواجده في أرض البجة على وجه التحديد فذكر في عدة مواقع، فذكر منها اليعقوبي، أن الزمرد يوجد في مكان يعرف بخربة الملك وهو على ثمان مراحل من مدينة قفط، وفيه جبلان يقال لأحدهما العُروس وللآخر الخُصوم يوجد بهما معدن الزمرد، وفي هذا المكان أيضاً يوجد مواضع أخرى للزمرد يقال لها كوم الصابوني، وكوم مهران، ومكابر، وسفسيد، وكانت تعرف مناجم هذه الأماكن باسم شيم مفردها شيمة[9]

أما ابن حوقل[10] فقد حدد مواضع مناجمة في المنطقة الممتدة ما بين جزائر بني حدان إلى نواحي عيذاب، أما ابن الأكفاني فذكر أن موضعه على سفح الجبل في مكان يعرف بشندة من أرض البجة[11] وهذا المكان هو الذي ذكره العمري باسم قرشندة، وأضاف إلا أن الماء يبعد عنه بمسافة نصف يوم أو يزيد[12]، وكل هذه الأماكن تحديدا توجد عند جبل يعرف الآن باسم (زبارا) على البحر الأحمر، وفي صحراء العتباي[13]،

---

(١) الجماهر في معرفة الجواهر، حيدر أباد بالهند عام ١٣٥٥هـ، ط١، ص ١٦٢

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٥

(٣) أزهار الأفكار في جوهر الأحجار ص ١٣

(٤) نزهة المشتاق ج ١ ص٢٢

(٥) الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٨٤ م ص ٥٨

(٦) مسالك الإبصار ص ٧٨

(٧) نخب الذخائر في أحوال الجواهر ص ٤٩

(٨) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٣٢

(٩) البلدان ص ٣٣٣

- أما ياقوت الحموي: في كتابه معجم البلدان ج ٢ ص ٣٣٥، خربة الملك (اتفق مع اليعقوبي على أن هذا المكان موضع الزمرد مطابقاً لما وصفه، ولكنه اختلف معه في تحديد المسافة بين قفط وخربة الملك وذكرها على بعد ست مراحل، وهذا لا يمثل خلاف لأن تقدير طول وقصر المسافات اعتمد عندهم على المرحلة وهي يوم من السير وهذا لا يعتبر مقدار قياس مسافات ثابت لأنه سفر فله ما يعوق ويؤدي إلى طول المسافة وما ييسره ويؤدي إلى قصر المسافة. وأما الخلاف الآخر فجاء في تغيير بعض أسماء المواضع التي ذكرها فذكر اسم (بكابو) على موضع (مكابر) أوارده عند اليعقوبي، واسم (سقيد) على موضع (سفسيد) وهذا التغيير جائز أيضاً في تحريف أسماء المواضع فطول الفترات الزمنية على الأماكن والبلدان تحرف الأسماء، وقد يكون هذا مرجعه النقل)

(١٠) صورة الأرض ص ١٥٠

(١١) نخب الذخائر ص ٤٩

(١٢) مسالك الإبصار ص ٧٨

(١٣) عطية القوصي ص١١٦

وفي جميع هذه الأماكن وحولها ذكر العمري أن البجة كانت تقوم فيها للقيام بعمليات الحفر لاستخراجه وحفظه[1].

أما طريقة استخراجه فكان يبحث عنه في مغارات مظلمة كان يدخل إليها بالمصابيح وبالحبال يستدل بها على الرجوع خوفا من الضلال، ويحفر عليه بالمعاول فيوجد في وسط الحجارة[2] وأول ما يظهر منه شئ يسمونه الطلق، وهو ثلاثة أنواع طلق كافوري (أبيض) وآخر فضي، وأخر حروي (أسود)[3]

ثم يستمر الحفر فتوجد تربة حمراء لينة مشتملة عليه، وما يوجد في هذا التراب يسمي فصوصا، أما ما يوجد في طبقات من الحجر يعرف باسم قصبا[4] وهذه الأقصاب هي خرز مستطيلة ذات خمسة أسطح، وبعدها يوضع في زيت حار مصنوع من بزر الكتان[5] ثم يوضع بعدها في قطن، ثم يلف هذا القطن بقطع من القماش الخام لحفظه[6].

أما أنواعه المستخرجة منه فيذكر البيروني إنها أربعة أنواع، أجودها وأعلاها ثمنا النوع الذي يعرف باسم (المر) وهو شديد الخضرة، ويأتي بعده نوع ثاني يعرف باسم (البحري)، ونوع ثالث يعرف باسم (المغربي)، أما أدنى هذه الأنواع الأربعة وأقلها ثمنا نوع يعرف باسم (أصم)[7]. بينما ذكر التيفاشي أن أجود أنواع الزمرد يعرف باسم (الذبابي) وهو أفضل الأنواع في جميع الخواص، وهو أخضر مغلوق اللون، ولا يشوب خضرته شئ آخر من الألوان، ونوع آخر يعرف باسم (الريحاني) ولونه مفتوح كورق الريحان، ونوع آخر يعرف باسم (السلقي) ولونه كلون السلق، أما أداني أنواعه فهو ما يعرف باسم (الصابوني) وهو كلون الصابون[8].

وحظي الزمرد وأصنافه بقيمة كابرت المال والذهب كما ذكر ياقوت الحموى أن القطعة منه بلغت ألف درهم[9] وذكر البيروني[10] والتيفاشي[11] أنه أكثر من هذا. ويبدو أنه حصل على هذه القيمة لما كان شائع عنه في العصور الوسطى بأنه يضفي على الفرد سلامة الجسم والعقل فيفسد السم، يشفي لدغات الأفاعي والعقارب، ومن إصابة مرض الجذام، ويقطع الإسهال المزمن، ونفث الدم، ويقوي المعدة، وينفع المصاب بمرض الصرع، وإمساكه في الفم يقوي الأسنان، ويسرع الولادة، والنظر إليه يجلو البصر ويقوية[12].

---

(١) مسالك الإبصار ص ٧٨

(٢) المقريزى المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ٢٣٢

(٣) العمرى: مسالك الإبصار ص ٧٩

(٤) التيفاشي : أزهار الأفكار ص ١٣

(٥) الأكفاني : نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ص ٥٠

(٦) العمرى : مسالك الإبصار ص ٧٩

(٧) الجماهر فى معرفة الجواهر ص ١٦١

(٨) أزهار الأفكار ص ١٣- ١٤

(٩) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٥

(١٠) الجماهر فى معرفة الجواهر ص ١٦٣

(١١) أزهار الأفكار ص ١٥-١٦

(١٢) ابن الأكفاني : نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ص ٥٢

وظل يستخرج هذا المعدن من بلاد البجة، حتى أبطل العمل في استخراجه أيام السلطان الناصر بن قلاوون في سنة بضع وستين وسبعمائة، بعد أن أنهكت مناجمها، ونضب معينها، وغطتها الرمال[1].

٣ – استخراج اللؤلؤ: وقد أشار ابن جبير أن مكان استخراجه يكون بالقرب من جزائر على مقربة من عيذاب في البحر الأحمر، أما ميعاد استخراجه فيكون في شهري يونيو ويوليو، أما طريقة استخراجه، فكان يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر في زوارق صغيرة، ويقيمون في تلك الزوارق عدة أيام يوالون الغوص بها على اللؤلؤ، ثم يعودوا بما عثروا عليه من اللؤلؤ كل حسب حظه من الرزق والعمل[2]

ب – صناعات الخدمات التجارية:

وهي صناعات تمثلت في صناعة الوسائل النقلية التي تساهم في نشاط الحركة التجارية وتيسيرها، وبما أنها ارتبطت بالنشاط التجاري، فكان لابد أن تمارس في المراكز التجارية النشطة، وأنشط هذه المراكز كما ذكرنا هي عيذاب، ولذلك مارست هذه النوع من الصناعات.

وكانت أهم هذه الصناعات وأكبرها هي صناعة الجلاب وهي سفن كان يتخذها أهل عيذاب لنقل التجارة والحجاج عبر البحر الأحمر، وكانوا يصنعونها بأنفسهم، ولا يستعملون فيها المسامير، وكانت تصنع من قشر جوز النارجيل (جوز الهند)، حيث كانوا يدلكونه حتى تنحل عنه أجزاءه، ثم يفتل ويصف، ويضم بعدها بحبال من ليف النخل، وفي النهاية وبعد إن يصبح شكلها كالسفينة، تسقي بالسمن أو بدهن الخروع أو دهن الحوت، ويؤدي هذا إلى أن يجعل مكوناتها النباتية رطبة، وكان غرضهم من هذا الدهن وعدم استعمال المسامير فيها هو أن تجتاز الشعاب المرجانية دون أن تتعرض لضرر، وبعد ذلك يعدون لها أشرعة تنسج من خوص شجر المقل[3].

٤ – صناعات الزينة والتجميل:

سبق لنا أن ذكرنا أن الصناعة عند البجة اتجهت إلى الفائدة العملية دون سواها. ورغم هذا فكان لابد أن يكون للطابع البشري أثره فيها، ولا يخلوا الأمر في ذلك من بعض العناية بالزينة والتجميل. وكانت أهم هذه الصناعات هي صناعة العطور والأمشاط والمنسوجات، وكان أكثر صانعي هذه الأشياء هم أهل باضع الذين اشتهروا بها، ومن المؤكد أن هذه الصناعات حازت على زيادة في الإتقان والتفنن فيها، مما جعلها مطلوبة على مستوى التجارة الخارجية، فكانت تصدر إلى بلاد الحبشة وغيرها[4]

وصفوة القول أن شعوب البجة من الشعوب التي مارست بعض الحرف التي لاقت رواجاً تجاريا، حيث كانت منتجاتهم لا تطلب على المستوى المحلي والإقليمي فحسب، بل كانت مطلوبة على المستوى العالمي أيضاً، فدائماً ما كانت تنقل هذه المنتجات إلى الهند واليمن والمغرب وأوربا.

---

(١) المقريزى المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ٢٣٢

(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٠

(٣) ابن جبير رحلته ص ٤١

(٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان.

رابعاً : التجـــــارة

لقد شهدت بلاد البجة نشاطا بارزا في النشاط التجاري في العصور الوسطى، فقد تكاثفت عليها ظـروف عدة جعلتها تتبوأ مكانه مرموقه في التجارة، منها الموقع الملائم، فهي تتآخم لحـدود مـصر وبـلاد النوبـة والحبشة، إضافة إلى إنها حازت على الجزء الأهم من البحر الأحمر، الذي ساهم بدوره في ربط تجارة الـبلاد المتاخمة لحدودها، بتجارة العالم الخارجي، وادي هذا بدوره إلى أن جعل هـذه المنطقـة مـن أهـم المراكـز التجارية، والتي ساهمت بدورها في إنشاء تجارة داخلية بها من أسواق وسلع تجارية.

ومن المؤكد أن بلاد البجة لم تشهد النشاط التجاري ورواجه في العصور الوسطى فحسب، بل إن هـذه المنطقة ارتبطت بالنشاط التجاري منذ زمن غارق في القدم، فمنذ زمن فراعنة النيل شـهدت هـذه المـواطن نشاطهم التجاري فيها، لأنها كانت تمثل حلقة الوصل بين نشاطهم التجاري في البحر الأحمـر ونهـر النيـل، ويشهد تاريخهم التجاري على ذلك فيذكر أن في عهد (رعمسيس) عندما بنى أسطولا بحريا بغرض التجـارة في البحر الأحمر، انشأ طريقا بريا بين القصير وقفط لتسهيل التجارة بين مصر والشرق الأقصى[١] إضافة إلـى إنشاء المراكز الداخلية بهدف استخراج الذهب من هذه المواطن، ومن المرجح أنهـم قـاموا بإنـشاء مراكـز تجارية بهدف الحصول على هذا المعدن، ولعل الآثار المتواجدة في هذه المناجم إلى الآن شاهده على ذلك فيما بين مسمار وسنكات من أرض البجة[٢]

وفي عهد البطالمة اليونان في مصر، لم تقل أهمية أرض البجة عندهم، بل كانت تمثل أهم المشروعات التجارية آنذاك، وكان ذلك سعيا وراء الحصول على السلع والمنتجات السودانية، لذلك قاموا بإنشاء العديد من المراكز التجارية على ساحل منطقة البجة، وقد ظن الجغرافيين أن هذه المراكز كانـت محـصورة فيمـا بـين برنيس شمالا إلى الخليج الذي تقع عليه ميناء مصوع الحالية جنوبا، وكانت من تلك المراكز البطلمية على هذا الساحل ميناء (بورت سوتريا) والتي عرفت أيضاً باسم (ثيرون سوتيرون) وقد حدد الجغرافيين موقعها بأنـه الموقع الذي تقوم عنده ميناء (بور سودان) الحالية، وقد ذكر اسم موقع آخر كان يعرف باسم ميناء (لـيمن إيفانجلز) وقد حاولوا أيضاً الربط بينها وبين موقع سواكن الحالية، كما ذكر المزيد من المراكز البطلمية فـي هذه المنطقة مثل ميناء (سواتراس ليمن) و(بطليموس ثيرون)[٣] غير أن ميناء (بطليموس ثيـرون) كانـت في مقدمة تلك المراكز جميعا، وأكثرها قيمة على هذا الساحل، وهي التي أسست في عهد الإمبراطور اليونـاني (بطليموس فيلادلفيوس) على يد قائده (أيمدس)، وقد اتفقت الأدلة على أن هذا الموقع كان قائماً في منطقة عقيق الحالية من أرض البجة[٤].

---

(١) جورجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٢١٤

- رعمسيس: هو الملك سيتي الأول، أحد ملوك أسرة الرعامسة، وهي الأسرة التاسعة عشر (١٢٩٥ – ١١٨٨ق.م) وهو ابـن الملك رمسيس الأول الذي عرف باسم رعمسسو الذي نسبت إليه الأسرة، كما أنه والد الملك المشهور رمسيس الثاني، واستمر هذا الملك في حكم مصر لمدة خمس عشر عاماً في الفترة من (١٢٩٤ – ١٢٩٧ ق.م). (نيوقولا جريمال: تاريخ مصر القديمة ص٣٢٨ – ٣٢١).

(٢) محمد عوض : الشعوب والسلالات الأفريقية ص ٢٥٦

(٣) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٢٨ ، ٢٩

(٤) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٣٨

وبما أن ساحل منطقة البجة أصبح منطقة تجارية وذلك لما كان للبطالمة من نشاط فيها، كان لابد عليهم من الاستعانة بسكان الظهير – وهم البجة – للقيام بالحركة التجارية ونقل المتاجر عبر أوطانهم. ولكن لما كان للبجة من طبيعة النفور من كل غريب يطأ بلادهم آنذاك، كان من الضروري أن يلجأ البطالمة إلى الاستعانة بالعناصر الأخرى الموجودة على الساحل، وكان أهم هذه العناصر على الإطلاق هم العرب وذلك لمعرفتهم بشئون الصحراء. ومن الراجح أنه أتيح لهذه العناصر العربية للقيام بهذا العمل، وخاصة قبيلة "بلي". ومن المحتمل أن هذا العمل التجاري تميز باختراق بلاد البجة حتى أتيح لهم الاختلاط بهم ولا سيما الشماليين منهم، وتم لهم السيطرة عليهم حتى غدت هذه القبائل تعرف عند اليونان ومن بعدهم الرومان باسم البليميين[١].

ويتضح لنا من القول السابق كيف شهدت بلاد البجة نشاطا تجاريا من العرب القدامى أيضاً، وهذا يؤكد لنا أن النشاط التجاري للعرب في بلاد البجة لم يكن خلال العصور الوسطى فقط، فقد كان هذا النشاط سابقاً لنشاط البطالمة في هذه المنطقة، وخاصة أن الساحل الأفريقي قد شهد هجرات قديمة للعرب بغرض التجارة قبل الوقت الذي سيطر فيه البطالمة على الساحل[٢].

وفي عهد الدولة الرومانية في مصر، ظلت الموانئ البطلمية قائمة، ولكن أهميتها أخذت تتناقص بالتدريج، لأن أهدافهم التجارية كانت أوسع مدى وأكثر انتشاراً، فلم يكن البحر الأحمر بالنسبة لهم سوى طريق إلى المحيط الهندي، لذلك لم يكونوا حريصين على التجارة التي يجمعوها من هذه الموانئ السودانية[٣].

وهذا لا يعني أن الحركة التجارية في بلاد البجة قد توقفت، لأن في ذلك العصر كانت دولة أكسوم في شمال الهضبة الحبشية قد نمت وقويت شوكتها، وبذلك ساهمت بدورها في تنشيط الحركة التجارية في المنطقة الجنوبية من بلاد البجة، عن طريق إنشاء الطرق فيها وما يصاحبها من مراكز تجارية، فقد كانت تمثل صلة الربط بين تجارتها والعالم الخارجي، فأنشأت عدة طرق فيها كان أهمها طريق يمر من سهول كسلا في دلتا القاش، بعد ما يهبط من المنحدرات الحبشية الشمالية ويتجة غربا عابرا سهل البطانة حتى يصل إلى النيل[٤].

وربما أن مرور التجارة في بلاد البجة أمرا لم يكن بالسهل، وهذا بدليل ما ورد على النقوش الأكسومية التي خلفها ملوك أكسوم منذ القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد، والتي تسجل انتصار أولئك الملوك على قبائل البجة وقمع حركاتهم[٥].

ويبدو أن الهدف من وارد زحف ملوك أكسوم على بلاد البجة كان غرضه تسهيل مرور التجارة وتأمينها عبر هذه البلاد، وهذا تأكيداً على مدى أهمية هذه المنطقة وقيمتها التجارية.

---

(١) مصطفى مسعد : البجة والعرب ص ١٣

(٢) جواد العلي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٣ ص ٤٥٠

(٣) محمد عوض : الشعوب والسلالات الأفريقية ص ٢٥٧

(٤) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص

(٥) Paul , A : History of the Beja Tribes of the Sudan,pp 44 - 45

وصفوة القول فيما ذكرناه سابقا أن النشاط التجاري لبلاد البجة لم يكن حديث العهد عند دخول العرب بلادهم في العصور الوسطى، بل إن هذه البلاد كانت مسرحا تجاريا شوهد عبر مراحل التاريخ المختلفة. وبقي الآن أن نتحدث عن التجارة عند البجة في العصور الوسطى وأهم عناصرها:

أ- التجارة الداخلية:

١ - المراكز التجارية وأهم الأسواق:

كان من أثر نشاط الحركة التجارية في بلاد البجة في العصور الوسطى، أن تشتهر بعض المناطق وتصبح مراكز تجارية هامة يفد إليها التجار، وتقصد إليها التجارة ويقام بها الأسواق لبيع السلع، وكانت أهم هذه المراكز تتمثل في وادي العلاقي ومدينة عيذاب

أ- وادي العلاقي : هو أهم المراكز التجارية في بلاد البجة في العصور الوسطى، وترجع شهرته إلى زمن المصرين القدماء، حيث كان يمثل أهم مراكز استخراج الذهب التي استثمرها الفراعنة منذ الدولة الوسطى على أقل تقدير، فقد أقام فيه بعض ملوك الدولتين الوسطى والحديثة حصونا لتأمين المناجم، وحفروا به الأبار للمياه[١].

وهو من أعظم أودية الصحراء الشرقية المصرية الجافة التي تنحدر من جبال البحر الأحمر إلى النيل، ويبلغ طول مجراه ٣٥٠ كم ويصل إلى النيل قرب كورسكو[٢] عند الجنوب من الدكة على بعد ١١٠ كم[٣] كما يتجه طرفه الآخر قرب البحر الأحمر، ويقدر عرضه بحوالي ١٥٠ ياردة تقريبا [٤].

ما في العصور الوسطى فقد حدد الجغرافيون موقعه بأنه يتوسط أرض الصحراء الشرقية في منطقة البجة، وكان الناس يدخلون منه إلى بلاد البجة، وكان يشغل منطقة واسعة في قلب الصحراء، وقد عبّر عن هذا المعنى ابن سعيد بتقدير مساحة فذكر أن طوله يقدر ٦٣ درجة، وعرضه ٢٠ درجة و٣ دقائق[٥] وقد ذكر ابوالفدا أن موقعه يبعد عن أسوان ١٢ مرحلة وعن عيذاب ٨ مراحل، ومنه يدخل الإنسان إلى بلاد والبجة[٦].

ومن خلال الحديث عن موقعه الذي تبين لنا أنه يتوسط المسافة بين النيل والبحر الأحمر جعل منه الرابط بينهما، وبالتالي ترتب عليه أن تخرج منه أو تمر به عدة طرق ربطته هو الأخر بكل من البلاد القائمة عليه ومنها طريقاً أشار الية اليعقوبى[٧] ابن رستة[٨] يتجه من شرق العلاقي ويربطه بعيذاب،

---

(١) عمر صبير : كتاب الأبحاث ص ٣٩

(٢) عبدالعال عبد المنعم الشامي : محاضرات في الجغرافية التاريخية، الصحاري المصرية في العصر الوسيط، القاهرة ١٩٨٧م ص ١٢٣

(٣) عمر صبير : كتاب الأبحاث ص ٣٩

(٤) بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ترجمة فؤاد أندراوس، القاهرة ١٩٥٩ م ص ١٥٠

(٥) بسط الأرض ص ٥٠

(٦) تقويم البلدان ص ١٢١

(٧) البلدان ص ٣٣٥

(٨) الأعلاق النفيسة ص ٣٣٥

ويقدر طوله بأربع مراحل، بينما الإدريسي أشار إلى أن هذا الطريق يستغرق السير فيه أثنى عشر يوما[1]، لكن أبو الفدا أشار إلى أن هذا الطريق طوله ثماني مراحل[2].

أما عن الطريق الذي ربط بين العلاقي وأسوان فقد أشار القلقشندي بأن طوله يبلغ أثنا عشرة مرحلة[3] واتفق على ذلك صاحب تقويم البلدان[4] لكن المسعودي اختلف في تقدير طول الطريق عنها وذكر أن طوله يبلغ خمس عشر مرحلة[5].

ويتضح لنا كيف ربط هذا الوادي بين بلاد النيل وساحل البحر الأحمر، إضافة إلى ذلك أنه ربط بين بلاد الإسلام وبلاد النوبة في تلك الوقت وذلك من خلال الطريق الذي كان يمر عبر الأودية المتفرعة منه جنوبا حتى يصل إلى مملكة علوة في السودان الأوسط والشرقي بعد مسيرة ثلاثون مرحلة[6].

وإن تضاربت أقوالهم في تحديد المسافة إلى العلاقي منه وإليه، فإنهم يتفقون من ناحية أخرى في رسم الصورة العامة له وكيف كان وادي العلاقي يمثل حلقة الوصل بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب، وذلك عن طريق الطرق الذي ربطت بينه وبين سائر البلدان، مما جعل منه مركزاً تجارياً هاما في قلب الصحراء، يفد إليه ومنه التجار، وقد عبّر عن هذا المعنى اليعقوبي[7] وابن رسته[8] بقولهم عن وادي العلاقي "بأنه كالمدينة العظيمة به خلق من الناس وأخلاط من العرب والعجم أصحاب المطالب، وبه أسواق وتجارات، ويشربون من الآبار التي يحفرونها به "وظل هذا الوادي يمثل أكبر المراكز التجارية في قلب الصحراء حتى زمن الإدريسي في القرن السادس الهجري والذي عبّر عن هذا المعنى بقوله "إن هذا الوادي كان مقصدا للتجار الذين يعبرون أرض البجة، وكان ينجلب إليه أهل الصعيد وأهل البجة، ولذلك كان فيه خلق كثير وجمع غزير من السكان، ومن ثم كان كالقرية الجامعة"[9].

ونلاحظ من قول المؤرخون عن وادي العلاقي يتضح لنا كيف كان يزج بزاحم التجار فيه، وهذا دليل على نشاط الحركة التجارية التي كانت قائمة فية في ذلك الوقت، ومن المؤكد أن العامل الأساسي في نشاط هذه الحركة التجارية هو وجود الذهب فيه، والذي أشرنا عن تواجده في هذا المكان سابقا، وكان من أهم بواعث استيطان العناصر المختلفة فيه منذ بداية التاريخ والذي ترتب عليه في النهاية أن تجعل وادي العلاقي أكبر سوق ومركز تجاري، تتنوع فية السلع الصادرة منه والواردة إليه.

---

(١) نزهة المشتاق ج ١ ص ٤٧
(٢) تقويم البلدان ص ١٢١
(٣) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٤
(٤) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ١٢١
(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦
(٦) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٣٣٥
(٧) البلدان ص ٣٣٤
(٨) الأعلاق النفيسة ص ٣٣٥
(٩) نزهة المشتاق ج ١ ص ٤٦

ولعل كانت أهم السلع الصادرة من وادي العلاقي هي الذهب الذي كان يمثل الركيزة الأساسية التي اعتمدت عليه الحركة التجارية في هذا الوادي، وهذا المعنى عبّر عنه الإدريسي بقوله عن تجارة الذهب بالعلاقي: "بعدما يجمعوه تبايعوه بينهم، واشتراه بعضهم من بعض، ثم يحمله التجار إلى سائر الأقطار، ومنه معايشهم ومبادئ مكاسبهم وعليه يعولون)[1].

ونستنتج من قول الإدريسي كيف كان الذهب أهم منتج فيه، وهو الذي ترتب عليه نشاط الحركة التجارية، وبما أن التجار هم الذين كان يحظون بنقله من العلاقي إلى سائر الأقطار، فمن المؤكد أنهم أتوا بالسلع الواردة إليه والتي تتمثل في العناصر الأساسية للحياة في هذه البيئة الصحراوية.

<u>ب- مدينة عيذاب</u>: وتأتي ثاني المراكز التجارية في بلاد البجة وأكثرها أهمية وأعلاها شهرة، وهي التي حظت بقيمة تجارية على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي. وإن كانت الآن خرائب تقع إلى الشمال من حلايب بنحو ٢٠ كم عند دائرة عرض ٢٠ و ٢٢ شمالا كمكان مندثر[2]، إلا أنها كانت في العصور الوسطى أهم المدن التجارية، وذلك لما لها من موقع جغرافي مميز يطل على ساحل البحر الأحمر، وهو الذي شكل بدوره أن تنشأ عليها ميناء في هذه المنطقة، ترتب عليها قيام مدينة عيذاب.

وذكر أن زمن إنشاء هذه المدينة ومينائها، يرجع إلى زمن الفراعنة لاستغلال معادن الذهب والزمرد اللذان كانا يتوافران في وادي العلاقي بكثرة، وظلت هذه المدينة ومينائها تستخدم لهذا الغرض في العصرين البطلمي والروماني[3].

وعندما فتح العرب مصر، أخذوا باستخراج المعادن، ولم يغفلوا دور عيذاب في خدمة تجارتهم. وذكر هذا الدور اليعقوبي منذ بداية استقرار العرب في بلاد البجة، فكانت تمثل منفذا رئيسيا لبيع سلعهم وتسويقها، حيث كان التجار يأتون إليها عن طريق مينائها لشراء الذهب والعاج[4].

ومن الواضح في التاريخ الإسلامي أن عيذاب لم تكن في عهد العرب الأوائل في مصر، مركزا تجاريا حراً، بل كانت تمثل مركزاً حربيا في المقام الأول، ويتضح هذا في أول إشارة إليها في المراجع العربية، فوردت في كتاب البلاذري وذلك عند الحديث عن الحملة التي قادها محمد بن عبدالله القميّ سنة ٢٤١ هـ/ ٨٥٤م ضد قبائل البجة، فيذكر أن القميّ استعان بالميرة التي حملتها المراكب من القلزم إلى عيذاب، في التغلب على ملك البجة علي بابا[5].

ولكن من النشاط المستمر للعرب في استخراج المعادن في ظهير عيذاب، أصبحت كحصن " ثغر " على البحر الأحمر، كما أشار ابن حوقل إليها في بداية القرن الثالث الهجري، حيث كان الحصن مطلوب لحماية

---

(١) نزهة المشتاق ج ١ ص ٤٦

(٢) عبدالعال عبدالمنعم: دراسات في جغرافية مصر التاريخية، طريق عيذاب قوص خلال العصر الوسيط، القاهرة ١٩٩٨م ص٢٨

(٣) السيد عبد العزيز سالم : البحر الاحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ص ٣٩، ٤٠

(٤) اليعقوبي : البلدان ص ٣٣٥

(٥) فتوح البلدان ص ٢٣٩

التجار وسلعهم خوفا من السكان المحليين – البجة – والأحباش، ولذا صارت عيذاب بحق – على قول ابن حوقل – ميناء الذهب[١].

وظلت عيذاب مركزاً للذهب طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين وكذلك أوائل القرن الخامس. ولما نضب معين مناجم الذهب في العلاقي، وانصرف العرب عن استخراجه والاتجار فيه، لم تفقد عيذاب أهميتها بل تألق نجمها، وذاعت شهرتها منذ القرن الخامس الهجري، وذلك نتيجة للتطورات السياسية التي ألمت بمصر في عهد الدولة الفاطمية. فيذكر المقريزي منذ ذلك الوقت أن عيذاب ظلت طريقاً للحج والتجارة وذلك منذ كانت الشدّة العظمى في عهد الخليفة المستنصر بالله[٢] أي ما يزيد عن مائتي سنة وذلك من بضع وخمسين وأربعمائة إلى بضع وستين وستمائة، وكان الطريق إليها من جميع أنحاء مصر إلى قوص ثم عيذاب، والعودة كذلك، وأضاف أن تجار الهند واليمن والحبشة كانوا يأتون إلى مصر عبر هذا الطريق موضحا كيف كانت تمثّل عيذاب مركزاً تجارياً هاما لهم[٣].

وقبيل بداية التوقيت الذي ذكره المقريزي عن بداية ازدهار عيذاب قد شاهد ناصر خسرو[٤] كيف أخذت عيذاب في الازدهار حين مر بها في طريقة للحج عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠م وقد أشار إلى أنها مدينة ولكن ليست بالكبيرة وذكرها بالمدينة الصغيرة وذلك لعدد سكانها القليل الذي قدره بخمسمائة نسمة، وقلة مرافقها حيث لا يوجد فيها غير مسجد الجمعة.

ومن المؤكد أن ذلك راجع إلى ما أشار إليه في حديثه عن قلة الإمكانيات الموجودة هناك، فهي قليلة الماء فلا يوجد فيها غير ماء المطر فلا بئر فيها ولا عين. وإن كان في حديثه أنه ذكر حجم عيذاب بالمدينة الصغيرة لكنه ذكر عظم شأن التجارة فيها وهو الذي أشار إليه من خلال حديثه عنها، وذلك من خلال قوله بأنه يحصل فيها المكوس لمصر على السفن التجارية الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن، وكيف كانت تنقل منها البضائع برا إلى أسوان مما أدى إلى أن يتخذ تجار أسوان وكلاء دائمين لهم بعيذاب.

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٠

(٢) المستنصر بالله: هو أبوتميم محمد معد بن الظاهر، أحد خلفاء الدولة الفاطمية ولد علم ٤٢٠ هـ وبويع له بالخلافة في السابعة من عمره في شهر شعبان عام ٤٢٧ هـ وظل في الخلافة مدة ستين عاما (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) وكان أطول الخلفاء عهدا، غير أن مصر لم تتمتع طوال هذه المده بالرخاء والطمأنينة غير فترة قصيرة، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية، كان من أثرها أن تزعزع مركز الخلافة الفاطمية وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الزوال، حيث حلت بالقاهرة الأيام السيئة، وعاوتها المصائب التي لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها. فقد عم الوباء والقحط بمصر في سنة ٤٤٦ هـ، وانقطع ماء النيل، فأهملت الزراعة، وانتشرت المجاعة، وعم الوباء الذي يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى، وامتد ثماني سنين (٤٤٦ – ٤٥٤ هـ) ونكبت به جميع الأمم الإسلامية، ودونت عنه قصص مروعة، حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس، وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط، ثم أكل بعضهم بعضا. كما عمت الفوضى السياسية بعد عام ٤٥٠ هـ حيث تولى الوزارة بعد هذا التاريخ أربعين وزير في خلال تسع سنوات. ثم عاد القحط والغلاء وما أعقبه من الوباء والموت في سنة ٤٥٩ هـ وظل الحال كذلك إلى سنة ٤٦٤ هـ مع قيام الفتن والحروب الأهلية، ونتيجة لهذا الأحداث اصطلح المؤرخون لها تسمية باسم "الشدّة العظمى" (حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر، وسوريا، وبلاد العرب القاهرة ١٩٨١ م، ط ٤، ص ١٦٩ – ١٧١)

(٣) الواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢

(٤) سفر نامة ص ١٣٣

ومن خلال إشارة ناصر خسرو لعيذاب يمكن لنا أن نقف على نتيجة مهمة وهي أن البجة وبما أنها كانت تقيم في صحراء يمين عيذاب من ناحية القبلة – شرق – ذكر عنهم "بأنهم ليسوا أشرار فلا يسرقون ولا يغيرون"[1]، يؤكد هذا أن النشاط الحربي للبجة ضد العرب قد توقف، وهذا ما يعطي الأمان للتجارة في عيذاب.

كما أضاف إلا أنهم ساهموا في ذلك النشاط وذلك من توفير الماء للمقيمين بعيذاب وذكر أنه اشترى من البجة قرب الماء بنفسه بدرهم ودرهمين لمدة ثلاثة أشهر[2].

ويبدو أن هذا الاحتكاك الذي حدث بين البجة وأهل عيذاب هو ما جعل البجة يشتركون في النشاط التجاري في عيذاب فيما بعد، ويتضح هذا في إشارة ناصر خسرو عن إبلهم الذي يوصف بين التجار (بالإبل النجيبة) حيث كانت تنقل منهم إلى مصر والحجاز عن طريق عيذاب، و أضاف كيف كان التجار بعيذاب تنقل لأمير مكة هذه الابل عن طريق البحر[3].

ويتضح لنا من سابق القول كيف بدأ البجة السعي في ممارسة النشاط التجاري بعيذاب وإن كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة العرب. وقد أشار البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) في حديثه عن عيذاب في القرن الخامس الهجري أن سكان عيذاب من قبائل العرب وهم قوم من بني يونس من ربيعة[4] وقد ذكرنا سابقا أنه كان لبني يونس من ربيعة عيذاب وملكوها عند قدومهم من اليمامة، فجرى بينهم وبين بني بشر حروب انهزموا فيها فوفدوا منها إلى الحجاز[5].

ومن الراجح أن هذه الأحداث ساهمت في أن تفسح المجال أكثر للبجة للمشاركة في العمل التجاري بعيذاب، بعدما خرج منها بني يونس، ويبدو أن البجة قد شهدت مدى النشاط التجاري بعيذاب وحركة التجارة فيها، لذلك تطلعت في أن تتقاسم أرباحها وخاصة أنها بأوطانهم، وهم ذوي خبرة بشئون الصحراء التي خلفها.

وتأتي إشارة الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٧م) لما وقفنا تأكيداً عليه من نتائج فينص قوله عن مدينة عيذاب "بأنها على ضفة البحر المالح، و أهلها سود (يقصد البجة) وشربهم من آبار، ثم أعطى صورة نظام الحكم بها فمدينة عيذاب ينزلها عامل من قبل رئيس البجة وعامل من قبل سلطان مصر يقتسمون جبايتها نصفين، وعلى عامل صاحب مصر القيام بجلب الأرزاق والمعيشة إلى عيذاب، وعلى رئيس البجة القيام بحمايتها من الحبشة، ويشير إلى أن سكان البجة يتبادلون مع الرعاة من البجة ما عندهم من السمن والعسل واللبن في حين يعمل بعض سكان عيذاب في صيد الأسماك[6].

---

(١) سفر نامة ص ١٣٤

(٢) سفر نامة ص ١٣٤

(٣) سفر نامة ص ١٣٥

(٤) عبدالله يوسف الغنيم : جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري، الكويت ١٩٨٠ م ص ٨١

(٥) المقريزي : البيان والإعراب ص ٤٤

(٦) نزهة المشتاق ج ١ ص ١٣٤ ، ١٣٥

وقد ظلت عيذاب تحت إدارة مشتركة من السلطة المصرية والبجة حتى زيارة ابن جبير لها في طريقه للحج عام (٥٧٩ هـ / ١١٨٦م) فذكر: أن أهل عيذاب ونحوها من الساكنين هم من قبيل السودان يعرفون بالبجة، وذكر أن لهم سلطان من أنفسهم يقيم معهم في الجبال المتصلة بعيذاب، وينوب عنه نائب يقيم مع والي عيذاب من السلطة المصرية، وبهذا أصبح للبجة عنصرا دائما في إدارة عيذاب ومن المؤكد أن الغرض من هذا هو تحصيل فوائدها، بعدما أصبح لهم النصيب الأكبر من مكوسها[١].

ومن الواضح أن هذا راجع إلى ما ذكره ابن جبير في ذلك الوقت من الحجم الكبير للتجارة في عيذاب، فنص قوله عنها بأنها "أحفل مراسي الدنيا وذلك بسبب أن مراكب الهند واليمن التي تحط فيها وتقلع منها، زائداً عن مراكب الحجاج الصادرة والواردة، إضافة إلى ما كان يحصل عليه سكان عيذاب من الفوائد من التجار والحجاج وذلك لما كانت عيذاب من منطقة قاحلة لا نبات فيها ولا ماء، وأصبح من الضروري أن يعتمد أهلها على كل ما يجلب إليها. وقد أفادوا بذلك أن من التجار والحجاج فوائد لا تحصى، إضافة إلى أنهم كانوا يفرضون ضريبة معلومة على كل حمل يحملونه للحجاج، غير الوظائف المكوسية التي تجمع منها. إضافة إلى ما كان لهم من مرافق للحج الممثلة في الجلاب التي تحمل الحجاج في البحر، حيث كان الحجاج يكترون هذه الجلاب للحج مما تعود على أصحابها بالمال الكثير، وقد ذكر أن أصحاب الأموال والأغنياء من أهل عيذاب هم الذين يملكون هذه الجلاب"[٢].

وقد يتضح أكثر لنا من قول ابن جبير عن كثافة الحركة التجارية بعيذاب، ما ذكره في طريقه بالصحراء من كثرة القوافل العيذابية الواردة والصادرة المحملة بسلع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب وكان أكثر ما شهده في طريقه كان من التوابل من الفلفل الأسود حتى خيل إليه من كثرته يوازي التراب قيمة، إضافة إلى ما شاهده في قارعة الطريق من أحمال القفل والقرفة وغيرها من السلع مطروحة لا حارس لها، وظن أنها تركت بهذه الطريق إما لإعياء الإبل أو غير ذلك من الأعذار، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها أصحابها سالمة[٣].

وهكذا سجل ابن جبير النشاط التجاري الضخم الذي عرفته عيذاب في ذلك الوقت، وكان هذا نتيجة حتمية لما وقفنا عليه سابقاً بتمسك البجة بالمشاركة في إدارتها للحصول على هذه الفوائد، ومنهم من مارس تجارة البحر للحصول على أكثر من هذا، فقد أشار ابن جبير[٤] أنه نزل بعيذاب بدار تنسب إلى (مولح) وذكر عنه أنه أحد قوادها الحبشيين – البجة – الذي كان له أعظم الديار والرباع والجلاب.

ومن هذا نستنتج مدى المكاسب التي تتحقق من التجارة بعيذاب مما جعل القادة الحربيين من البجة إلى ممارسة التجارة بها للحصول على هذه المكاسب العظيمة. وإذا كان هذا حال البجة المقيمة بعيذاب، فما حال البجة التي تقيم بجانب عيذاب وقد شاهدوا مدى حجم الأرباح والفوائد منها.

---

(١) ابن جبير : رحلته ص ٤٢

(٢) نزهة المشتاق ج ١ ص ٤١ ، ٤٢

(٣) ابن جبير : رحلته ص ٣٨

(٤) ابن جبير : رحلته ص ٤٠

من المؤكد أنهم تطلعوا للحصول على أي فائدة منها، لذلك لجأوا إلى المكائد والخداع للحصول على أي شيء، وقد أشار إلى ذلك ابن جبير بقوله بأن الركوب من جدة إليها (يقصد عيذاب) آفة عظيمة للحجاج، وذلك أن الرياح تلقي بهم على الأكثر في مراسي بصحاري تبعد عنها مما يلي الجنوب، فينزل إليهم البجة الساكنون بالجبال، فيكرون منهم الجمال، ويسلكون بهم غير طريق الماء فربما ذهب أكثرهم عطشاً، وحصلوا على ما معهم من نفقة أو سواها[1].

وفي نهاية الحديث عن النشاط التجاري لعيذاب في زمن ابن جبير، يتضح لنا أن عناصر البجة بها كان لهم النصيب الأكبر في إدارة شئون التجارة فيها. وقد يتبين هذا في حديث ابن جبير أثناء خروجه منها وركوبه البحر ذاكراً إياها (بالبلد الملعونه)[2] ومن المؤكد أن هذا راجع إلى سوء المعاملة وقسوتها من أهل عيذاب من المتعاملين مع الحجاج والتجار، وهذه هي الطبيعه السائدة للبجة.

وما إن تقدم التاريخ بعيذاب، حتى أصبح النصيب الأعظم منها للبجة، ففي زمن زيارة ابن بطوطة لعيذاب عام ٧٢٦ هـ /١٣٣٤م أشار إلى أن أهلها البجة، وطعامهم اللبن، ويركبون المهاري، ويسمونها الصهب، أما ذكره عن إدارتها وفوائدها فذكر أن ثلثها للسلطة المصرية وقتذاك، والثلثان للبجة[3].

وآخر الحديث عن عيذاب نلاحظ كيف بدأت عيذاب بالمدينة الصغيرة، حتى أصبحت من أنشط المراسي التجارية على البحر الأحمر حتى عظم صيتها، وكيف شكلت أهم مراكز التجارة الداخلية وخاصة للبجة حتى تطلعوا للسيطرة عليها، وكيف ساعدتهم الأحداث الداخلية لعيذاب وخارجها في أن تفسح المجال لهم، حتى سلس لهم إدارتها وأصبحت تمثل أهم مراكزهم التجارية.

<u>جـ- مدينة هجر:</u> ومن مراكز التجارة الداخلية في بلاد البجة في العصور الوسطى مدينة هجر وهي الواقعة الآن في إقليم لملم، على رافد (تكازي) نهر ستيت، الذي يصب في العطبرة، وتعرف الآن ببلدة أم حجار أو أم هجر، بالقرب من الحدود السودانية الحالية، حيث اكتسبت هذه البلدة موقعاً مهما ومركزاً تجارياً للقوافل في بلاد البجة، وذلك لتميز موضعها الإقليمي الواقع على المدخل بين حوض النيل وإثيوبيا، هذا الأمر الذي جعل القوافل تتخذه منفذاً لها بين تلك البلاد، وكذلك ساحل البحر الإرتيري في مختلف موانيه من مصوع وباضع وسواكن وغيرها[4].

ويبدو أن هذه البلدة حازت على قيمتها الاقتصادية - بخلاف الموقع - لما كان لها من دور سياسي بين قبائل البجة، فكانت تمثل العاصمة لهم، بل ومركز الحكم والإدارة لجميع عناصر البجة وقد ذكر هذا المقريزي[5] ـ نقلا عن ابن سليم الأسواني - قائلا : " كان للبجة قديما رئيس يرجع جميع رؤسائهم إلى حكمه يسكن قرية هجر وهي أقصى جزيرة البجة".

---

(١) ابن جبير : رحلته ص ٤٠

(٢) ابن جبير : رحلته ص ٤٣

(٣) ابن بطوطة : رحلته ص ٥٢

(٤) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٢٣ ، ٢٤

(٥) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٤

ويمكن لنا تأكيد هكذا القول بالقول السابق له عن هجر، فقد ذكر اليعقوبى[١] أن هجـر هــي عاصــمة المملكة الأولى، وهي أكبر ممالك البجة، وحازت على أكبر مساحة من الأرض ما بين أسوان إلى حـد بركـــة، كما حظيت بتجمع بشري هائل. وذكر عنها في موضع آخر بأنها أرض البجة الــذين يــسمون بالحـــدارب وأن المسافة إليها من العلاقي خمس وعشرون مرحلة ويذهب إليها التجار المسلمين وغيرهم للتجارة بها[٢].

ويتضح لنا من قول اليعقوبي كيف كانت هجر محطة للتجار يذهبون إليها ببضائعهم، وكـــذلك للحـــصول على السلع السودانية المختلفة من بلاد النوبة والبجة والحبشة.

د- مدينة تفلين: وهي من المراكز التجارية الهامة ببلاد البجة أيضاً وهي التي ذكرها اليعقوبي بتقلين وحدد مسافتها من وادي العلاقي بمسيرة خمس وعشرون مرحلة، وذكر أن التجار يقصدونها بتجارتهم[٣].

أما ابن حوقل فقد حدد مكانها بأنها تقع وسط وادى القاش، وذكرعنهـــا بـــأن بهـــا تجـــار يتـــاجرون ويسافرون إلى مكة وغيرها[٤].

وفي نهاية القول يتضح لنا كيف كانت بلاد البجة تمثل أكبر سوق تجاري، وذلك من خلال مراكز التجارة الداخلية، والتي حظيت بنشاطها المميز ورواج تجارتها، وبقي علينا الآن أن نتحدث عن السلع التجارية التـــي قام عليها هذا الحجم الضخم من التجارة، وكيف مثلت اعمالها جذب أنظار التجار إليها، ممـــا أدى ذلـــك فـــي النهاية إلى رواج التجارة بها ونشاطها.

٢ - أهم السلع التجارية:

لعبت السلع التجارية دورا هاما في نشاط الحركة التجارية لهذه المنطقة، حيث كانت سبباً في أن تجعل منها سوقا تجاريا يجذب التجار من الأماكن المختلفة، رغبة في اقتسام أرباحها. وتمثلت أهم هذه السلع في :

أ – الذهب: وتعد هذه السلعة من أهم السلع التجارية الصادرة من بلاد البجة، فذكر اليعقوبي[٥] أنهـــا حازت على أكبر قدر من نشاط التجار في المناطق المختلفة وخاصة أسوان فذكر عنها قـــائلا : "وبهـــا تجـــار المعادن ".

ومن الواضح من هذا القول أن كميات كبيرة من هذا الذهب الذي كان يتم استخراجه يتجه إلى أســـوان، ومن ثم صارت أسوان سوقا كبيرا يتبادل منه التجار بيع وشراء الذهب. وإذا كانت أسوان سوقا لهذه الـــسلعة على المستوى الداخلي، فإن عيذاب أصبحت لها سوقا على المستوى العالمي وهذا أيضاً نلاحظه من قول

---

(١) تاريخ اليعقوبي ص ١٩٢
(٢) البلدان ص ٣٣٦
(٣) البلدان ص ٣٣٦
(٤) صورة الأرض ص ٥٧
(٥) البلدان ص ٣٣٤

اليعقوبي[1] عن عيذاب قائلا: " يأتي إليها التجار من اليمن والحجاز لشراء الذهب"[2] ونتيجة للطلب المستمر لهذه السلعة الرائجة وزيادة الطلب عليها، اتجهت تجارة عيذاب للعمل بها في المقام الأول حتى صارت عيذاب على حد قول ابن حوقل" ميناء الذهب".

ومن المؤكد من اهتمام التجار بهذه السلعة ورغبة العمل في تجارتها؛ هو ما كانت تحققه لهم من مكاسب طائلة كما ذكر الإدريسي[3]، وهذا ما جعل بعد المغامرين الطامعين في احتكار هذه السلعة، كما فعل العُمري بعدما سمع بأخبار الذهب، واشترى عبيدا للحفر في مناجمه[4].

ب– الزمرد: وهو من أثمن السلع التجارية الصادرة من بلاد البجة وأغلاها قيمة، وذلك لأن هذه البلاد انفرضت دون سواها باستخراج الزمرد وتجارته[5]، مما أدى إلى زيادة الطلب عليه، لا على مستوى الأسواق الداخلية، بل على المستوى العالمي، فبعد أن كان يتم استخراجه من مناجمه، يُحمل إلى الفسطاط – القاهرة – ومن ثم إلى الأسواق الخارجية[6]، فقد كان يصدر نوع منه يسمى(بالريحاني) إلى أهل الصين والهند[7]، ونوع أخر يصدر إلى المغرب وهو مشبع الخضرة، ولكثرة طلبه في بلاد المغرب سمي (مغربيا)[8]، وكان يصدر أيضاً إلى دمشق[9]، ومنها إلى أوربا، إذا كان الشائع في أوربا في العصور الوسطى اعتقاد الناس أن بعض الأحجار الكريمة يطرد الأرواح الشريرة، والبعض الأخر يضفي على الفرد سلامة الجسم والعقل[10].

ويذكر التيفاشي[11]، وابن الأكفاني[12]، عن الفوائد المعتقد بها في الزمرد فيذكر أن:" أنه يطرد الشياطين والسحر والأفاعي والعقارب، وإذا سحق وشرب يبطل السم واللدغات، ويوقف الجزام، ويقطع الإسهال ونفث الدم، ويقوي المعدة والأسنان، ويسرع طلق الولادة، والنظر إليه يجلو البصر ويقويه". وهذا ما جعل منه في نفوس الناس قيمة كابرت المال والذهب، فقدر القليل منه بأكبر الأثمان فذكر البيروني أن نصف المثقال منه بلغت قيمته ألفي دينار[13] وذكر التيفاشي أنه اشترى قطعة بمثقال أثنى عشر بقيمة ألف درهم وقدرت بدمشق فبلغت ثلاثين ألف درهم وذكر أنها كانت تساوي أكثر من ذلك[2] وهذه القيمة الغالية جعلت من

---

(١) البلدان ص ٣٣٥
(٢) صورة الأرض ص ٥٠
(٣) نزهة المشتاق ج ١ ص ٤٦
(٤) المقريزى : المقفى ج ٤ ص٤٠٤
(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥٠
(٦) المقريزى : المواعظ و الاعتبار ج١ ص٢٣٢
(٧) ابن الأكفاني : نخب الذخائر ص ٤٨
(٨) البيرونى : الجماهر فى معرفة الجواهر ص ١٦١
(٩) التيفاشى : أزهار الأفكار ص ١٦
(١٠) محمود الحويرى : أسوان فى العصور الوسطى ص ١١٢
(١١) أزهار الأفكار ص ١٥
(١٢) نخب الذخائر ص ٥٢
(١٣) الجماهر فى معرفة الجواهر ص١٦٣
(١٤) أزهار الأفكار ص ١٦

القائمين باستخراجه بالاهتمام بتفتيش الفعلة من الحفارين حتى لا يأخذوا شيئا منه فيذكر عن ذلك العمري قائلا: الاحتراز على هذا المعدن كبير جدا، والفعلة تفتش عند خروجهم منه في كل يوم، حتى تفتش منهم أماكن لا يليق ذكرها، ويذكر أن آخر حدثه عن سبب هذا التفتيش المهين لهؤلاء الفعلة، فذكر له أن الفعلة في هذا المعدن يقومون بسرقته، ورغم التفتيش والاحتراز الشديد فلهم الحيَل الكثيرة في سرقته، منها أن الرجل منهم يسرق ما يمكنه من الزمرد ويعمله في كيس صغير معد معه لذلك، ويربطه ثم يعلقه بخيط مبروم مشدود بين أضراسه الدواخل، ويكون رأس الخيط معقودا عقدا وثيقا، فإذا علق الخيط أخرج تلك العقدة بين الضرسين إلى جهة الشفة فيبقي ناشبا به، فإذا خرج إلى ظاهر المعدن وصار إلى حيث يأمن، أخرجه وأخذ ما فيه[1].

جـ- الإبل : لم تقل الإبل البجاوية من حيث القيمة التجارية عن السلع الأخرى لدى التجار، وذلك لما لها من صفات امتازت بها، مما جعلت منها سلعة تطلب على المستوى الإقليمي والخارجي، مما جعلت البجة يهتموا بها حتى أصبحت لدي بعضهم المصدر الوحيد للمعيشة، وذلك لما تدره عليهم من أرباح كثيرة. فيذكر عن ذلك الإدريسي قائلا : "إن بعض قرى البجة ينتجون الجمال، وأكبر إنتاجا لها بقرية تعرف بالبختة، فمنها معايشهم وهي أكثر مكاسبهم، وقد امتازت إبلهم بالصبر على السير والسرعة مما جعلها مشهورة بأرض مصر، وكثرة الاقبال لهم على شرائها[2].

ولعل ما يؤكد على أهمية هذه السلعة ورغبة الحصول عليها، أن أرض الإبل (بلاد الحجاز) رغبت في الحصول على هذه الأنواع الجيدة فيذكر ناصر خسرو[3] "أنها كانت تصدر عن طريق عيذاب عبر البحر الأحمر إلى أمير مكة، وذكر ان هذه الجمال تسمي بالنجيبة، وأنها لا توجد في مكان آخر غير صحراء البجة فكانت تنقل إلى مصر والحجاز".

ب- التجارة الخارجية: لقد أشرنا في بداية حديثنا عن التجارة في بلاد البجة من كونها شاهدا على النشاط الاقتصادي لمراحل التاريخ المختلفة التي مرت بها. ومن المؤكد أن حركة التجارة الداخلية ونشاطها ساهمت في أن تجعل من هذه البلاد مركزا تجاريا عاما على المستوى الخارجي، أضافة إلى أنها مثلت حلقة الربط بين البلاد والمناطق المختلفة، حيث ربطت بين بلاد النوبة والحبشة بمصر من ناحية، وبين البحر الأحمر والنيل من ناحية أخرى، مما أكسبها قيمة مفضلة من مستوى التجارة الخارجية، والتي جلّ اعتمادها على أهم عوامل نشاطها والتي تمثلت في أهم الطرق والموانئ التجارية.

١ - أهم الطرق:

لم يكن إنشاء الطرق في بلاد البجة وقيامها بالنشاط التجاري في العصور الوسطى جديدة العهد، ونتائج الصدفة، فإن لهذه الطرق من الأغراض والغايات ما كانت مبررا لنشأتها وتحديد مسارها منذ مراحل التاريخ القديم وذلك في ضوء دعم من مقاومات جغرافية وأخرى بشرية ساهمت في ذلك.

---

(١) مسالك الإبصار ص ٧٩

(٢) نزهة المشتاق ج ١ ص ٤٧

(٣) سفر نامه ص ١٣٥

ولعل أهم هذه الغايات وأقدمها هو الغرض الاقتصادي وخاصة التجارة بمختلف مستوياتها الخارجي والداخلي، فقد تطلع أول من استقر في وادي النيل وهم الفراعنة، إلى الحصول على تجارة البحر الأحمر بأيسر السبل، توفيرا للوقت والجهد، لذلك لجأوا إلى اختراق بلاد البجة المجاورة، وقد أشرنا سابقا في حديثنا أن رعمسيس عندما بنا أسطولاً في البحر الأحمر بغرض التجارة، جعل من القصير مركزا له على الساحل، ولكي يربط بينها بنها وبين النيل، أنشأ طريقا يمر عبر صحراء البجة من القصير حتى يصل إلى فقط[1] ومن المحتمل أن هذا الطريق أخذ سليكة البجة حتى عام ٢٠٤هـ /٨١٩م فقد ذكر ابن حوقل أن البجة كانت تذهب إلى فقط من ناحية الصحراء للحصول على الذبر – القمح – والتمر[2]، وقد كان هذا مبررا لإنشاء الطرق على المستوى الخارجي للتجارة، فماذا إذن عن إنشائها على المستوى الداخلي للتجارة ؟

لقد اخترق الفراعنة صحراء البجة بحثا عن المعادن، وعندما وجدوها أقاموا عليها مراكزهم، ولجأوا إلى ساحل البحر لنقلها وتجارتها، وقد ذكرنا سابقا أن عيذاب أنشأها الفراعنة لاستغلال مناجم الذهب بصحراء العلاقي[3] وهذا ما يبين سبب قيام الطرق من أجل التجارة الداخلية أيضاً، وذلك لسد احتياجات السكان في أقاليم المعادن والساحل.

ومن المؤكد أن هؤلاء الفراعنة لجأوا إلى الوسائل المختلفة من دراسة وتحقيق لهذه الصحراء لتحديد مسارات واتجاهات هذه الطرق. خاصة وإننا ذكرنا أن الأبحاث دلت على أن الفراعنة هم أول من استغل مناجم الذهب في تلك البلاد وقد عثر على أقدم خريطة في العالم يرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٠ ق . م وقد صور عليها أقدم مصور جغرافي عن أقدم مناطق استخراج الذهب في وادي العلاقي من صحراء البجة[4] وإن دل هذا القول فإنما يدل عن مدى التقدم العلمي للفراعنة في رسم الخرائط الجغرافية، فمن المؤكد أن هذه الخرائط استخدمت لأغراض أخرى وقد يبدو أنها استخدمت في تحديد مسارات الطرق في وضع جغرافي مناسب.

أما في عهد اليونان في مصر لم تقل أهمية أغراض إنشاء الطرق وتجديد مسارها في بلاد البجة، وذلك حين بدا اهتمامهم بتجارة البحر الأحمر وإنشاء الموانئ على ساحله الأفريقي مثل ميناء بورت سوتريا، وثيرون سويترون، وليمن إيفانجلز، وكسوتراس ليمن، وبطليموس ثيرون[5].

فلابد أنهم تطلعوا إلى إنشاء الطرق بصحراء البجة لكي يصلوا تجارتهم بالنيل، ولتحديد هذه الطرق وتوجيه مسارها لجأوا إلى الاستعانة بالعناصر العربية وخاصة من قبيلة بلي لأنهم ذو خبر بشئون الصحراء وعبورها للقيام بعمليات النقل البري والمحافظة على مسار هذه الطرق بين البحر الأحمر والنيل، حتى غدا اسمهم عند اليونان والرومان يعرف باسم بليميين[6].

---

(١) جورجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٢١٤

(٢) صورة الأرض ص٥١

(٣) السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي ص ٣٩

(٤) عطية القوصي : دولة الكنوز ص ١١٣

(٥) الشامي : الموانئ السودانية ص ٢٨ – ٢٩

(٦) مصطفى مسعد : البجة و العرب ص ١٣

وأما في عهد الرومان وإن انصرفوا عن تجارة البحر الأحمر، ولم يهتموا بتأسيس مراكز تجارية على طول ساحله الأفريقي[1]، فهذا لا يعني أن الطرق التجارية في بلاد البجة فقدت أهميتها. لأن في ذلك الوقت قد سيطر البلميين على مجموعة كبيرة من البجة الشماليين[2]، وبالتالي استكملوا نشاط اليونان ومتابعة حركة النقل البري والطرق ببلاد البجة، أما البجة الجنوبيين فقد سيطر عليهم ملوك أكسوم وبالتالي تابعت النشاط البري وإنشاء الطرق في جنوب بلاد البجة[3].

وبهذا نكون قد شاهدنا دور الطرق التجارية في بلاد البجة في العهود القديمة وكيف كانت التجارة مبررا في إنشائها، وكيف استعان القدماء بالوسائل والسبل المختلفة في تحديد مسارها لتحقيق أغراضهم.

ولكن عند قدوم العرب مصر في العصر الوسيط وفرض سيطرتهم على بلاد البجة، كان لمثل هذه الطرق شأن عظيم، وذلك لما كان للعرب من تعدد الأهداف والغايات بهذه البلاد، والتي ساهمت بدورها في تفعيل هذه الطرق وتحديد مسارها.

– وكان أول هذه الأهداف هي الأهداف السياسية والحربية وقد تمثلت في كون بعض المناطق مراكز حربية مثل ماء حكم الذي اتخذه حكم النابغي في عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧م مركزا لعملياته الحربية ضد البجة[4] وكذلك عيذاب التي اتخذها القمي في عام ٢٤١ هـ / ٨٥٤م كأحد الثغور الحربية في دعم حربة على البجة[5] لذلك فقد وقع الاهتمام بالطرق وتوجية مسارها، لأنها توطد سلطان الدولة الحاكمة بمصر بمراكزها داخل أقاليم البجة حيث يرسل عبرها العدة والعتاد للجنود القائمة بها.

– أما الأهداف الاقتصادية فنلاحظ دورها في نشاط حركة الطرق من خلال ما سبق ذكره عن هذه البلاد من اختصاصها بمعان الذهب والزمرد ونشاط حركة مراكز التجارة الداخلية، وارتباطها بمدن الصعيد الأعلى، أو موانئ البحر الأحمر وهذا ما سنتناولة تفصيلا.

– أما الأهداف الدينية فقد تمثلت في قيام هذه الطرق بخدمة الحجيج خلال أكثر من قرنيين من الزمن[6].

وإذا كنا قد تناولنا من الأغراض والأهداف ما يبرر إنشاء هذه الطرق وتحديد مسارها. فماذا عن المقومات الجغرافية التي ساهمت في ذلك ؟

لقد تمثلت أهم هذه المقومات الجغرافية في طبيعتها من خلال مظاهر السطح والتي كانت عبارة عن سلسلة من جبال البحر الأحمر التي تتألف من كتل جرانيتية تكن بمثابة العمود الفقري للصحراء الشرقية، وقد تمثل عائقا أمام شبكات الطرق الواصلة بين الساحل ومدن الصعيد الأعلى، إلا أن الأودية التي تتصرف منها تجاه النيل تمثل طرقا طبيعية أمكن استغلال مجاريها، وكان أهمها وادي العلاقي الذي يصل بالنيل، ويبلغ

---

(١) مصطفى مسعد : البجة و العرب ص ١٤

(٢) مصطفى مسعد : البجة و العرب ص ٧

(٣) الشامي : الموانىء السودانية ص ٥٥

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٢

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣٩

(٦) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٠٢

طول مجراه ٣٥٠ كم وكان هذا من ناحية الغرب لهذه السلسلة الجبلية، أما شرقها فيمتاز بالأودية متعددة الروافد وعظم طولها، وصلاحيتها كطرق ومسالك طبيعية، إذ تؤدي إلى ممرات منخفضة سهلة تتخلل الكتل الجبلية وكان أهمها وادي الحوضين الذي يصل بالبحر الأحمر ويبلغ طول مجراه ١٠٨ كم(١)

أما عن المقومات البشرية التي دعمت مسالك هذه الطرق فقد اتيحت من خلال وجود سكان مستقرين ومتجولين في أرجاء بلاد البجة ممن لهم نشاط اقتصادي من استغلال موارد التعدين، أو احتراف التجارة، أو تقديم الخدمات للطرق، فقد كان لكثرة وجود القبائل العربية في هذا الإقليم أثره على الطرق من حيث توفير الإبل اللازمة كدواب لحمل بضائع المسافرين كما ذكر ناصر خسرو في رحلته(٢) أو هداية القوافل وحمايتها عن طريق الأدلة المهرة والعارفين بموارد المياه ومياسر الطرق، كالذي أشار إليهم ابن جبير في رحلته من تولي عرب اليمنيين من قبيلة بلي من أفخاذ قضاعة هذا العمل، وأطلق عليهم أصحاب طريق عيذاب(٣) وقد أشار ابن بطوطة بقيام العرب بهذه المهمة في زمنه وأشار أن القائم بها هم عرب دغيم(٤) ويمكن لنا من خلال قول الرحالة العرب أن نلاحظ دور المقومات البشرية في استكمال نقص المقومات الطبيعية من شدة الحر وقلة الماء، وبذلك زادت من فاعليتها وعملت على الاستفادة الكاملة منها بما يفسر جغرافيا قيام الطرق في أماكنها واختيارها لهذه المسارات وسط الصحراء.

وبذلك نكون قد عرضنا ما يبرر إنشاء الطرق من الأغراض والأهداف وما يساعدها من مقومات طبيعية وبشرية وبقي علينا الآن معرفة أهم شبكات هذه الطرق وتحقيق منازلها في العصر الوسيط:

<u>أ - الطريق بين أسوان وعيذاب :</u>

ويعتبر هذا الطريق أحد الطرق التجارية القديمة الهامة وقد ذكر أن هذا الطريق كان في عصر ملوك الفراعنة أحد الوديان التي جفت، ثم ما لبث التجار أن استخدموه كطريق تجاري، بعد أن تكون لهم تجمع بشري بمنطقة وادي العلاقي(٥).

أما في العصر الإسلامي ، فقد شهد هذا الطريق على أكبر حركه تجارية، وذلك بعد أن مهدت له الأسباب السياسية اتجاهاته ومساراته، فقد تحدد مسارة الأول من أسوان إلى العلاقي، بعدما اتخذه ابن الجهم في حملة التأديبية على البجة عام ٢٣٢ هـ / ٨٤٧م، وكان هذا التاريخ أيضاً بداية استقرار العرب المسلمين بالعلاقي، والذين ساهموا بدورهم في نشاط هذا القسم من هذا الطريق(٦) ولكن تكامل مسار هذا الطريق من أسوان مرورا بالعلاقي ثم عيذاب بعدما اتخذه القمي معبرا له في حربة على البجة في عام ٢٤١ هـ / ٨٥٤م(٧).

ولكن يتضح لنا مسار آخر من الطرق بين أسوان وعيذاب، وهو طريق يربط بينهما دون المرور بالعلاقي،

---

(١) عبد العال عبد المنعم : دراسات في جغرافية مصر ، طريق قوص عيذاب ص ١٠

(٢) سفر نامه ص ١٣٣

(٣) ابن جبير : رحلته ص ٣٧

(٤) ابن جبير : رحلته ص ٥٣

(٥) كتاب الأبحاث ص ٢١٢

(٦) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٣

(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٣

ويبدو أن مساره تحدد بعدما سلكه ابن الصوفي في عام ٢٥٦ هـ /٨٦٩م، لما أحس بقدوم جيش ابن طولون لقتاله، فهرب من أسوان متخذا إياه إلى عيذاب مباشرة دون المرور بالعلاقي، لأن في ذلك المكان آنذاك كان يقيم بالعلاقي عدواً له وهو العمري[١].

ومن الجدير بالذكر هنا – أن النشاط الحربي للعرب في بلاد البجة قد ساهم في تحديد مسارات الطرق بين أسوان وعيذاب. وبعبارة أخرى أن الطريق بين أسوان وعيذاب اتخذ مساران:

– **أولهما:** طريق بتجة من أسوان إلى العلاقي ثم عيذاب.

وبما أن هذا المسار اخترق منطقة العلاقي وهي منطقة للذهب، تمثل نشاطه في تجارة الذهب، وبالتالي لم يأتي مساره في اتجاه واحد أي من أسوان إلى عيذاب والعودة كذلك، فقد جعلت منه تحركات التجار قسمان يمثل العلاقي مركزا له، وتمثل مساره الأول من أسوان إلى العلاقي والعودة كذلك، ومن الواضح أن الذي استخدم هذا المسار هم تجار الذهب القائمون بأسوان على حد قول اليعقوبي عن أسوان وذكر عنها قائلا: "هي مدينة عظمى على الجانب الشرقي من النيل وبها تجار المعدن، وتجارات تأتي من بلاد البجة والنوبة"[٢].

أما المسار الآخر والذي تمثل اتجاهه من العلاقي إلى عيذاب والعودة كذلك فقد استخدمه تجار عيذاب للحصول على تجارتهم من العلاقي وبلاد البجة وتصديرها إلى اليمن والحجاز، وهذا بخلاف استخدامة في أداء فريضة الحج كذلك كما ذكر اليعقوبي قائلا: "إن عيذاب يأتيه التجار فيحملون التبر والعاج، ويسافرون بتجارتهم إلى مكة والحجاز واليمن"[٣]

ويمكن لنا تأكيد هذا القول من هذا الطريق كان على مرحلتين من خلال ما جاء من قول المؤلفين العرب في تقدير طول كل مرحلة على حدي دون الربط بينهما. فجاء تقدير المرحلة الأولى ، وهي التي كانت من أسوان إلى العلاقي بمسافة اثنتا عشر مرحلة كما ذكرها القلقشندى[٤] وأبو الفدا[٥].

لكن المسعودي[٦] والمقريزي[٧] اختلفا في تقدير طول هذه المسافة ذاكرين أنها تبلغ خمسة عشر مرحلة.

أما المرحلة الثانية وهي التي كانت من العلاقي إلى عيذاب، فجاء تقديرها هي الأخرى على حدى، فقدرها اليعقوبي[٨] وابن رستة[٩] بطول أربع مراحل، أما أبو الفدا فقدرها بطول ثماني مراحل[١٠] وزاد عنهم

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٦٥
(٢) البلدان ص ٣٣٤
(٣) البلدان ص ٣٣٥
(٤) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٤
(٥) تقويم البلدان ص ١٢١
(٦) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦
(٧) المواعظ و الاعتبار ج ١ ص ١٩٧
(٨) البلدان ص ٣٣٥
(٩) الأعلاق النفيسة ص ٣٣٥
(١٠) تقويم البلدان ص ١٢١

الإدريسي وقدرها بطول أثنتا عشر مرحلة[١].

والاختلاف في تقدير طول أو قصر المسافة في المرحلة الأولى والثانية في هذا الطريق في قول المؤلفين العرب لا يمثل خلاف، وذلك لاعتمادهم في تقدير المسافات بالمرحلة، وهذا المقدار غير ثابت لقياس الطرق، لأن المرحلة بمقدار يوم من السير، والسير له من الأسباب ما يعوقه فيطول، وله ما ييسره فيقصر. ولكن الذي لا يمكن الاختلاف فيه ولا خلاف هو أن هذا الطريق استخدمه التجار في نشاطهم التجاري، وخاصة تجارة الذهب.

- وثانيهما: طريق يتجه من أسوان إلى عيذاب مباشرة.

ومن الواضح من وصف ناصر خسرو[٢] لرحلته للحج عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠م، أنه سلك هذا الطريق، ويتبين لنا هنا من تقديره لطول الطريق والذي حدده بطول ٢٠٠ فرسخا أو أكثر، قطعت في ١٥ يوما، ولعل هذا التقدير لهذه المسافة لهي تأكيداً بأن هذا الطريق مخالفا للطريق الأول الذي يخترق أرض العلاقي، لأن تلك الطريق تقدر مسافة عبوره بأكثر من هذه المدة بكثير كما ذكرناه سابقا في قول المؤلفين. فلو عبر إياه لذكر أن المسافة بين أسوان وعيذاب أكثر من هذا، كما أنه لم يذكر في وصفه أي شئ عن العلاقي وأرض المعدن، بل ذكر أن هذا الطريق يكون في رمال ليس فيها عمران، كما أنه ذكر في وصفه أن هذا الطريق يبدأ بعد ثماني فراسخ من أسوان بعبور جهة تسمى الضيقة وسعتها مائة ذراع، على جانبيه حائطان من الجبال.

وإذا قارنا بداية وصفه للطريق، لوجدنا أنه مطابقا لما وصفه اليعقوبي عن بداية الطريق الذي يخترق أرض العلاقي، فذكر أن الطريق الذي يتجه من أسوان إلى العلاقي يبدأ بموضع يقال له الضيقة وهو بين جبلين[٣]، ومن الوصفان عن بداية كل من الطريقين يتبين لنا أن كلاهما يبدءان من نقطة واحدة، و من ثم يتجه كل منهما في اتجاهه.

ومن خلال قول ناصر خسرو[٤] ويتبين لنا أن هذا الطريق كان استخدامه في المقام الأول لأداء فريضة الحج، فذكر أنه حينما أراد عبوره انتظر بأسوان عودة الحجاج بالجمال لاستأجارها ونتيجة للنشاط المستمر لذهاب الحجاج وعودتهم عبر هذا الطريق عرف فيما بعد بطريق الحجاز، فقد ذكر ابن سعيد من أراد الحج ذهب بطريق الحجاز والذي سمي بالوضح. وذلك لأن الطريق منه يتضح خاليا من الجبال المتشابكة، وقد قدر طوله بـ ٦١ درجة وعرضة يقارب ٢٣ درجة ، وذكر أنه يقع يمينا من وادي العلاقي[٥] وأضاف أبو الفدا أنه يقع يمينا من العلاقي من جهة الشرق[٦].

وفي نهاية القول عن الطريق بين أسوان وعيذاب والذي سلك عدة مسارات قد شهد على رواج الحركة التجارية بين البلدين وساهم في نشاطها.

---

(١) نزهة المشتاق ج ١ ص ٤٧

(٢) سفر نامة ص ١٣٢-١٣٣

(٣) البلدان ص ٣٣٤

(٤) سفر نامة ص ١٣٢

(٥) بسط الأرض ص ٥٠

(٦) تقويم البلدان ص ١٢١

ب – **الطريق بين أدفو وعيذاب:** لقد ذكر ابن بطوطة أن هذا الطريق يبدأ من قرية تقابل مدينة أدفو من ناحية الشرق تسمي العطواني، حيث كتري منها الجمال وسافر منها مع طائفة من العرب في صحراء لا عمارة فيها، إلا إنها آمنة السبيل، وذكر إن من بعض منازلها موضع يسمي حميثرا (حيث قبر ولي الله أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ هـ /١٢٦٤م)، وقدر الوصول عبر هذا الطريق إلى عيذاب في ١٥ يوما[١] وقد اتصل هذا الطريق بالطريق المتجة من قوص إلى عيذاب في بعض مواضعه ، فقد ذكر ابن جبير أثناء رحله عبر هذا الطريق انه عندما استقر بموضع يعرف بماء دنقاش ، ذكر إن هذا الموضع ملتقي عدة طرق صاعده إلى عيذاب ، منها الطريق الذي سلكة والذي يسمي بطريق العبدين ، وطريق أخر يبدأ من قرية على شاطئ النيل[٢].

ومن الأرجح أن هذه القرية هي قرية العطواني المقابلة لمدينة أدفو، حيث يخرج منها مباشرة طريق إلى دنقاش عبر وادي عباد[٣] ودنقاش هذا يقع في وادي بيزاه الذي يصيب في وادي شعيت شمال جبل المويلحة عند خط عرض ٥٥، ٢٤ درجة شمالا، وخط طول ٥٠ ، ٣٣ درجة شرقا[٤].

وقد أضاف ابن جبير أن هذان الطريقان يجتمعان في موضع آخر غير دنقاش، فذكر" أن لهما مجتمع آخر على ماء يعرف بشاغب، ومنه الوصول إلى موضع أمتان مسلكين، أحدهما كثير الماء إلا أنه وعر المسلك ويقع على مسيرة يوم من شاغب، ومسلك آخر الذي اتخذه شمالا بدلا منه لأنه سهل المسلك، رغم أنه قليل الماء ومدته ثلاثة أيام"[٥].

ويتبين لنا من رحلة التجيبي السبتي في عام ٦٩٦ هـ / ١٣٠٤م خلال مروره بطريق قوص عيذاب للحج أنه ذكر قبل وصوله إلى موضع أمتان (الذي ذكره ابن جبير) بموضعين سلك طريق وعر بلغ فيه الماء عند حميثرا حيث قبر أبي الحسن الشاذلي[٦]

وهذا المسلك الذي سلكة التجيبي في رحلته إلى عيذاب هو الذي تركه ابن جبير، وهو الذي يوجد به موضع حميثرا، وهذا الموضع هو الذي ذكره ابن بطوطة في رحلته عبر طريقة من أدفو إلى عيذاب ويتبين لنا من اتصال الطرق في بعض المواضع من وجود مسارات متعددة غير المسارات الرئيسية يعرفها الأدلاء، حيث تسلكها وفقا لحجم القوافل المارة بالطرق وحاجتها إلى الماء.

جـ – طريق قوص عيذاب :

لقد كان هذا الطريق من أكثر الطرق شيوعا واستخداما في العصور الوسطى وخاصة منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وذلك بسبب ما أصاب مصر من أحداث داخلية كالشدة العظمى في عهد الخليفة المستنصر،

---

(١) ابن بطوطه : رحلته ص ٥٣
(٢) ابن جبير رحلته ص ٣٧
(٣) عبد العال عبد المنعم : دراسات في جغرافية مصر طرق قوص عيذاب ص ١٧
(٤) عبد العال عبد المنعم : دراسات في جغرافية مصر طرق قوص عيذاب ص ٢٧
(٥) ابن جبير رحلته ص ٣٧
(٦) التجيبي السبتي : مستفاد الرحله و الاغتراب ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ١٩٧٥م ص ٢٠٤

وأحداث أخرى خارجية من سيطرة الصليبين على سواحل الشام وفلسطين، وقيام الإمارات الصليبية بها، مما أدى إلى تحول قوافل التجارة والحجاج الوافدة على مصر من سائر أقطار البلاد الأفريقية والأندلس إلى الجنوب، وقد نال هذا الطريق النصيب الأكبر من هذا النشاط، مما ضاعف من قيمته التجارية، ومنذ ذلك الوقت سيطر هذا الطريق على نشاط الحركة التجارية بمصر، وأصبح طريقها الأول أكثر من قرنين من الزمن[1].

لذلك نجده أكثر الطرق ذكرا في كتابات الرحاله العرب، وخاصة المغاربة الذين سلكوا هذا الطريق للحج، فجاء وصفهم جميعا عن رؤية ومعاينة، ومنهم الإدريسي الذي وصف هذا الطريق إجمالا وحدد طول الرحلة عبره بمسيرة ٣٠ يوما[2] أما الزهري فقد ذكر أن هذا الطريق يقدر بمسيرة ١٨ يوما، وقال أنه ليس في هذا الطريق إلا ثلاثة آبار، ولكنه لم يذكر أسمائها[3] أما المقريزي فقد جعل الرحلة من قوص إلى عيذاب تستغرق مسيرة ١٧ يوما[4].

أما ابن جبير فهو أهم وأفضل من وصف هذا الطريق ومنازله في عصره في صورة مذكرات يومية، حيث ذكر في رحلته ما بين قوص وعيذاب التي كانت في عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٧م للحج أن هذا الطريق قد استغرقت الرحلة عليه ١٩ يوما وهو يعرف بطريق العبدين، وقد يلتقي هذا الطريق مع طريق أدفو عيذاب في بعض مواضعه كما ذكرنا سابقا.

أما مراحل هذا الطريق فقد ذكرها ابن جبير أنها تبدأ بالخروج من ضواحي قوص من موضع يعرف باسم المبرز من الجهة القبلية لقوص، ثم وصل منها إلى موضع يسمي الحاجر، ثم قلاع الضباع، ثم محط اللقيطة، ثم ماء العبدين وهو الذي عرف باسمه هذا الطريق، وذكر أن المسافة بين هذه المراحل نصف يوم، وبذلك يكون الوصول من المبرز إلى ماء العبدين بعد يومين، ثم بعد ذلك تطول المرحلة لثلاثة أيام في صحراء لا ماء فيها حتى دنقاش، ثم بعد يوم وليلة يصل إلى شاغب، حيث يتزود بالماء لمرحلة تستغرق ثلاثة أيام إلى أمتان، ومنها إلى موضع مجاج في بعض يوم، ثم تبدأ منه أطول مراحل الطريق إلى العشراء فتستغرق أربعة أيام وهذا الموضع على يوم واحد من عيذاب، ثم الوصول إلى ماء الخبيب وهو موضع على مرأى العين من عيذاب، ثم الوصول إلى عيذاب[5].

ولكن أهم ما قدمه ابن جبير خلال وصفه لهذا الطريق هو كثرة الحركة التجارية ونشاطها عليه، فقد ذكر في ثنايا هذه الرحلة في أكثر من موضع القوافل العيذابية والقوصية الصادرة والواردة، وقد حاول في هذا الطريق إحصاء هذه القوافل فما تمكن من ذلك، لا سيما القوافل العيذابية المحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب، وأكثر ما شاهده من هذه السلع أحمال الفلفل الأسود، فلقد خيل إليه لكثرته أنه يوازي التراب قيمة، كذلك أشار إلى الأمن والأمان على هذا الطريق، حتى أنه وجد أحمال الفلفل والقرفة

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٠١

(٢) نزهة المشتاق ج ١ ص ١٣٤

(٣) الزهرى : كتاب الجغرافيا ، تحقيق محمد حجاج صادق ، المعهد الفرنسى ، دمشق ١٩٦٨ م ص ٤٣- ٤٤

(٤) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٠١

(٥) ابن جبير : رحلته ص ٣٥ - ٣٩

وغيرها من السلع المطروحة لا حارس لها على قارعة الطريق، وقد تركت أما لإعياء الإبل الحاملة لها أو غيرها ذلك من الأعذار، وتبقي بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس[1].

وقد ظل هذا الطريق يؤدي دوره ويحظى بالأمن والآمان للنشاط التجاري حتى عام ٦٩٦ هـ/١٣٠٤م حين اتخذه التجيبي السبتي مسارا له للحج، فقد ذكر أثناء رحلة عبر هذا الطريق أنه شاهد صرر الفلفل الأسود واللك – اللبان العربي – وغير من بضائع الهند ملقاه، أما لموت الجمال أو لإعيائها، حتى تصل إليها جمال آخر، وفي أثناء ذلك كانوا يمرون عليها ويعرضون عنها ولا يتعرضون إليها[2].

ومن الواضح من قول المؤلفين العرب يتبين لنا كيف كان هذا الطريق من أنشط الطرق المارة ببلاد البجة، والذي ساهم في أن جعل من البلدين قوص وعيذاب أهم مراكز التجارة في مصر.

د – الطريق بين عيذاب وسواكن :

وهذا الطريق كان يسلكه في الأغلب الحجاج العائدون بسفنهم من جدة قاصدون عيذاب، فتلقي بهم السفن في مرسى يسمى رأس دوائر وهو ما يعرف باسم رأس دواير.

وقد ذكر ابن بطوطة أن المسافة من هذا المرسى إلى سواكن جنوبا على مسيرة يومين[3]، أما المسافة منه إلى عيذاب شمالا فقدرها بمسيرة تسعة أيام، وقد ذكر أن أهم منازله موضع يعرف باسم ماء مقرور، وموضع آخر يعرف باسم ماء الجديد[4]، ويتبين لنا من قول ابن بطوطة أن هذا الطريق يبلغ طوله أحد عشر يوما، لكن النويري ذكر أن هذا الطريق يقدر بمسافة عشرة أيام[5]. ومن المؤكد أن هذا الطريق قد شهد على نشاط تجاري لا يقل أهمية عن سابقية من الطرق، خاصة وأنه ربط بين أهم موانى البحر الأحمر في تلك الفترة.

هـ – الطريق بين العلاقي وعلوة من النوبة :

لقد شاهدنا في مسارات الطرق السابقة كيف ربطت بين بلاد البجة الماره بها وبين البلاد المصرية من مدن الصعيد، وبالتالي كان لابد أن توجد طرق أخرى تربطها أيضاً ببلاد النوبة، وكان أهمها هذا الطريق.

وقد ذكر اليعقوبي[6] أن هذا الطريق يقدر بمسافة ثلاثين مرحلة، يبدأ من العلاقي ثم إلى موضع يقال له كباو، ثم إلى موضع يقال له الأبواب، ثم مدينة علوة العظمى التي تسمى سوبه، وقد أشار إلى نشاط هذا

---

(١) ابن جبير : رحلته ص ٣٨

(٢) التجيبى السبتى : مستفاد و الاغتراب ص ٢٠٥

(٣) ابن بطوطه : رحلته ص ٢٥٣ – ٢٥٤

(٤) ابن بطوطه : رحلته ص ٢٨٩

(٥) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، تحقيق د . محمد عبد الهادى شعيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٠ ج ٣٠ ص ٢٤٠

(٦) البلدان ص ٣٣٥ .

الطريق وقد اعتمد في المقام الأول على تجارة الذهب، حيث كان يستخرج الذهب من بلاد النوبة من موضع يقال له بركان، ومن المؤكد أن الذهب المستخرج من بلاد النوبة اتجه إلى وادي العلاقي وذلك لأن وادي العلاقي كان في ذلك الوقت يعتبر أكبر الأسواق لتجارة الذهب.

وقد أشار أيضاً إلى هذا الطريق ابن رستة[1] وقد قدر طوله بمسافة ثلاثين مرحلة، وذكر أنه يبدأ من العلاقي وينتهي إلى علوة من النوبة.

وفي نهاية الحديث عن شبكات الطرق في بلاد البجة، نجد أنها مثلت حلقة الوصل بين البلاد المختلفة مما ساهمت في نشاط التجارة لهذه البلاد، وبالتالي انعكست عليها لتجعل منها أكبر الأسواق في العصور الوسطى.

ب – الموانئ التجارية:

لم يدخل حديثنا السابق عن التجارة في بلاد البجة من الإشارة إلى الموانئ التجارية ودورها الإيجابي في خدمة النشاط التجاري. وقد ذكرنا أيضاً كيف شهد ساحل هذه البلاد على قيام العديد من الموانئ التجارية القديمة عليه عبر مراحل التاريخ.

أما في العصور الوسطى فقد شهد هذا الساحل على أكبر حركة تجارية، وذلك نتيجة لسيطرة العرب عليه في ظل الدولة الإسلامية الكبرى، ولما كان لهم من خبرة بنشاط التجارة في البحر الأحمر منذ القدم، أصبح هذا الساحل يضم أكبر مراكز التجارة العالمية، والتي أخذت تمارس هذا الدور قرابة سبعة قرون، وكان أهم هذه الموانئ وأكبرها حجما للتجارة موانئ باضع وعيذاب وسواكن.

١ - ميناء باضع :

لعل هذا الميناء هو أول الموانئ التي ساهم العرب في تأسيسها على خط الساحل السوداني منذ فجر الإسلام، وذلك بعد ازدياد النشاط التجاري للعرب في البحر الأحمر، وجاء نشاط العرب على هذا الساحل نتيجة إلى ظهور القراصنة في مياه البحر الأحمر. وتهديدهم المباشر لمصالح التجار العرب، فقد قام هؤلاء القراصنة من أهل الجانب الأفريقي للبحر الأحمر بهجوم على ميناء جدة – وهو ميناء المملكة العربية السعودية في الجانب الشرقي للبحر الأحمر مقابل سفاجا – في القرن الأول الهجري عام (٧٠٢ م) وقاموا بتخريبها، مما دفع القوة الإسلامية الكبرى إلى احتلال مجموعة جزائر دهلك الأفريقية، وذلك خشية أن تمتد يد هؤلاء القراصنة إلى الداخل فتصل إلى الأماكن المقدسة، أضافه إلى ضمان سلامة التجارة العربية في هذا البحر، ومن هنا بدأ العرب في الاستقرار على السواحل الأفريقية وبدأ معهم النشاط التجاري وممارسته على هذا الساحل، فقاموا بإنشاء عدد من المحطات التجارية التي امتدت على طول ساحله في نقاط منتخبة ومنتقاة مبعثرة كان من أهمها باضع وسواكن من ساحل بلاد البجة[2] غير وتم حديثاً الكشف عن موقع باضع، ففي القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين حاول المستكشفين كشف النقاب عن موضع باضع تحديداً، وأجرى البحث على الساحل السوداني في جزءه المعروف باسم خور نوارات، وتم العثور على بقايا وآثار بلدة مخربة

---

(١) الأعلاق النفيسة: ليدن ١٨٩٢م، ص ٣٣٥ .

(٢) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٨٠٧ .

قائمة على جزيرة صغيرة تعرف باسم جزيرة الريح، ومن خلال الأدلة تأكد أن باضع قامت على هذه الجزيــرة، وأن تلك الخرائب والآثار التي عثر عليها هي بقايا ميناء باضع، وتقع هذه الجزيرة على خط عرض ١٨ درجة و٩ دقائق، وخط طول ٣٨ درجة و ٣٨ دقيقة، وهي قريبة للغاية من خط الساحل، ويكاد يربطها به لسان مــن الأرض المستوية تبدو صخرياً في بعض المواقع[١].

ولعل ما يؤكد أن ميناء باضع قامت على هذه الجزيرة، ما ورد من قول المؤلفين العرب في القرن الثالث الهجري، فذكر اليعقوبي[٢] : "أن من أجناس البجة الذين يعرفون باسم جارين كانوا يقيمون ما بين باضع على ساحل البحر، ووادي بركة"، وقد ذكر ابن حوقل [٣]: "أن بركة تقابل جزيرة باضع وبينهما يوم ".
ومن الواضح من قول هؤلاء المؤلفين تحديد الموقع الذي قامت فيه باضع، فهي تقع على جزيرة كانت بالقرب من الساحل، وتمثلت المنطقة الخلفية لها في خور بركة ودلتاه، وهو ما تم تطابقه وتأكيده على ما عــرف الآن بجزيرة الريح.

ومن المؤكد أن اختيار موقع باضع في هذا الإقليم السوداني جاء عن ميزة تفوق بها عن غيــره، وقــد تمثلت هذه الميزة في أن هذا الجزء من هذا الساحل أكثر اتساعاً منه في أي جزء أخر مــن الــسودان، وذلــك بسبب تراجع الجبال نحو الغرب من جهة، وانفصالهما عن بعضهما من جهة أخرى وذلك بفضل خــور بركــة الذي مثل المنطقة الخلفية لباضع، فقد فصل بين جبل عظيم في الجنوب الشرقي وهو ما يسمى بجبل (أدراو) ويبلغ ارتفاعه ٢٧٠٠ متر فوق سطح البحر، وبين جبل (اداريباب) في الطرف الشمالي الغربي وهو أضــيق مسافة وأصغر حجماً وأقل ارتفاعاً عن سابقه، ليكون بينهما سهل شــمالي شــرقي تغلــب عليــه الــسهولة والاتساع[٤] بهذا تمثلت خلف باضع منطقه مناسبة لممارسة التجارة، لها من مقومات جغرافية وأخرى بــشرية ساهمت في نشاط حركة التجارة بباضع.

وبالرغم من التعرف على الدوافع من قيام باضع وموقعها، إلا إنه لم يتم التوصل إلــى تحقيــق دقيــق موفق للتاريخ الذي قامت فيه واستخدمت كميناء، ومع ذلك فإنه يمكن لنا القول بأنها قامت على أصــح تقــدير في نهاية القرن الأول الهجري، وبداية القرن الثامن الميلادي، ويمكن تأكيد ذلك النتيجة من إشارة المقريــزي عن باضع خلال حديثه عنها، من اتجاه الأمويين إليها هربا من العباسين بعد اختراق بلاد النوبة والعبور إليهــا من منطقة شنقير بالقرب من نهر النيل من خلال طرق ربطها بنهر النيل[٥].

ولكن أهم ما نلاحظه من إشارة المقريزي عن باضع، هو اتصال باضع العربية بممالك النوبة المــسيحية من خلال طرق ربطت بينهما كانت تخترق أرض البجة.
– وهنا يلزمنا التساؤل عن طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين باضع العربية وممالك النوبة المسيحية، إضافة إلى دور قبائل البجة الذين أقاموا بينهما؟

---

(١) صلاح الدين الشامي : المواني السودانية ص ٩٦ .
(٢) تاريخه ج ١ ص ١٩٢ .
(٣) صورة الأرض ص ٥٥ .
(٤) محمد عوض : سودان الشمال ص ١٢٥ – ١٢٦ .
(٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩١ .

والإجابة عن العلاقة التي كانت قائمة بين باضع وممالك النوبة نستنتجها من عدم إشارة المصادر العربية في العصور الوسطى عن أي احتكاك أو محاولة من قبل النوبة تجاه باضع لفرض السيطرة عليها، وهذا يوضح لنا أن العلاقة التي كانت قائمة بينهما اتسمت بالود والتعاون.

ويستمر التساؤل قائم – لماذا تعاون النوبيون المسيحيون مع عرب باضع في ظل خلاف عربي إسلامي نوبي مسيحي؟

ولعل ذلك لأنهم كانوا يضعون في اعتبارهم أن باضع هي النافذة الرئيسية التي تربطهم بالعالم الخارجي، وسبيلهم إلى المشاركة في التجارة الدولية، وأن أي اعتداء على عرب باضع قد يدخلهم في نزاع حقيقي مع الدولة الإسلامية الكبرى التي يحتمل تدخلها للدفاع عن مصالح التجار العرب. وبالتالي السيطرة على خط الساحل وحرمانهم من التجارة الخارجية، ويعني ذلك أن علاقات الود والصداقة التي كانت قائمة بين الممالك النوبية وباضع كانت تُعبر عن رغبة ملحة في الإبقاء على خط الساحل وموانيه بعيداً عن السيطرة الرسمية للدولة الإسلامية، وأن يظل الطريق مفتوحاً للتجارة والوصول إلى مياه البحر الأحمر – أقصر الطرق إلى الأراضي المقدسة – ونهاية القول عن حسن العلاقة بين النوبيين وباضع كانت تفرضها الرغبة والرهبة معا[1].

أما عن دور قبائل البجة القائمون في هذه المنطقة وعلاقتهم بباضع فيمكن لنا معرفتها من خلال حديث اليعقوبي عن ممالك البجة وتقسيمة إيها فذكر لنا: "أن ممالك البجة التي كانت تقيم في هذه المنطقة هما جارين وقطعة، وذكر أيضاً أنهم يتصفون بالقوة والاستعداد الدائم للقتال"[2] ومن خلال وصفه يتبين لنا أن هذه القوة والاستعداد هما سبباً حتمياً لتوفير الأمن والأمان بهذه المنطقة، وبالتالي أدى هذا إلى تأمين وصول القوافل أثناء عبورها في دروب الصحراء في قلب أوطانهم، ولذلك يمكن القول أن العلاقة التي كانت قائمة بين قبائل البجة وباضع علاقة ود وصداقة.

ولم تتوقف علاقة البجة بباضع عن هذا الحد، بل تطلعوا إلى المشاركة في الحركة التجارية القائمة، وخاصة أنها تمر بأوطانهم، يتضح لنا ذلك من قول ابن حوقل فيذكر: "أن بركة تقارب جزيرة باضع وبينهما يوم، وتكون نحو ثلاث مراحل مملوءة ببطون تعرف بقعصة، وهي أجل بطون البجة الداخلة وأكثرها مالا وأعزها"[3] والواضح من قول ابن حوقل عن البجة القائمون بين بركة وباضع، ووصفهم بكثرة المال وعظم الشأن، له دليل واضح على مشاركتهم في الحركة التجارية القائمة وتقاسمهم أرباحها.

ومن خلال الحديث عن علاقة النوبيين والبجة بباضع، يتبين لنا أن التجارة كانت قائمة على عنصر المشاركة والاندماج بينهم ونلاحظ هذا في قول ابن حوقل إذ يذكر: "أن منطقة تفلين الذي يقيم فيها البجة لهم ملك مسلم عربي، وهو مكلف من قبل ملك علوة النوبي، وذكر أنهم يتاجرون ويسافرون إلى مكة وغيرها"[4] ومن هذا القول يتبين لنا كيف كانت التجارة في هذه المنطقة تقوم على مشاركة العناصر المختلفة من بجة

---

(١) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٧٤ – ٧٥

(٢) تاريخه ج ١ ص ١٩٢ – ١٩٣

(٣) صورة الأرض ص ٥٥

(٤) صورة الأرض ص ٥٧

وعرب ونوبة في إدارتها، ويبدو أن هذا الاشتراك والاندماج نتج عن اختصاص كل عنصر بجانب تفوق به، فقد كانت الأرض للبجة وهم ذو معرفة بدروبها، بينما كان للنوبيين السلع التجارية التي قامت عليها هذه الحركة، أما العرب فهم أصحاب الخبرة في تنظيم المعاملات التجارية وإدارتها، وبذلك تكاملت جوانب التجارة بينهم مما جعل في النهاية من باضع مركزا تجاريا عالميا.

– وإذا كان هذا حال سير حركة التجارة حول باضع، فما حالها من الداخل؟

لقد ذكرنا سابقا أن موقع باضع اكتسب مكانا استراتيجيا جعل منها مركزا تجاريا هاما في هذه المنطقة، وهو ما جعل سفن الحبشة وغيرها تحط إليها ببضاعتها، فقد كان النصيب الأكبر للتبادل التجاري مع باضع للحبشة، حيث كانوا يفدون إليها بأنياب الفيلة وبيض النعام وغير ذلك مما يكون ببلادهم، ويتبادلون بها على المصنوعات من الروائح والأمشاط والأسلحة والمنسوجات المتواجده بباضع[1] واستمرت باضع تؤدي وظيفتها على هذه الشاكلة خلال مده من الزمن، ولكن ولم نعد نسمع عن أي نشاط لها بعد مرور خمسة قرون عليها في كتب التاريخ، ولا يوجد تاريخ محدد لانهيارها وخرابها، إنما جاء تاريخ خرابها تقديري بحت، وذلك اعتمادا على قول الشاعر أبوالفتح نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الاسكندراني عنها في قصيدته التي وصف فيها مراسي مابين عدن وعيذاب، فقال:

فدقا مشاتيري فصهريجي نسا ... فخراب باضع، وهي كالمعمورة[2]

وإذا علمنا أن سفينة هذا الشاعر غرقت قرب جزيرة دهلك عام ٥٦٠هـ – ١١٦٨م، وأنه مات بعيذاب عام ٥٦٤هـ / ١١٧٢م، فإن ذلك يعني أن باضع خربت في تاريخ سابق لتاريخ مروره بها كما ذكرها بقصيدته. وإذا علمنا أيضاً أن أحدث أثر كتابي عثر عليه ضمن خرائبها يرجع إلى سنة٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م، فإن ذلك يعني من ناحية أخرى أنها خربت في تاريخ لاحق لتاريخ ذلك الأثر المكتوب، ومن أجل ذلك يظن أنها خربت وانتهى العهد بها كميناء في فترة تمتد فيما بين سنة (٤٢٢ – ٥٤٣هـ / ١٠٥٠ – ١١٥٠م)، وانهيارها خلال قرن من الزمان معقول، لأنه ليس من المعقول أن تنهار باضع وتتحول إلى خرائب في يوم وليلة، ولابد أنها تدهورت كثيرا قبل أن تصل إلى حد الانهيار والزوال[3].

– ولكن لماذا كان التدهور ثم الانهيار والزوال ؟

يحتمل الدكتور صلاح الدين الشامي[4] أن ذلك التدهور نتج عن اضطراب في منطقة البجة، معتمدا في رأيه على قصص الصراعات التي إدعاها بعض البجة في انهيار باضع وهي حدوث المجاعات والحروب الأهلية والهجوم المباشر على باضع نفسها. ويحتمل أن هذه الصراعات ربما كانت بسبب فرض سيطرة بعض القبائل على غيرها لتوسيع مناطق رعيها، مما أدى إلى حدوث الفوضى في منطقة الظهير المباشر، وهذا الاضطراب وحده كفيل بعدم انتظام وصول القوافل من الداخل، مما أدى إلى نقص في الغذاء وحدوث المجاعات، وربما تبع ذلك كله هجوم مباشر على باضع نفسها، مما أدى في النهاية إلى عدم توافر الأمن والنظام بالمنطقة، مما

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٤

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٤

(٣) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٦٩

(٤) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٧١ – ٧٣

ترتب على ذلك كله أن تنهار باضع وتتحول التجارة عنها. وهكذا كانت باضع خلال خمسة قرون قـد سـيطرت فيها على تجارة البحر الأحمر، وجعلت من أرض البجة سوقا حرا تتبادل من خلالها الثقافة والأرباح.

٢ــ ميناء عيذاب :

هي ثاني الموانئ التجارية على ساحل بلاد البجة وأكثرها أهمية وأعلاها شـهرة فـي خدمـة الملاحـة والتجارة في العصور الوسطى. ولا يعني هذا أن قيامها واستخدامها كميناء بدا في هذه العصور، بل يحتمل أن قيامها يرجع إلى زمن ما قبل التاريخ، فنكر أن زمن إنشاء هذه الميناء ومدينتها يرجع إلى زمـن الفراعنـة، وذلك حين اهتموا باستخراج معادن الذهب والزمرد اللذان كانا يتوفران في وادي العلاقي، وظلت هذه الميناء ومدينتها تستخدم لهذا الغرض حتى العصرين البطلمي والروماني، إلى أن جاء الفتح العربي لمصر ليظهر نجمها ويعلو شأنها[١].

وظلت هذه الميناء موجودة طوال فترة العصور الوسطى، حتى جاءت نهايتها، بعد أن قام السلطان المملـوكي الأشرف برسباي بتخريبها عام (٨٣٠ هـ /١٤٢٦م)، وذلك حين سير لها حملة خربتها تماما، وقد ذكـر أن هذا الخراب جاء من خلال أسطول وصل عيذاب فعاقب أهلها على ما حدث منهم من نهب للقافلة التـي كانـت تحمل السلع والأقوات إلى مكة[٢].

والآن لم يبقى من عيذاب سوى خرائب تم اكتشافها في عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٩٦م من قبل عالم الآثـار ثيودور بنت theodrebent، وقد عثر على كوم أثري على مسافة ٢٠كم من حلايب شمالا، عند خط عـرض ٢٢ درجة و١٩ دقيقه و٤٧ ثانية شمالا، وخط طول ٣٦ درجة و٩ دقائق و٣٢ثانية شـرقا، كاشـفا أن هـذا المكان هو موقع مدينة عيذاب، وفي عام ١٣٢٩هـ/ ١٩٢٥م استكمل العالم مري muray دراسـة وتنقيـب هذا الكوم، وانتهت أبحاثه إلى نتيجة هامة، وهي أن هذا الكوم هو بعينه بقايا وأنقاض مدينة عيذاب التي تخلت عنها المقومات البشرية التي كانت تدعم مركز الميناء على خط الساحل، وقد عثر على بقايا المسجد والمقبـرة ضمن تلك البقايا والأنقاض الأثرية، والتي ورد ذكرها على لسان ابن بطوطة، ومع ذلك فقد لاحظ مـن خـلال اكتشافه بعض مظاهر الشذوذ فيما يتعلق باختيار ذلك الموقع الذي لا يعتبر أفضل المواقع من وجهـة النظـر الفنية لقيام ميناء يقوم بخدمة السفن واستقبالها ورسوها[٣].

ورغم ما توصل إليه مري من نتائج إيجابية تدعمها الدراسة الأثرية فإن العالم كمرير kammarer يشك في هذه النتيجة كثيرا، ناقدا إياها معتمدا في ذلك إلى عدم مناسبة موقع هذه الميناء للصفات الطبيعية والفنيـة اللازمة لاستقبال عشرات السفن التجارية الضخمة، ومن خلال نقده للنتائج السابقة تقدم باقتراح ثلاثة مواقـع محتملا أحدهما موقعا لعيذاب، وهذه المواقع الثلاثة متقاربة تسمح ظروفها الطبيعية وشكل الساحل وامتـداد الحواجز المرجانية والأعماق عندها بقيام الميناء الصالح لرسو السفن والاقتراب إليها من عرض البحر[٤].

---

(٣) السيد عبدالعزيز سالم : البحر الاحمر في التاريخ الإسلامي ص ٣٩ – ٤٠

(٤) الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ سنة ١٩٨٧ ص ١٦٨ .

(٥) السيد عبدالعزيز سالم : البحر الاحمر في التاريخ الإسلامي ص ٤١ – ٤٢

(٦)Kammerer,A : le mer Roug A Travers Les Ages.Paris 1925 P.20

– وأول هذه المواقع المقترحة هو مرسى خليج بلا bela الذي يقع شمال رأس علبة فوق خط عرض ٢٢ درجة بقليل بين رأس حداربة وخور شناب، حيث يمتاز الساحل في هذا المكان بانكسارات واضحة في الحاجز المرجاني الساحلي، يؤدي كل واحد منها إلى شرم أو خليج صغير صالح لرسو السفن، ومرسى بلا يقع على أحد هذه الشروم أو الخلجان أمام ثغرة في الحاجز المرجاني، ويمكن الدخول إليه من عرض البحر بطريق يقع على مسافة ثلاثة أميال جنوب غرب رأس حداربة، وتصل أعماق المياه في خليجه الوحلي إلى عشرة أمتار وهو عمق مناسب جدا لغطس السفن في العصور الوسطى[1].

وهذا الاقتراح قد نتفق معه؛ لأن الأسباب الطبيعية التي ذكرها كمرير مرجحا بها أن مرسى بلا الذي يقع فوق خط عرض ٢٢ درجة بقليل ربما يكون هو موقع عيذاب القديمة قد ذكرت من قبل بقرون عديدة، وهي التي امتازت بها عيذاب عن غيرها، فهذه الأسباب ذكرها القلقشندى[2] إذ قال أن عيذاب وساحلها "كانت أكثر السواحل واصلا لرغبة رؤساء المراكب في التعدية من جدة إليه، وإن كانت باحتة متسعة لغزارة الماء وأن اللحاق بالشعب الذي يذبت في قعر هذا البحر".

وبإعادة النظر إلى القول السابق يتبين لنا سببان لتفضيل أصحاب المراكب والسفن لمرسى عيذاب عن غيره في العصور الوسطى، أولهما: سبب جغرافي، وهو أن عيذاب أقرب موقع يقع قبالة جدة مباشرة. وهذا السبب أكده عديد من الرحالة والجغرافيين العرب في العصور الوسطى منهم الإدريسي[3] والحسن الوزان[4] وابن جبير[5] وأبو الفدا[6].

<u>وثانيهما:</u> سبب طبيعي، وهو اتساع الميناء وغزارة الماء ونسبة العمق، إضافة إلى خلوه من الشعاب المرجانية التي كانت تنساب في قعر البحر الأحمر وخاصة بالقرب من شواطئه مما زاد من أمانه. وهذا السبب يتطابق مع ما اقترحة كمرير من أسباب لاختيار مرسى بلا بأنه أحد مواقع عيذاب القديمة.

وربما ما يؤكد صحة ما اقترحة كمرير من كون مرسى بلا أو رأس علبة موقعا لعيذاب، ما أشار إليه ابن جبير الذي وصل إلى عيذاب عام (٥٧٩هـ / ١١٨٧م) والذي يفيد بأن عيذاب تتصل بجبال قريبة منها[7] وليس في هذا الموقع إلا جبل علبة الذي يطل على هذه المدينة من ناحية الغرب، إذ تقع هذه المدينة بينه وبين الساحل فوق خط عرض ٢٢ درجة بقليل[8].

– أما الموقع الثاني المقترح من العالم كمرير لوجود عيذاب به فهما شرما أبو فاطمة والجودي، حيث يبعدان بمسافة ١٥ كيلو متر شمال غرب مرسى حلايب. ويقع شرم أبو فاطمة جنوب رأس أبو فاطمة بمسافة

---

(١) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٨٧.
(٢) صبح الأعشى ج٣ ص ٤٦٤.
(٣) نزهة المشتاق ج١ ص ١٣٤ .
(٤) وصف إفريقيا ج٢ص ١٨١ (وإن كان الحسن الوزان يتكلم عن عيذاب هنا بأنها مدينة زبيدة اليمنية، وقد وهم في ذلك وهو أمر غير صحيح)
(٥) رحلته ص٣٩.
(٦) تقويم البلدان ص١٢١.
(٧) ابن جبير رحلته ص٤٠.
(٨) عبدالعظيم رمضان:الحدود المصرية السودانية ص٢٣٠.

حوالي كيلو متر ونصف عند التقاء خط عرض ٢٢ درجة و ٢٧ دقيقة شمالا مع خط طـول ٣٦ درجـة و٣٣ دقيقة شرقا، وإلى جواره مباشرة شرم الجودي عند التقاء خط عرض ٢٢ درجة و٣٥ دقيقة شمالا وخط طـول ٣٦ درجة و٣٣ دقيقة شرقا. وكلاهما من الشروم التي تؤهلها صفاتها البحرية والأعماق فيها لاستقبال السفن في مرفأ محمي حماية كافية.

– ويبقى بعد ذلك الموقع الثالث، ويقترح أن يكون هو مرسى حلايب الذي يقع شمال غـرب رأس علبـة بمسافة ١٥ كيلو مترا بالتحديد، وعلى مسافة ٢٧ كيلو مترا من شرق جنوب شرق رأس أبو فاطمـة. ولهـذا الموقع من الصفات البحرية ما يؤهله أو يجعله صالحا لقيام ميناء لخدمة التجارة والملاحة، وذلك لأنه يتميـز باتساع المرفأ وملائمة الأعماق عنده لرسو السفن، كما تقع أمامه جزيرتان هما جزيرة (حلايب) المتـصلة بالبر بشريط ضيق من الرمال، وجزيرة (كولا لا) التي يوجد بينها وبين الساحل قناة ضـيقة قليلـة العمـق هادئة، وبالرغم من وجود حاجز مرجاني خارجي على مسافة ستة أميال من خط الساحل تقـع عليـه هاتـان الجزيرتان إلا أن الموقع صالح لرسو السفن في الموضعين، حيث تتراوح الأعماق فيها بين تـسعة او ثمانيـة أقدام[١].

ـ ومن وجهة نظري اتفق مع هذا الاقتراح أيضاً، لأن هذا الموقع يقع قبالة ميناء جدة مباشرة، وأقـرب النقاط إليه على الساحل الغربي للبحر الأحمر، إضافة إلى ذلك ما أشار إليه ابن جبير من أن عيذاب كـان فـي بحرها مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها[٢] وقد سبق القـول أن أمـام مرسـى حلايـب الحاليـة جزيرتين، هما حلايب وكولا لا، مما يرجح بان هذا المرسى هو نفسه ميناء عيذاب.

وهكذا كان كمرير إيجابيا في نقده لاكتشاف مري لتحديده لموقع عيذاب، محتملا الخطأ في نتائجه، مقدما اقتراحاته لمواقع تواجدها مستندا في ذلك للأدلة المقنعة. ومع ذلك فإن الأدلة المادية التي عثر عليهـا مـري تنهض قوية لمجابهة كمرير.

وعلى أي حال فإن الموقع الذي حدده مري لا يبعد كثيرا عن المواقع التي اقترحهـا كمريـر وخاصـة حلايب، فربما كان موقع السكن في بلدة عيذاب يبعد عن موقع المرفأ والمرسـى، فيعنـي أن الكـوم الأثـري المكتشف من قبل بنت ومري هما بقايا المدينة وموقع السكن، وربما ما اقترحه كمرير أحد مراسـي المدينـة والتي يحتمل أن تنتقل من موقع إلى آخر بالقرب منه على مر السنين نتيجة لسبب ما.

ومهما كان موضع عيذاب – فما السبب في قيام ميناء عيذاب بهـذا الموضـع تحديـدا، وخاصـة مـن المعروف أن الموانئ في المناطق الحارة الجنوبية والدفيئة تعاني من الشعاب المرجانية والتي تحول دون بلوغ السفن للشاطئ؟

يرجع السبب المباشر لقيام هذا الميناء في هذا الموضوع تحديدا إلى سيادة الرياح التجارية الشمالية في

---

(٩) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص٨٨.

(١) جورج فضلو حوراني:العرب والملاحة في المحيط الهندى في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر،القاهرة١٩٥٨ ص٢٥.

النصف الشمالي من البحر الأحمر التي تهب طوال العام ويمتد نفوذها حتى دائرة عرض ٢١ درجـة شـمالا، ومن ثم فإن السفن الشراعية القادمة من الجنوب تجد صعوبة في مواصلة الإبحار شمالا، ومـن ثـم تـصبح مضطرة لإفراغ حمولتها على الشاطئين في المراسي الواقعة في مثل هذه العروض (عيذاب من الغرب وجـده في الشرق) وبهذا تتغير وسيلة أخرى للنقل لإيصال سلع الشرق إلى الغرب دون إن ينقطع الطريـق. وفـي ضوء هذا المبرر قامت ميناء عيذاب في العصور القديمة[١].

إما بالنسبة للحواجز المرجانية في البحر الأحمر لم تكن عائقا أمام بلوغ السفن لشاطئ عيـذاب، وذلـك لكون عيذاب مرفأ طبيعي صالح لرسو السفن، لأنه إذا ما كانت هناك أودية تنصرف إلى الشاطئ فإن رواسـبها تحدث ثغرة في نطاق الشعاب المرجانية مما يسهل وصول السفن إلى الشاطئ، وهذا ما حدث لعيـذاب بفـضل واديها وما يحمله من رواسب تجلبها مياه السيول المتدفقة في أعقاب الأمطار التي تـصيب الكتلـة الجبليـة المرتفعة في الداخل بحكم وقوعها على أطراف المنطقة المدارية الرطبة[٢].

كما تبرز ميزة أخرى لهذا الميناء، وهو أنه مرفأ محمي طبيعيا من الرياح التي تعانيها تلك المنطقة مـن البحر الأحمر والتي يكون من آثارها في الحيلولة دون رسو السفن ودفعها إلى خـارج المراسـي وتحطيمهـا، وتتمثل هذه الرياح في ريح باردة شديدة الهبوب تتأثر بطبيعة البحر الأحمر المستغلقة، حيث تثير الأمواج ومـا يترتب عليها من بالغ الأذى والضرر وهي ما تعرف باسم ريح الأزيب، ولعل تسميتها في الأصل بهـذا الاسـم يرجع إلى التسمية الفارسية حيث أن (أشيب) في اللغة الفارسية تعني الضرر والأذى[٣] وهذه القيمة أبرزهـا الرحالة المغربي التجيبي السبتي[٤] في وصفه لعيذاب عند مروره بها في عام ٦٩٦ هـ / ١٣٠٤م إذ يقـول "إنما سكنت عيذاب من أجل مرساها الجيد الذي يكن من الأرياح " وبذلك نكون قد : استعرضـنا فـي القـول السابق موقع عيذاب وأسباب أخياره، وبقي علينا الآن أن نعرف عوامل شهرتها أو نشاطها.

ومن المؤكد أن شهرة عيذاب ونشاطها ارتبط إلى حد كبير بنشاط الجماعات العربية التي انتقلت إليها منذ بداية القرن الثالث الهجري، حيث كانت تمثل في بدايتها في عهد العرب بمصر مركزا حربيا ضد قبائل البجـة، واتضح هذا في أول اشاره إليها في المصادر العربية، وذلك حين ذكرها البلاذري[٥] في كتابه عند حديثه عـن استعانة القمي بالميرة التي حملتها المراكب من القلزم إلى عيذاب، في التغلب على ملـك البجـة"علـى بابـا". وما أن لبث الوقت فترة من الزمن حين اشتهرت بلاد البجة باستخراج الذهب حتى أصبحت مينـاء عيـذاب منفذا رئيسيا لبيعه، وقد ذكر هذا الدور اليعقوبي في قوله: "بأن عن طريق ميناء عيذاب كـان يـأتي التجـار لشراء الذهب والعاج"[٦] وظل هذا الميناء يقوم بهذا الدور طيلة العصرين الثالث والرابع الهجري، كما ذكر

---

(١)جمال حمدان : شخصية مصر دراسة في عبقرية مكان،عالم الكتب،القاهرة١٩٨٠ ص ٥٠٤-٥٠٥.
(٢) عبد العال عبد المنعم : دراسات في جغرافية مصر طرق قوص عيذاب ص٣٢
(٣) صورة الأرض ص ٥٧
(٤) مستفاد الرحلة والاغتراب ص٢٠٦
(٥) فتوح البلدان ص٢٣٩
(٦)اليعقوبي البلدان ص٣٣٥

ابن حوقل[1] والاصطخري[2].

ولما قلت عمليات استخراج الذهب في بداية القرن الخامس الهجري، لم يفقد هذا الميناء قيمته فقد أخذ في الازدهار، مع تدهور طريق درب الحجاج المصري عبر سيناء وقد أكد ذلك ناصر خسرو[3] حين مر بعيذاب في طريقة للحج عام ٤٤٢ هـ /١٠٥٠م ومشاهدته كثرة السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن إليها، محمله بالسلع التجارية التي كانت تنقل إلى أسوان برا.

ولم تلبث عشرة سنوات منذ تاريخ زيارة ناصر خسرو لها حتى أصبحت ميناء مصر الأول، فقد أصبحت الطريق الوحيد للتجارة والحج ما يزيد عن مائتي سنة وذلك من بضع وخمس وأربعمائة إلى بضع وستين وستمائة[4] كانت خلالها أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائد عن مراكب الحجاج الصادرة والواردة ، وهذا قول ابن جبير عنها حين قصدها للحج عام ٥٧٩ هـ /١١٨٧م[5].

وبإعادة النظر إلى وصف المؤلفين العرب لميناء عيذاب ذاكرين كيف أخذت تتدرج عبر الزمن إلى أن وصلت في فترة منه إلى قمة مجدها، وقد نجد أن وراء ذلك مجموعة من العوامل التي ساهمت بدورها في علو شأن هذا الميناء وزيادة أهميته.

وكانت أول هذه العوامل هو الظهير الاقتصادي لها الممثل في أرض المعدن "وادي العلاقي" وكانت القبائل العربية قائمة على هذا المورد الاقتصادي الذي يمثل أهم مناطق تعدين الذهب في العصر الوسيط، وبذلك أصبحت ميناء لتصديره وهذا القول ما أكده اليعقوبي[6] وابن حوقل[7] والاصطخري[8] حتى قيل عنها أنها فرضة وادي العلاقي[9].

ومن العوامل الأخرى التي زادت في أهمية وشهرة ميناء عيذاب هو توافر عنصر الأمن بها والذي يعتبر ضروريا لانتعاش الأحوال التجارية، وكان هذا الأمن موجودا بها منذ عصر المقدسي (ت ٣٨٠هـ / ٩٨٧م) والذي أشار إلى توافر هذا الأمن في منطقة عيذاب[10] وإضافة إلى ذلك ما أشار إليه ناصر خسرو عن توقف هجوم البجة ضد العرب وبالتالي توافر الأمن في المنطقة حين مر بها عام (٤٤٢هـ /١٠٥٠م) حيث

---

(١) صورة الأرض ص ٥٠

(٢) المسالك والممالك ص٣٥(رغم أنه لم يذكرها باسم عيذاب صراحة وذكرها باسم عسب أو عست، كما لم يذكرها ضمن البلدان المصرية في ذلك الوقت، إلا أنه أشار إلى أن الذهب المستخرج من وادى العلاقي كان يمر بطريق البحر الأحمر من خلالها. وقد أكد الباحثين أن اسم عسب أوعست ليس إلا تحريفا ظاهرا لكلمة عيذاب- صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص٨٠)

(٣) ناصر خسرو: سفر نامة ص١٣٤

(٤) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١ ص ٢٠٢

(٥) رحلته ص٣٩

(٦) البلدان ص٣٣٥

(٧) صورة الأرض ص ٥٠

(٨) المسالك والممالك ص٣٥

(٩) ابن سعيد : بسط الأرض ص٥٠

(١٠) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ليدن ١٩٠٩م. ص٢١٥

قال عنهم "البجة ليسو أشرار فهم لا يسرقون ولا يغيرون"[١]، وظل هذا الأمن يتوافر لمنطقة عيذاب وميناءها حتى عصر ابن جبر وقد أشار إلى ذلك حين مر بها في طريقه للحج عام ٥٧٩هـ / ١١٨٧م[٢]، واستمر هذا الأمن حتى لاحظه التجيبي السبتي أثناء مروره بها للحج في عام ٦٩٦هـ / ١٣٠٤م[٣].

ومقابل هذه الفترة الطويلة التي تمتعت بها عيذاب بالأمن والاستقرار، سادت الأحوال السياسية السيئة في المناطق التجارية الأخرى، مما زاد من قيمة عيذاب وأهميتها التجارية، حيث فقد طريق درب الحجاج المصري الذي كان يمر عبر سيناء قيمته، وكذلك موانئ الجزء الشمالي من البحر الأحمر، وذلك بسبب الحركات الصليبية وسيطرتها على سواحل الشام وفلسطين، إضافة إلى ذلك سوء الأحوال في داخل مصر أثناء الشدة المستنصرية التي دامت سبع سنوات (٤٥٧ ــ ٤٦٤ هـ / ١٠٦٤- ١٠٧١م)، وما ترتب عليها أن تحولت طرق الحج والتجارة من مصر وبلاد المغرب إلى الجنوب خاصة قوص وأسوان ومنهما إلى عيذاب[٤].

ولما كان لعامل الأمن والاستقرار دوره في شهرة ميناء عيذاب وأهميته، يرى الدكتور صلاح الدين الشامي[٥]: إن ثمة عامل آخر ترتب على هذا العامل، ساهم أيضاً في علو شان عيذاب، وهو أن هذا الميناء ورث النشاط التجاري لميناء باضع، وذلك بعد انهياره في أواخر القرن الخامس الهجري، وذلك نتيجة للصراع الذي قام بين القبائل البجاوية التي كانت تقيم في ظهيره، مما عطل انتظام وصول القوافل إليه سواء كانت برية أم بحرية، مما أدى هذا الوضع إلى نقص الغذاء وحدوث المجاعات بها حتى فر عنها أصحابها، ومن ثم تحول النشاط التجاري عن باضع إلى ميناء آخر يسود فيه الأمن والنظام. وكان هذا الميناء هو عيذاب الذي كان يتمتع بالأمن والاستقرار في ذاك الوقت، وبذلك انتقل إليه النشاط التجاري القادم من الجنوب عبر البحر الأحمر، والنشاط القادم من مصر عبر نهر النيل والصحراء الشرقية.

ومن العوامل الأخرى التي زادت في أهمية وشهرة هذا الميناء أيضاً، ذلك أنه أصبح يستقبل تجارة الكارم، تلك التجارة العابرة بين الشرق والغرب في عالم العصور الوسطى الإسلامية، حيث كانت السفن المحملة بسلع الشرق الأقصى وعالم المحيط الهندي بجانبية الأفريقي والعربي تنتهي إلى ميناء عيذاب بمعرفة تجار الكارم[٦]، والذي بدا نشاطهم بها منذ عهد دولة الفاطمين، وما إن حلت دولة بني أيوب مكانها حتى

---

(١) سفر نامة ص ١٣٤

(٢) رحلته ص٣٨

(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب ص ٢٠٤

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج١ ص ٢٠٢

(٥) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٧٢-٧٣

(٦) (وقع الاختلاف في مدلول لفظ الكارم هل هو العنبر الأصفر ومن ثم اشتهروا بالاتجار في هذه السلعة التي زاد الطلب عليها، أم أن اللفظ مشتق من اللغة الأمهرية بمعني " الحبهان " أي أنهم كانوا يتاجرون في هذه السلعة، وهناك من يري نسبة هذا اللفظ إلى التجار المشتغلين بهذه التجارة وأن أصلهم من منطقة الكانم وأنهم تجار اشتهروا بتجارة البهار ثم حرفت من الكانم إلى الكارم، وهناك من يري إن الكلمة تعني تجار البحر ومنها تحريف الكلمة كاريم في إحدى لغات ساحل الهند الغربي ومعناها حرفة التجار في البحر الأحمر، ومعني ذلك لتسابهم إلى البحر الذي كانو يسلكونه بين مصادر التوابل في الشرق الأقصى إلى مصر وعبر الديار المصرية حتى ميناء الإسكندرية، وعليه فقد رأي البعض أن لفظ الكارم أو الأكارم أو الكاريمي قد أطلق على جميع من مارس تلك التجارة بمصر سواء كان من المصريين أو من غيرهم، وكان الكارمية أشهر تجار المحيط الهندي، وتلك السلع هي التي أدت إلى ثراء دولة المماليك، وبالمثل فإن قيامهم بالوساطة-

أصبح هؤلاء التجار أهم طبقة تجارية، إذ أصبحت لهم الهيمنة على تجارة البحر الأحمر بين الشرق والغرب[1] وفي ظل هذا كانت عيذاب هي الميناء الرئيسي لهذه التجارة، والتي سجل أحوالها ابن جبير[2] خلال رحلته للحج بها، وما ذكره عنها من الجمع بين وظيفتين أحدهما دينية (الحج) والأخرى تجارية (القوافل العيذابية ـ الكارم) وليس أدل على أثر هذه التجارة على عيذاب مما ذكره من استحداث مساكن الكارم (منازل الجبص) المغايرة لنمط المسكن السائد بها وهو (الأخصاص).

أما في زمن سلاطين المماليك فقد ازداد اهتمامهم بهذه التجارة اهتماما كبيرا، حتى أدت ثراء دولتهم، ومن ثم اهتموا بهذا الميناء الذي يستقبل هذه التجارة، وليس أدل على اهتمام سلاطين المماليك بها بأن خصصوا لها أسطولا يستقبل سفن الكارم، فيما بينها وبين سواكن وما حولها، خوفا عليها من قوم كانوا بجزائر البحر يقومون بالقرصنة والتعرض لها، وقد ذكر القلقشندى[3] "إن عدة هذه السفن خمسة ثم صارت ثلاث، وكان والي قوص هو المتولي لأمر هذا الأسطول، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه".

ومن الواضح من اهتمام المماليك بعيذاب هو إنها كانت الساحل – الميناء – الأول من أربعة سواحل بالبحر الأحمر، التي كان يأخذ بها المكوس من تجار الكارم، فضلا عن إنها كانت أكثر السواحل واصلا لرغبة رؤساء المراكب في التعدية من جدة إليه[4].

وبذلك كان لكل هذه العوامل التي تضافرت فيما بينها دورها في شهره هذا الميناء وقيمته، حتى بات من أهم موانئ البحر الأحمر في استقبال السفن وخدمة وسطاء التجارة. ولكن أين من حديثنا عن النشاط التجاري لعيذاب دور قبائل البجة ومشاركتهم فيه؟[5]

وفي نهاية الحديث عن النشاط التجاري لميناء عيذاب يواجهنا التساؤل، لماذا كان مصيرها التدهور والاضمحلال ثم الانهيار والزوال بعد أن وصلت إلى قمة مجدها خلال الفترات السابقة؟

وللإجابة على هذا التساؤل لابد من معرفة الظروف والأسباب السياسية والحربية والاقتصادية الخارجية وما يقابلها من اضطرابات داخلية خاصة فيما حول عيذاب والطرق المؤدية إليها.

ويمكن أن نجمل أسباب هذا التدهور والاضمحلال والخراب فيما يلي:

– أولا: الأسباب والظروف الخارجية:

و جاءت البداية في تدهور أحوال عيذاب نتيجة لتعرضها لحملة صليبية عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٥م على يد (أرناط) صاحب حصن الكرك الصليبي، وكانت حملته مباغتة أدت إلى نهب المدينة وأخذ ما فيها من سلع

– التجارية بين الشرق والغرب نمت مكانتهم التجارية حتى أصبحوا يمثلون الرأسمالية التجارية في ذلك العصر– صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٣٠)

(١) صبحي لبيب:التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية،القاهرة٢ ١٩٥ص١١

(٢) ابن جبير : رحلته ص٣٩

(٣) صبح الأعشى ج٣ ص ٥٢٤

(٤) صبح الأعشى ج٣ ص ٤٦٨ – ٤٦٩

(٥) عن مشاركة قبائل البجة في النشاط التجاري لعيذاب، انظر سابقاً، التجارة الداخلية، أهم المراكز التجارية، مدينة عيذاب

تجارية فضلا عن حرق عدد من المراكب وتدميرها[1].

أما السبب الذي كان بداية النهاية لعيذاب، فهو اقتصادي وكان هو تحول طريق الحج والتجارة إلى مسار الأصلي (درب الحاج المصري) بعد أن ظل طريق قوص - عيذاب فيما بين ٤٥٠ - ٦٦٦ هـ/ ١٠٥٧ - ١٢٧٣م هو المسار الرئيسي كما يقول المقريزي "إنه خلال هذه الفترة انقطع طريق الحج البري عبر سيناء وأصبح البديل طريق قوص - عيذاب للحج والتجارة مع الهند واليمن والحبشة، وظلت هذه الحالة حتى عام ٦٦٦هـ / ١٢٧٠، إلى أن قام الظاهر بيبرس بكسوة الكعبة وإخراج قافلة الحج في البر - عبر وسط سيناء - فقل سلوك الحجاج لصحراء عيذاب، وهذا فضلا عن انقطاع ورود السفن التجارية إليها عام ٧٦٠ هـ/ ١٣٦٧م"[2].

أما السبب الذي كتب النهاية لعيذاب هو التطور الذي طرأ على مركز ميناء الطور على الساحل الشرقي لخليج السويس، فقد أصبحت منذ أواخر القرن الثامن الهجري الميناء الرسمي لتجارة مصر المملوكية في البحر الأحمر، وبذلك زالت أهمية عيذاب وفقدت قيمتها كميناء تجاري وذلك منذ عام ٧٨٠ هـ/ ١٣٨٧م، فصارت سفن اليمن تصل إليها بدلاً من عيذاب[3].

كما لم يقتصر الأمر على منافسة ميناء الطور لعيذاب فقط، لأنه في نفس الوقت أصبح الميناء المستقبل لسلع الشرق الأقصى هو ميناء عدن وبذلك أصبح ينقل منه هذه السلع إلى الطور وذلك حتى عام بضع وعشرين وثمانمائة للهجرة، ثم انتقلت الأهمية بالنسبة للسلع الوافدة من عالم المحيط الهندي إلى جدة فصارت أعظم مراسي الدنيا[4]، وكان هذا الازدهار لجدة ونمو حركة الملاحة فيها - دون شك - على حساب عيذاب وقيمتها التجارية.

ثانيا: الأسباب الداخلية: وهي التي تضافرت فيما بينها وبين الأسباب الخارجية لزوال عيذاب ومنها: نضوب معدن التبر والذهب في ظهير عيذاب، وذلك منذ أيام الخليفة العاضد الفاطمي[5] كما تعرضت للسلب والنهب من قبل ملك النوبة (داود النوبي) في عام ٦٧١هـ /١٢٧٨م[6].

و تعرض أيضاً طريق قوص - عيذاب للاضطرابات نتيجة لثورات العرب ضد الحكم المملوكي في صحراء عيذاب وذلك منذ عام ٧١٦ هـ/ ١٣١٦م[7]، وعجز هذا الحكم عن قمع هؤلاء العربان الذين ازداد عبثهم في برية عيذاب، حتى قتلوا حاكمها في عام ٧١٩ هـ/ ١٣١٨م من قبل السلطان محمد بن قلاوون، مما دفعه للقيام بإرسال حملة لعقابهم على ذلك[8].

---

(١) ابن جبير : رحلته ص ٥٧ - ٥٩

(٢) المواعظ والاعتبار ج١ ص ٢٠٢

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج٣ ص ٤٦٩

(٤) المواعظ والاعتبار ج١ ص ٢٠٢

(٥) ابن بعرة : كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية ص ٣٩ .

(٦) المواعظ والاعتبار ج١ ص ٢٠٢

(٧) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ٧٠٠ ، ج٢ ص ١٦٢ (أحداث عام٧١٦ هـ)

(٨) نفسه ج٢ ص ١٩٢ (أحداث عام ٧١٩ هـ)

إضافة إلى الأسباب السابقة، سبب أخر وهو ما كان من الاشتباكات التي كانت تقوم دائماً بين حامية المماليك في عيذاب والبجة الساكنين فيها، وقد شاهد ابن بطوطة مثل هذه الاشتباكات عندما وصل إليها في عام ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥م وهو في طريقه إلى الحجاز فقال "لما وصلنا إلى عيذاب وجدنا (الحدرابي) سلطان البجاة يحارب الأتراك (أي جند المماليك) وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه، فتعذر سفرنا في البحر، فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد، وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر"[١].

وذلك الصراع أدى إلى اختلال الأمن في المنطقة، ودار أيضاً صراع أخر بين الأيوبيين وبني الكنز وانتقالهم إلى بلاد النوبة منذ عهد صلاح الدين[٢]

– وأخيراً جاءت النهاية لها وخرابها على يد السلطان الاشرف برسباي عام ٨٣٠ هـ/ ١٤٣٧م حين سير حملة إليها خربتها تماما، وقد ذكر أن هذا التخريب جاء من خلال أسطول وصل إليها فعاقب أهلها على مأحدث منهم من نهب للقافلة التي كانت تحمل السلع والأقوات إلى مكة[٣]

وفي نهاية القول نذكر أن هذه الأحوال والظروف كلها أدت إلى تعطيل طريق التجارة البري والبحري اللذان كانا يربطان عيذاب بغيرها من الموانئ البحرية والنيلية، فتحولت التجارة عنها إلى مينائي جدة والطور كما سبق القول، وبذلك فقدت أهميتها وأصبحت مجرد ميناء محلي لا قيمة له، وكانت آخر خريطة تظهر فيها عيذاب كميناء ولكن في صور ة خرائب، حينما ظهرت في خريطة لفريدوس عام ٩٠٥ هـ /١٥١٣م، ومن ثم ضاع كل أثر لموقع خرائب عيذاب في كل الخرائط التي رسمت للبحر الأحمر وموانيه منذ نهاية القرن العاشر الهجري.[٤]

وهكذا تضافرت العوامل والظروف فيما بينها لتضع النهاية لفصل آخر من فصول قصة أحد مواني ساحل بلاد البجة، وكانت هذه النهاية من جانب آخر، بداية لفصل جديد من فصول قصة موانئ هذا الساحل، وكان هذا الميناء هو مينائي سواكن الذي ازدهر عقب نهاية عيذاب.

٣ – ميناء سواكن :

كان لانهيار عيذاب وخرابها من غير شك، دور رئيسي في تطور هذا الميناء وشهرته، ويعني ذلك أن سواكن أصبحت منذ نهاية القرن التاسع الهجري ـــ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي الميناء الأول على الساحل الأفريقي فيما يقابل بلاد البجة، الذي ذاع صيته في خدمة الملاحة والتجارة العالمية. ولكن من جانب آخر: لا يعني هذا القول بأن ميناء سواكن ظهرت او قامت في تلك الوقت، بل إنها قديمة وكانت معاصرة لأكثر من ميناء من الموانئ التي تعاقبت في قيامها وشهرتها على هذا الساحل. بمعني آخر: أنها قامت بوظيفة الميناء وخدمة التجارة والملاحة قبل أن تمنحها الظروف الفرصة الملائمة لأن تلمع وتشتهر وتتحول إليها

---

(١) ابن بطوطة : رحلته ص ٥٣

(٢) عن الصراع الذي دار بين بني الكنوز وصلاح الدين انظر عطية القوصي : دولة الكنوز الإسلامية ص ٧١ – ٧٩

(٣) الحسن الوزان : وصف إفريقيا ص ٥٥٨

(٤) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٩٥ – ٩٦

السفن الكبيرة[1].

ولعل ما يؤكد قدم سواكن ومعاصرتها للموانئ الأخرى على هذا الساحل، ما ذكره المقريزي في أقدم إشارة عنها في بداية القرن الثاني الهجري ــ منتصف القرن الثامن الميلادي، حينما ذكرها هي وميناء باضع في حديثه عن اتجاه فلول الأمويين إليها هربا من العباسيين[2] ويؤكد هذا القول أيضاً ابن حوقل في كتابه الذي وضعه في منتصف القرن الرابع الهجري ــ نهاية القرن العاشر الميلادي عن معاصرة ميناء سواكن لباضع على ساحل البحر الأحمر، خلال حديثه عن وادي بركة ونهره الذي يصب بينها[3].

وهكذا يكون هؤلاء المؤلفين قد أكدوا لنا ما ذكرناه سابقا عن معاصرة سواكن للموانئ التي قامت على هذا الساحل، وإن موقعها كان يستخدم في التجارة والملاحة في تاريخ سابق لانهيار عيذاب.

وقد نجد من الكتاب والباحثين ما ذهب بموقع سواكن إلى أبعد من هذا التاريخ، فقد أورد الدكتور صلاح الدين الشامي[4] أن عددا من الكتاب والباحثين قد ذهبوا بموقع سواكن على أنه أقدم المواقع التي أقيم فيها ميناء على هذا الساحل، فقد ذكر أن الأستاذ الشاطر بصيلي أكد على أن موقعها قد مارس فيه اليونان البطالمة نشاطهم البحري والتجاري منذ قدومهم على هذا الساحل، كما ذكر أيضاً أن العالم كروفت craufoot افترض أن موقعها كان يقوم عليه ميناء بطلمي يسمى ليمن إيفنجليز، وذكر أيضاً أن العالم ليدن lyden رجح أن سواكن قد قامت في موضع الميناء البطلمي سوترليمن soterlimen .

ومهما يكن من قول فإن إصرار الكتاب والباحثين على أن موقع سواكن كان في خدمة التجارة والملاحة منذ أقدم العصور التاريخية، له إدراك تام لقيمة هذا الموقع ومميزاته، والتي لا يمكن أن يغفل عنها التجار القدماء.

وربما تكون بداية هذا الميناء كما ذكر قد أسست على أيدي العرب في فجر الإسلام، وذلك حينما بدأ استقرارهم على السواحل الأفريقية منذ القرن الأول الهجري بعد عام ٧٠٢ م لضمان سلامة التجارة العربية على هذه السواحل، وبالتالي قاموا بإنشاء عدد من المحطات التجارية عليها في نقاط منتخبة ومنتقاة كان من بينها موقع سواكن[5] حتى قيل أن اسمها ينحدر في الغالب من أصل عربي أصيل، فمصدره مشتق من كلمة عربية وهي كلمة (سوق) لكثرة ما بها من تعامل تجاري، ثم اشتق منها لفظ سواكم ثم حرف فيما بعد إلى سواكن[6].

---

(١) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ٩٩

(٢) المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩١

(٣) صورة الأرض ص ٥٧

(٤) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ١٠٠

(٥) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٨

(٦) (وقد وردت عدة مسميات عن اسم سواكن واصله، فقد ذكر أن اسمها مصدره اسم مصري قديم وهو (شواخن) ويعني بذلك أنها كانت محطة شوا التي تعتبر أحد الاقاليم النيلية الحبشية، وخن التي تحولت إلى كن نظراً لخلو أبجدية اللغات البجاوية من حرف الخاء، كما ذكر أيضاً أن اسمها اشتق من لفظ (سجون) جمع سجن إذ كان موقعها مستخدم سجناً يضم الخارجين عن القانون والمجرمين، وذكر أيضاً أن اسمها مصدره جاء عن ارتباط موقعها بقصة طويلة تسمى قصة (السبعة جن) ثم جاء منها اسم سواكن. وهذه المسميات ما هي إلا آراء وافتراضات وقصصاً يتداولها الناس ويذكرها بعض الكتاب لتحليل الاسم . والواقع أنه ليس من السهل علينا القطع برأي معين في ذلك الموضوع، لأنه ليس ثمة دليل يمكن الاعتماد عليه في ذلك، ومهما يكن من أمر فنحن لا نهتم كثيراً بتحليل الاسم أو الوصول إلى –

ونحن نؤكد صحة ذلك القول القائل بأن سواكن قامت بفضل العرب وربما أُسست بأيدهم، لأن اسم سواكن ورد ذكره لأول مرة خلال القرن الثاني الهجري ـ الثامن الميلادي، وكان ذلك عندما مرت بها فلول أسرة بني أمية الهاربة من العباسيين[1] وهذا التاريخ في واقع الأمر يتفق مع نشاط العرب النازحين والمهاجرين من جنوب شبه الجزيرة العربية وإقبالهم إلى المواقع الملائمة على خط الساحل الغربي للبحر الأحمر من أجل التجارة وخدمة الملاحة.

وخلال الحديث عن فضل العرب ودورهم في قيام سواكن وربما تأسيسها يواجهنا تساؤل وهو – بما أنه كان للعرب فضل في قيام سواكن وربما تأسيسها لم تحظى بالقدر الكافي من الاهتمام من ذكر قيمتها التجارية في كتابات مؤلفيهم التاريخية إلا بعد انهيار عيذاب؟

وقبل الإجابة عن هذا التساؤل لابد لنا من معرفة موقعها التي كانت توجد فيه، ربما يحمل الحديث عن ذلك في طياته بعضا من الإجابة، وقد حدد المؤلفون العرب موقعها في العصور الوسطى بأنها تقع على ساحل البحر الأحمر كما ذكر ياقوت الحموي[2]، وقد حدد ابن سعيد أن موقعها يقع جنوب عيذاب، ويحدها جنوبا جزائر دهلك، أما غربها فيقع إقليم التاكة الذي يضم خور بركة، وحدد المسافة بينها وبين عيذاب في البر سبع مراحل[3].

أما ابن بطوطة فقد ذكر المسافة بينهما في البر مسيرة إحدى عشرة يوما، ومسيرة سبعة أيام في البحر[4]، أما النويري فذكر أن المسافة بينهما في البحر عشرة أيام[5]، كما ذكر ابن بطوطه أيضاً أنها تبعد عن الساحل بمسافة ستة أميال[6]، وهي تقع على جزيرة من الجزائر القائمة في الساحل من جزائر بلاد البجة[7]، وقد قدر المقريزي مسافة هذه الجزيرة بأنها أقل من ميل في ميل[8] أما الآن فمن المعروف أن موقعها يقع على ساحل البحر الأحمر في السودان على خط عرض ١٩،٥ درجة شمالا وخط طول ٣٧،٥ درجة شرقا في وسط سهل ساحلي منخفض يحاذي البحر الأحمر، وهذا السهل يحده من الشمال كتلة جبلية يزيد ارتفاعها عن ألف متر فوق سطح البحر، تنحدر في أطرافها الجنوبية انحدارا تدريجيا حتى تنخفض إلى مستوى لا يزيد عن ثلاثمائة متر، وتستمر في الانحدار حتى تختلط بالسهل الذي توجد فيه سواكن، والذي ينخفض هو أيضاً تجاه الجنوب حتى ينتهي بفجوة تفصل بينه وبين هضاب إريتريا، وبداخل هذه الفجوة يجري

– مصدره الذي انحدر منه. وإن كنا نعتقد أنه انحدر في الغالب من أصل عربي أصيل– صلاح الدين الشامي:الموانئ السودانية ص ١٠١، ١٠٤، ١٠٥)

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩١

(٢)معجم البلدان ج٣ ص٢٧٦

(٣) بسط الأرض ص٥١

(٤) رحلته ص٢٥٣–٢٨٩، ٢٥٤

(٥) نهاية الأرب في فنون الادب ج ٣٠ ص ٢٤٠

(٦) رحلته ص ١٨٨ .

(٧) الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشر mf.mehran ١٩٢٣ص ٢٦٩ .

(٨) المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٧

خور بركة[1] وهذا ما يحدها شمالا وجنوبا، أما من الشرق فيحدها البحر الأحمر ومن الغرب فيوجد خور (أربعات) الذي يقع في منطقة الجبال الخلفية لها، وهو من أشهر الأودية في جبال البحر الأحمر لأنه يكاد يكون الخور الوحيد الذي تصل مياهه إلى البحر، وتبدأ احباسه العليا على مسافة حوالي ٨٠ كيلو متر جنوب غرب سواكن، في سلسلة من سلاسل البحر، ويمر بمسافة تبلغ ١٠٠ كيلو متر في قلب المنطقة الجبلية الوعرة قبل أن يغير اتجاهه العام تغييرا مفاجئا صوب الشرق لكي ينساب على المنحدرات الشرقية، وتقدر مساحة تجمع هذا الخور وروافده بحوالي ٤٠٠٠ كيلو متر مربع[2].

وهذا عن موقعها أما موضعها تحديدا فتوجد سواكن على جزيرة داخل خليج شبه دائري يكون بداخل الساحل وموازيا له، ويمكن الوصول إليها من عرض البحر من خلال اختراق ثغرة في امتداد مرجاني يكون محاذيا للساحل داخل البحر، وهذه الثغرة التي توجد في هذا الحاجز المرجاني تكون معقولة ومعتدلة، حيث توفر العمق الملائم لمرور السفن إلى المرفأ بالداخل، وهذه الثغرة تتصل بذراع مائي طبيعي يمتد من الشرق إلى الغرب في هذا الحاجز المرجاني الخارجي، وتكون جوانب هذا الذراع منتظمة ومستقيمة حتى يتصل بقناة مائية تخترق الساحل لتكون امتدادا مائيا له، وهذه القناة المائية التي تخترق الساحل تتميز بطول المسافة فتبلغ مسافة ٢ ميل، ويبلغ أقل عرض لها ٢٠ ياردة، ثم تتصل بعدها مباشرة بذراع آخر تكون عمودية عليه، ويكون هو موازيا لخط الساحل يبدو في شكله شبه دائري غير منتظم توجد فيه جزيرة سواكن[3].

وبعد أن عرضنا موقع سواكن وما له من صفات ومميزات مناسبة تؤهله لاستقبال السفن منذ نشأته يزداد التساؤل أكثر إلحاحا في الكشف عن السبب الذي لم يجعل لها القدر الكافي من الاهتمام من ذكر قيمتها التجارية فى كتابات المؤلفين العرب إلا بعد انهيار عيذاب.

ومن المؤكد أن قيمة سواكن التجارية خلال هذه الفترة كانت محدودة إذا ما قورنت بقيمة كل من باضع ومن بعدها عيذاب. ويرى السبب في ذلك الدكتور صلاح الدين الشامي[4] أن جزءا كبيرا من تجارة الأقاليم السودانية كانت تمر بطريق باضع ثم عيذاب لما لهما ـ على التوالي ـ من علاقات متزايدة مع التجارة الدولية، بالإضافة إلى أن سواكن لم تكن على صلة وثيقة بالسفن الملاحية الكبيرة القادمة من المحيط الهندي في ذلك الحين، ولذلك كانت باضع ثم عيذاب من خلال شهرتهم وطبيعة خدمتهم للتجارة والملاحة تقلل من دور سواكن وتحجبه فلم يكن لقيمتها ذكر في أي من مؤلفات العرب التاريخية إلا بعد انهيارهما.

ونحن نقبل هذا الرأي ونؤكده بان نضرب لذلك مثلا: فعند ذكر اسم سواكن لأول مرة ذكرت بجانب باضع، وكان ذلك في بداية القرن الثاني الهجري ـ منتصف القرن الثامن الميلادي كأحد موانئ البحر الأحمر

---

(١) محمد عوض : السودان الشمالي ص١٠٨

(٢) السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشرى والبناء الاقتصادى ، تأليف : د / محمود محمد الصياد – د / محمد عبد الغني سعودى ص ٤١ .

(٣) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ١٠٢ – ١٠٣

(٤) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ١٠٦

الذي يمكن الوصول إليها من النيل[1]، لكن في عام ٢١٦ هـ / ٨٤١ م لم يرد ذكر اسمها في عقد الأمان الذي أعطاه عبد الله بن الجهم إلى كانون بن عبد العزيز عظيم البجة ضمن بلاد البجة، في حين أن اسم باضع ذكر فيه[2].

وما أن جاء القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي ولمعت شهرتها وزادت قيمتها حتى عاد اسمها يذكر كأحد موانئ بلاد البجة الهامة، ولكن اسمها كان هذه المرة بجانب عيذاب كما أشار الدمشقي[3].

ومن الواضح هنا أن اسم سواكن عندما ذكر لأول مرة ذكر بجانب باضع، ثم اختفى خلال الفترة اللاحقة من جانبها، وهذا يؤكد سيطرة باضع على تجارة هذه المنطقة خلال هذه الفترة مما أضعف من قيمة سواكن فلم يعد لها ذكر، وما أن انهارت باضع وتلاشت وقامت عيذاب من بعدها حتى سيطرت هي الأخرى على تجارة هذه المنطقة وبالتالي استمر ضعف قيمة سواكن فلم تذكر أيضاً خلال هذه الفترة وما أن أخذت عيذاب في الضعف والانهيار، بدأت قيمة سواكن من القوة والازدهار تسيطر على تجارة هذه المنطقة حتى عاد اسمها يذكر منذ ذلك الحين مرة أخرى.

ورغم تقبلنا لهذا الرأي وتأكيده، لا نعني بذلك مطلقا أن القيمة التجارية لسواكن – خلال الفترة التي سيطرت فيها باضع ومن بعدها عيذاب على تجارة هذه المنطقة – قليلة الشأن، لأن قيمتها التجارية لم تكن محددة حينها إلا للنشاط التجاري العربي، أما لنشاط تجاري آخر كانت عظيمة الشأن، وهذا النشاط هو النشاط التجاري النوبي المسيحي، فكانت سواكن خلال هذه الفترة أهم المراكز التجارية لدويلات النوبة المسيحية، لأنها بمثابة النافذة الوحيدة التي يطلون منها على التجارة العالمية، ولعل ما يؤكد قولنا ما أشار إليه ياقوت الحموي الذي حدد صفة سكانها بأنهم من البجة السود النصارى[4]

والواضح من هذا القول، إن المسحيين المستقرين في سواكن هم في الغالب الممثلين للتجار الذين يستخدمونها، وهم الذين يتعاملون مباشرة مع دولتي النوبة المسيحية والحبشة، ولا شك كان لهذا أثره في اعتناق أهل سواكن النصرانية. ويبدو من ذلك أن النوبيين عملوا على تنصير أهل سواكن ونقل الثقافة النوبية المسيحية لهم لتقوية الروابط بينهم، حتى يضمنوا سلامة سير تجارتهم إلى الخارج، خاصة بعد سيطرة العرب على النشاط التجاري لهذا الساحل، فأصبحت سواكن منفذ تجارتهم الوحيد وبذلك كان لابد من توفير عامل قوي يضمن ولاء سكانها لهم.

ولقد أدرك العرب مدى القيمة التجارية لسواكن وأهميتها لدويلات النوبة المسيحية، حتى قبل انهيار عيذاب بأكثر من قرن، فتوجهت أنظارهم إلى إحكام السيطرة عليها وخاصة دولة المماليك بمصر حتى عمل سلاطينهم على إحكام السيطرة عليها في النهاية.

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩١

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٥

(٣) الدمشقي : نخبة الدهر ص ٢٦٩ .

(٤) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٧٦ .

وربما كان الدافع وراء ذلك وضع الحد للتهديد المباشر أو غير المباشر الذي كان يعترض تجارة البحر الأحمر من قبل النوبيين من ناحية، وإحكام الرقابة على دويلاتهم المسيحية وعلاقاتها مع الخارج من ناحية أخرى، وربما كان الاهتمام منبثقا من الرغبة الملحة في تقوية الروابط بين الدول العربية الإسلامية وبين الأعداد المتزايدة من العرب والعناصر العربية التي استقرت في السودان[1].

ولقد حانت لهم الفرصة من السيطرة على سواكن في عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٤م حين تعرض صاحبها الشريف (علم الدين اسبغاني) للتجار وساء معاملتهم، وأخذ مال وميراث من مات منهم في البحر ومنع أولادهم منه، فأرسل إليه السلطان يطالبه بحسن معاملة التجار، فلم تُغن المكاتبات شيئا، فاتبع ذلك بإيفاد حملة حربية بقيادة حاكم قوص (علاء الدين الخزندار) لتأديب صاحبها وسكانها، فتوجه إلى عيذاب ومنها إلى سواكن بأسطول بحري يزيد عن أربعين مركب، وحين وصلها كان صاحبها قد فر منها، فدخل سواكن وفتحها في هذا العام المذكور وأقام بها ومهدها وقرر أحوالها، وبعدها عاد إلى قوص، وما أن فارق الخزندار سواكن وعلم بذلك الاسبغاني حتى عاد إليها، وكان الخزندار قد ترك بها حامية اصطدم بهم فقاتلوه أشد قتال حتى هُزم وفر منها[2].

ومنذ ذلك الحين سقطت سواكن في قبضة المسلمين وكان لذلك مغزاه السياسي والتجاري بعيد الأثر، لأنه يعني إحكام السيطرة والرقابة العربية الإسلامية على المنفذ التجاري البحري الوحيد للنوبيين من ناحية، ومن ناحية أخرى يعتبر تهديد مباشر لمعاقل المسيحية في السودان. وبذلك باتت آخر الطرق التي كانت تجد فيها دويلات النوبة منفذا إلى العالم الخارجي قد فقد، مما يؤدي إلى الضرر بمصالحها الاقتصادية وعزلهما عن العالم الخارجي، ولا سيما الاتصال بالأراضي المقدسة بفلسطين[3].

وبما أن سقوط سواكن أصبح في نظر مسيحي النوبة تهديدا مباشرا وخطرا محدقا لمصالحهم الاقتصادية والتجارية؛ بأن رد الفعل المباشر لهم والذي تمثل في الهجمات الذي قام بها ملك النوبة (داود) على ثغر عيذاب ومدينة أسوان عام ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م وعاث فيهما خرابا، كما امتنع عن دفع البقط[4].

والواضح من هجوم ملك النوبة تجاه بلاد المسلمين التجارية وإلحاق الضرر بها، كان دافعه الرئيسي ناتج عن استيلاء المماليك على سواكن[5]، ولكن رغم محاولات النوبيين للسيطرة عليها والسعي إلى استردادها مرة أخرى، بذل المماليك كل ما في وسعهم لحمايتها وإقرار سلامة التجارة بها، ولتحقيق ذلك كانوا دائما يرسلون إليها الحملات العسكرية، حتى يحفظوا السلام في ظهيرها وتثبيت السلطة بها، وكانت من بين تلك الحملات إلى ذلك، الحملة التي سيرها السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) في عام ٧١٦ هـ/ ١٣١٦م وذلك

---

(١) صلاح الدين الشامي : الموانئ السودانية ص ١٠٩

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج٣٠ ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

(٣) مكى شبيكة : السودان عبر القرون، القاهرة ١٩٦٤ ص ٣٠

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠٨

(٥) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٤٥

للقضاء على عبث العربان في برية عيذاب حتى سواكن، ولتثبيت يدهم على هذه المنطقة وتأمين التجارة المارة بها، وقد سلكت هذه الحملة الطريق البري من قوص إلى عيذاب، ومنها برا إلى سواكن، فخرج إليها صاحب سواكن بالطاعة والانقياد إلى أوامر السلطان، وقرر على نفسه قطيعة يحملها إلى الأبواب السلطانية في كل سنة، وهي ثمانون رأسا من الرقيق، وثلاثمائة رأسا من الجمال، وثلاثون قنطارا من العاج، وجعل نفسه نائبا للسلطان عليها[١].

ونستنتج من هذا القول مدى التنافس القوى بين السطة المملوكية والقبائل العربية من جانب، والسلطة المملوكية المسلمة ودويلات النوبة المسيحية من جانب آخر، وسعى كل منهم لفرض نفوذه على سواكن والسيطرة عليها، وإن ذلك يدلنا بطريقة عملية على مدى القيمة الاستراتيجية والاقتصادية لميناء سواكن آنذاك.

ولكن في ظل هذا التنافس القوى بين العناصر المختلفة للسيطرة على سواكن، سعى البجة إلى التمسك بها والاستمرار في إدارتها، وتمثل ذلك في إعلان صاحبها البجاوي الطاعة والولاء لسلطة المملوكية مقابل أن يظل حاكما عليها.

والمؤكد من تمسك البجة بإدارة سواكن لكثرة المكاسب والأرباح التي كانوا يحصلون عليها، وقد أشار ابن سعيد ما كان يقدمه البجة من مجهود حربي في هذه المنطقة لضمان سير التجارة إليها، فكثيرا ما كانت تقام الحرب بينهم وبين أصحاب الجزائر الأخرى في المنطقة وخاصة صاحب جزيرة دهلك، والواضح من سعي البجة من إقرار السلام في هذه المنطقة لتأمين الطريق أمام السفن التجارية التي كانت تفد إليها وخاصة مراكب الكارم التي كانت تأتي من بر العرب والحجاز واليمن عبر البحر[٢] وكما سعى البجة إلى إقرار الأمن والسيطرة في البحر سعوا إلى تحقيق ذلك في البر، فقاموا بإخضاع القبائل العربية القائمة في هذه المنطقة تحت طاعتهم وخاصة عرب جهينة وبنو كاهل، كما قاموا بالإشراف على الطرق البرية التي تصل سواكن بالمراكز التجارية وخاصة الطريق بينها وبين عيذاب وجعلوا أنفسهم حرسا عليه، هذا فضلا عن توفير مصادر المياه بها المتمثله في حفر الأبار[٣].

والواضح من اهتمام البجة بتيسير الطريق أمام سواكن برا وبحرا، لهو دليلا على قوة الحركة التجارية بها وزيادة نشاطها، وما يترتب على ذلك من تحقيق أعلى المكاسب والأرباح، ولكن من المشار إليه من قول المؤلفين عن أهل سواكن يتضح لنا أن إدارة هذه الحركة التجارية وحصول الفائدة منها اقتصر على فئة معينة منهم.

فقد أشار المقريزي[٤] أن أهل سواكن من البجة من العنصر الذي يقال له الخاسة، وقد ذكر الدمشقي[٥] أن هؤلاء الخاسة ينقسمون إلى الخاسة السفلى وهم كفار، والخاسة العليا وهم مسلمين.

---

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ١٦٢

(٢) بسط الأرض ص ٥١ .

(٣) ابن بطوطة : رحلته ص ٢٨٩

(٤) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٧

(٥) نخبة الدهر ص ٢٦٩

والراجح من هذا القول أن الخاسة المسلمين هم الذين كانوا يسيطرون على إدارة الحركة التجارية بسواكن، ولهم الفائدة من تجارتها دون غيرهم، لذلك وصفهم الدمشقي بعلو الشأن.

وقد أكد ذلك ابن سعيد[١] من خلال حديثه عن صاحب سواكن، وذكره بأنه من البجة المسلمين، وهو المسئول عن جمع الضرائب من سفن الكارم وتجارتها، وإدارة الحركة التجارية والسياسية بها.

ويمكن القول بإن الدرجة العليا التي منحت للمسلمين من البجة بسواكن قد أعطتها لهم الدولة الإسلامية بمصر، اعتبارا بأنهم من رعاياها ونوابها في إدارة سواكن وحكمها. ومنذ ذلك الحين أصبحت سواكن من أكبر الموانئ التجارية الإسلامية وأعلاها شهرة وأكثرها أهمية على خط الساحل الأفريقي.

وفي نهاية الحديث عن سواكن ومهما يكن من أمر فقد انتهت الفترة الأولى من تاريخ حياة سواكن، ولكن دون إغفال الحقيقة الواقعية وهي انتقال سواكن من حال إلى حال ترتب على المحنة التي تعرضت لها عيذاب ــ كما ذكرنا من قبل ــ على يد سلطان المماليك، والتي ترتب عليها أن فر وهاجرعنها بعض أهلها إلى سواكن لاستئناف حياتهم في خدمة الملاحة والتجارة، لأنهم كانوا قد ارتبطوا فعلا بذلك المورد من موارد الكسب، وتؤكد المصادر أنه في تلك الفترة بالذات والتي خربت فيها عيذاب وصلت السفن التجارية الكبيرة المحيطية إلى سواكن من الهند والصين وجدة وقد أشار إلى ذلك كلا من ياقوت[٢] وابن سعيد[٣]، وكان ذلك كله بداية لعهد جديد لها، وتصدرت منذ ذلك الحين موانى الساحل السوداني، واعتلت مرتبة ممتازه بين موانئ البحر الأحمر بصفة عامة.

وصفوة القول أن قبائل البجة ساهمت بشكل مباشر فى النشاط الاقتصادى ودروبه، خلال الفترة التى برز فيها الإقليم على المستوى المحلى والإقليمى والعالمى. ورغم ما اتصف الإقليم من جو جاف وبيئة صحراوية، فقد استطاع البجة أن يزرعوا بعض المناطق التي توفرت فيها ظروف الزراعة، مستعينين في ذلك بمن جاورهم من الشعوب المزارعة. وفي ظل ذلك لم يغفلوا حرفة الرعي، فاقتنوا أفضل الحيوانات وأنتجوا أفضلها. أما التجارة فقد لمع صيتها في هذه البلاد؛ لما توافر لديها من المعادن النفيسة ذات القيمة العالية من ذهب وزمرد، فنشطت حركة التجارة وازدادت المراكز التجارية أهمية، وبالتالي كان للطرق المؤدية إليها دور كبير في هذه الحركة. وفي ظل هذه الحركة برزت الموانئ التجارية التي كان لها عظيم الأثر في إعلاء قيمة هذا الإقليم على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي، من خلال تعاقب الأدوار فيما بينها لتمنح هذا الإقليم فترة من النشاط الاقتصادي يتجاوز عشرة قرون من الزمان شارك خلالها البجة شتى دروبه.

---

(١) بسط الأرض ص ٥١

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٧٦

(٣) بسط الأرض ص ٥١

الفصل الرابع:

مظاهر الحياة الاجتماعية عند البجة

أولاً: عناصر السكان وطبقات المجتمع:

أ- قبائل البجة قديماً وفروعها اليوم.

ب- العرب وقبائلها.

١ – العناصر العربية في بلاد البجة قبل الإسلام

٢ – قبائل العرب في بلاد البجة بعد الإسلام.

ثانياً: العادات والتقاليد البجاوية:

أ- المسكن. ب- الملبس.

جـ- المأكل. د- العادات والتقاليد.

أولاً: عناصر السكان وطبقات المجتمع:

أ- البجة (البجا) وفروعها اليوم:

لقد حفلت بلاد البجة في العصور الوسطى بعناصر بجاوية عديدة ومتباينة، والتي اختلفت فيما بينها من الرغبة في علو الشأن وفرض النفوذ والسيطرة على الأرض والعناصر السكانية الأخرى. ورغم انتشار الإسلام بين هذه العناصر لم تفقد الطبقية دورها بينهم، بل ظلت قائمة، بل وأصبح الإسلام نفسه أحد الأدوات التي استخدمت لتحقيق ذلك.

ويمكن ملاحظة ذلك من قول ابن حوقل الذي أشار إلى إسلام البجة في بداية دخول العرب بلادهم، حيث ذكر أن "أكثرهم أسلم إسلام تكليف، وضبطوا بعض شرائط الإسلام، وظاهروا بالشهادتين، ودانوا ببعض الفرائض ...... وجرت أحكامهم على سنن كانت لهم جاهلية إلى بعض أحكام يستعملونها إسلامية". [1]

وقد أشار ابن جبير خلال رحلته إلى إسلام البجة ولكنه وصفه بالضعيف فقال: "أن لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهاراً للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى ويحل". [2]

ومن القولان نلاحظ أنهما متطابقان رغم الفترة الزمنية بينهم، ويتضح لنا أن الإسلام لم يكن له عميق الأثر في نفوس البجة رغم طول مدة اعتناقهم له، بل كان اعتناقه من أجل تحقيق أغراض معينة، كان في مقدمتها البحث عن علو شأن العنصر أو الطبقة.

ورغم هذا القول لا نقصد مطلقاً أن الإسلام لم يكن له أثره في هذه البلاد، فبفضل العناصر العربية التي استقرت ببلادهم جعلت منها مركزاً ثقافياً يبث الدين الإسلامي واللغة العربية في المنطقة والذي نتج عنه القضاء على الوثنية بين البجة والمسيحية في بلاد النوبة.

وبالعودة إلى حديثنا عن البناء الاجتماعي لبلاد البجة يتبين لنا أن مجتمعهم كان قائماً على النظام القبلي، فكانوا ينقسمون إلى قبائل وبطون كما للعرب كما ذكر المؤلفون العرب أمثال اليعقوبي [3] والمسعودي [4] وابن حوقل [5] والمقريزي [6].

وسوف نتحدث عن هذه القبائل والبطون على أساس تجماعاتهم في كل منطقة، حسب الظهور والدور الاجتماعي في الهرم الطبقي، كل منهم على حدى.

وأولى هذه التجمعات القبلية كانت في المنطقة الشمالية من بلاد البجة، وهي التي تقع ما بين جنوب أسوان شمالاً، إلى شمال خور بركة جنوباً، ومن البحر الأحمر في الشرق إلى بلاد النوبة في الغرب وقد قامت بها قبائل الحدارب، وحجاب، والعماعر، وكوبر، ومناسة، ورسقة، وغربريعة، والزنافج،

---

(١) صورة الأرض ص٥٠، ٥١.

(٢) رحلته ص٤٢.

(٣) تاريخه ج١، ص١٩٢.

(٤) مروج الذهب ج١، ص١٨.

(٥) صورة الأرض ص٥٥.

(٦) المواعظ والاعتبار ج١، ص١٩٤.

وبيو اتيكة[1].

١ - الحدارب (الحدارية):

هم أهم العناصر البجاوية عامة والتي لعبت دوراً هاماً في شتى جوانب الحياة عند البجة، ويقيم هؤلاء الحدارية ما بين حد أسوان شمالاً إلى حد خور بركة جنوباً، وعاصمتهم هجر[2] وهي التي تقع أقصى مواطنهم[3] ويقدر طول بلادهم بمسيرة شهرين، وعرضها من البحر إلى النيل، وهم يتنقلون بين مناطقها من حين إلى آخر بحثاً عن المطر والمراعي والأراضي الصالحة للزراعة، فيقضون شتاءهم قرب ساحل البحر، والصيف في بطون الأودية، والخريف جهة الغرب من النيل [4]. وفي هذه الجهات المترامية الأطراف مارس الحدارية مختلف الأنشطة لشتى جوانب الحياة.

وينظر البعض إلى أن الحدارية ليسوا بجة بل عرب، قدموا من حضرموت إلى السودان في عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، وكانوا يسمون بالحضارم ولكنهم قلبوا الضاد دالاً، والميم باءاً، فأصبحوا يسمون بالحدارب [5] كما ألحقوهم بالنسب إلى عمير بن سبأ، وربما عناصر شتى من أعقاب سبأ، نزحوا إلى بلاد البجة قبل مجيء ربيعة بزمن طويل يربو على ثلاثة قرون، وعندما صار لربيعة نفوذ في بلاد البجة، كان الحدارية قد توطنوها، وصاروا من أهلها فعدُّوا طائفة من البجة [6].

ونحن لا نقبل هذه النظرة التي ترى أن الحدارية عرب؛ لأن القبائل العربية في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٧٥ هـ وما بعدها كانت جميعها قد اعتنقت الإسلام، أما الحدارية فظلوا على وثنيتهم حتى زمن اليعقوبي في القرن الثالث الهجري والذي قال على وثنيتهم "إن الحدارية من البجة ليس لهم شريعة، إنما مذهبهم عبادة الأصنام، وكانوا يعبدون صنماً يسمونه "ححاخوا" [7].

وبهذا لا يقبل أن يرتد العرب عن الإسلام مقابل إقامتهم مدة من الزمن بين عنصر ما وثني مثل البجة حتى يصيروا منهم.

وعلى افتراض صحة جدل هذا القول بأن الحدارية عرب، وربما انتقلوا إلى بلاد البجة دون أن يعتنقوا الإسلام، فهذا لا يعني أنهم تخلوا عن لغتهم العربية تماماً دون أن يكون لها أثر بينهم أو بين القبائل البجاوية الأخرى فقد أشار ابن حوقل إلى أن لغتهم لغة تعم البجة وجميعها أعجمية[8]. ولذلك لا نقبل أيضاً من كون الحدارية عرب تخلوا عن دينهم وثقافتهم وأصبحوا مطموسي الهوية حتى تحتويهم الثقافة البجاوية فيصيروا

---

(١) اليعقوبي: تاريخه ج١، ص١٩٢. ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٥.

(٢) اليعقوبي: البلدان ص٣٣٦.، تاريخه ج١ ص١٩٢.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٤.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٦.

Mac michael. Op,II p .319 (5)

(٦) المقريزي: البيان والإعراب ص ١٢٤.

(٧) البلدان: ص٣٣٦.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٦.

جزءاً منها في مدة قليلة من الزمن. ومهما يرد من قول عن كون الحداربة عرب، فنحن لا نقبله أيضاً، كقول العمري الذي يشير إلى أن الحداربة كانوا يعتبرون في سجلات الدولة المملوكية عرباً، قائلاً عنهم: "وشيخ الحداربة سمرة بن ملك، وهو ذو عدد جم وشوكة مكينة، يغزو الحبشة وأمم السودان، ويأتي بالنهاب والسبايا، وله أثر محمود وفعل مأثور. ووفد على السلطان وأكرم مثواه، وعقد له لواء، وشرف بالتشريف وقلد. وكتب السلطان إلى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم، وسائر العربان القبلية بمساعدته ومعاضدته والركوب للغزو معه متى أراد. وكتب له منشور بما يفتح من البلاد، وتقليد بأمر العربان القبلية مما يلي قوص إلى حيث غايته وتركز رايته. أما رسم المكاتبة إليه يشبه رسم المكاتبة إلى بقية أمراء العربان في مصر وغيرها". [1]

وأورد كذلك القلقشندي قولاً مشابهاً لهذا القول. قائلاً عنهم "أنهم عرب، وكان لرئيسهم مكاتبة على الأبواب السلطانية بالديار المصرية" [2].

ويأتي عدم قبولنا لهذا القول على أنه ليس دليلاً عن كون الحداربة عرب؛ لأن المكاتبات السلطانية المملوكية لم تكن للعرب فحسب، بل كانت لأي عنصر أعلن ولائه وطاعته لهم. ونحن نعلم حين أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون حملته في عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦م للقضاء على عبث العربان في برية عيذاب وسواكن، خرج إليها صاحب سواكن البجاوي بالطاعة والانقياد إلى أوامر السلطان وأقر على نفسه قطيعة يحملها إلى الأبواب السلطانية في كل عام [3] ومن الواضح أن العمري المتوفي في تاريخ لاحق للتاريخ المذكور عام ٧٤٩ هـ قد شاهد حدث مكاتبة المماليك للبجة، وبما أن الحداربة هم الأعلى شأناً وأصحاب اليد العليا في شئون البجة جاءت المكاتبة باسمهم.

ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه ما ورد في قول العمري نفسه وهو " أما رسم المكاتبة إليه فيشبه رسم المكاتبة إلى بقية أمراء العربان" [4]، فلو كان الحداربة عرب ما كان هذا القول ورد من الأساس وخاصة لفظ "يشبه".

أما قول القلقشندي فلا نقبله على أنه دليلاً على كون الحداربة عرب، لأنه أورد عروبتهم مقترنة بما كان لرئيسهم من مكاتبة على الأبواب السلطانية، ونحن ذكرنا أن العمري أورد لفظ "يشبه"، وبما أن هذه المكاتبة شبيهة بمكاتبة العربان، فربما لذلك ظن أنهم عرب وخاصة أنه يبعد عن الحدث (٨٢١هـ / ١٣٤٨م) فترة من الزمن، كافية لأن تجعل الأمور ملتبسة أمامه. وهذا أمر وارد في نصوص الكتابات التاريخية.

وبالعودة إلى الحديث عن النظام الاجتماعي للحداربة نجد أنهم كانوا ينقسمون إلى عدة بطون فمنهم العريتيكة والسوتباروا والحوتمة والعنكبيرا والنجويرا والجنيتيكة والواخيكة والحربيب. ويتفرع من هذه البطون مائة فخذ لكل بطن، ولكل فخذ رئيس أو رئيسان يكون مسؤلاً عن تنظيم أحوال الفخذ

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٣١٢هـ ص٧٧.

(٢) صبح الأعشى ج٥ ص٢٧٣.

(٣) المقريزي: السلوك ج٢ ص١٦٢.

(٤) التعريف بالمصطلح الشريف ص٧٧.

وحلقة الوصل بينه وبين الأفخاذ والبطون الأخرى، وجميع رؤساء الأفخاذ تحت قيادة رئيسان للحدارب عامة، أحدهما مسؤلاً عن النظام الاجتماعي [١]. وقديماً كان لهم رئيس واحد يرجع جميع رؤسائهم لحكمه. [٢]

والملاحظ أنه رغم تعدد فروع الحدارب وكثرة عددهم إلا أنهم أكثر عناصر البجة تماسكاً وترابط، وهذا هو ما جعل منهم العنصر الأقوى والأعظم شأناً بين سائر العناصر البجاوية، لذلك كانت جميع ناصر البجة الأخرى تقدم لهم الطاعة والولاء، وفي ذلك يقول المقريزي عنهم "وهم شوكة القوم ووجوههم ..... ومنهم جنس آخر يعرفون بالزنافج وهم أكثر عدداً من الحدارب، غير أنهم تبع لهم وخفراؤهم يحمو تهم ويحبونهم المواشي، ولكل رئيس من الحدارب قوم من الزنافج في حملته فهم كالعبيد يتوارثونهم". [٣]

وبما أن الحداربة هم العنصر البارز بين البجة، والطبقة الحاكمة التي خضع لها معظم البجة، جعل من العرب النازحين إلى بلادهم التطلع إلى زيادة نفوذهم ومن المؤكد أن العرب حين نزحوا إلى بلادهم أدركوا النظام الاجتماعي القائم عندهم والمتمثل بحق الوراثة عن طريق الأم، فأسرع رؤساء العرب من التزوج من بنات رؤساء الحداربة، حتى ينال أبناء أولئك الرؤساء من العرب حقاً مشروعاً في السيطرة على قبائل البجة، حسبما يقتضيه هذا النظام الأموي[٤].

وكانت أهم هذه الزيجات التي تمت بين العرب والحداربة هي تزوج رؤساء قبيلة ربيعة من بنات رؤساء الحداربة، ونتج عن ذلك أن ألفا معاً حلفاً موحداً تحت زعامة ربيعة، وقوي كل من الطرفين بالآخر على أعدائه، وأصبح لكل منهم وزنه وثقله في المنطقة. [٥]

ولعل أهم نتائج هذه المصاهرة هو إقبال الحداربة خاصة والبجة عامة على اعتناق الإسلام والتزود بالثقافة العربية ومن ذلك يقول المقريزي "حين كثر المسلمون في المعدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم، أسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب". [٦]

وظل اسم الحدارب يتردد عبر صفحات التاريخ حتى القرن التاسع الهجري، وبعدها لم نرى اسمهم في أي من النصوص التاريخية. والآن لم يبقى من ذكرهم إلا منطقة تقع جنوب حلايب ما زالت تسمى إلى الآن رأس الحداربة[٧]

أما عن عنصرهم فقد ارتبط باختفاء ظهور جماعة جديدة يقومون في نفس المناطق التي عاش بها الحدارب سابقاً، وتسمى هذه الجماعة الآن باسم البشاريون (البشارين)، ويرى الباحثين[٨] أنهم أحد المجموعات الرئيسية لأسلاف البجة، في حين أن هؤلاء البشارية يذهبون بأنفسهم إلى أصول عربية،

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٦.
(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٤.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٤.
(٤) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٣٩.
(٥) المسعودي: مروج الذهب ج١ ص١٨.
(٦) المواعظ والاعتبار: ج١ ص ١٩٥.
(٧) عبد العظيم رمضان: الحدود المصرية السودانية ص٢٣٦.
(٨) نعوم شقير: تاريخ السودان ج١ ص٩٠ _ محمد عوض: الشعوب والسلالات الإفريقية ص٢٤٩.

ويزعمون أنهم من نسل كاهل [1]، ويرجعون نسبه إلى الزبير بن العوام، ويقولون أيضاً أن أجـدادهم كانوا يعيشون في جبل علبة الواقع على بعد عشرة أميال إلى الغرب من عيذاب، ويتفقون مع البشارين في ذلك الزعم الكواهلة الذين يعيشون الآن في السودان وخاصة كردفان، كما يتفقون مع البشارية في أن جدهم كاهـل كان له ثلاثة عشر ولداً من الذكور، وأن أحدهم يدعى بشار، ويقول البشارين أن من هذا الاسـم اشـتق منـه اسمهم المعروف الآن. [2]

ومن زعم البشارين (البجة) في انتسابهم إلى كاهل، الذي يتفق مع نـسب الكواهلـة (العـرب) إلـى أصولهم، اتخذ الدكتور محمد عوض من هذا الاتفاق الذي جمع بين شقين مختلفين عرب وبجة تـصوراً وهـو أنه من المرجح أن بعض أمراء العرب قد أصهر إلى بعض البجة، ثم ورث الإمـارة والرئاسـة فـيهم، ومـن الراجح أن أحد الذين أصهروا إلى البجة على هذه الصورة كان فعلاً من ينتمي إلى بني كاهل وإلى أحد أبنائـه المسمى بشار أو بشارة ومنه اشتق اسم البشارين. [3]

وبخلاف هذا التصور، هناك من تصوروا أن البشارية يرجع نسبهم إلى الرجل الذي يقال له بـشر بـن مروان بن إسحاق، الذي نزح إلى أرض البجة في القرن الرابع الهجري _ العاشر الميلادي، ويرجحـون أنـه صاهر البجة، ومن ذلك ظهر اسم البشارين انتساباً له، وهو اسم مزدوج ذو أصلين بجاوي وعربي. [4]

ويرى الدكتور مصطفى مسعد [5] أن هذين التصوران كليهما مقبول من وجه نظره رابطاً بينهم فيقـول أنه ليس من المستجد أن يكون أولئك البجة (البشارية) نسوا أصول نسبتهم البجاوية العربية القديمة إلى بـشر بن مروان بمرور الزمن، ولم يحتفظوا إلا بصلتهم ببني كاهل. وربما كانت الوحدة البجاوية التي تولت إخضاع باقي الوحدات البجاوية الأخرى ولم تحتفظ بأصول النسبة البجاوية العربية القديمة لعدم تدوين تاريخها. ولـذا كانت صلتهم ببني كاهل أقرب نسبياً، فإن صداها انتقل من جيل إلى جيـل، وحفظهـا الخلـف عـن الـسلف، فاصطنعوا الانتساب لتأيد.

وفي تصورنا أن البشارية لا ينتسبون إلى ذلك الرجل الذي يحمل اسم أبو مروان بـشر بـن إسـحاق فنسبه البشاري _ مفرد البشاريون أو البشارية _ إلى بشر مصطنعة، ففي اللغة صحة النسبة إلى بـشر هـي البشري وليس البشاري، هذا من ناحية.

---

(١) كاهل هو كاهل بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان _ ويلتقي مع رسول الله عليه الصلاة والسلام في خزيمة بن مدركة، فالكواهل عدنانيون من عدنان الجد الأعلى لرسول الله عليه الصلاة والسلام (ابن حـزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٨م، ص١٩٠).

(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص٦٩.

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص٧٠.

(٤) Trimingham,j.S.:Iislam in Ethiopia,p8
- c\f: Crawford,o.g.s"The ston Tombs of theN.e.sudan, kush, No.2,1954,p.86

(٥) البجة والعرب ص٥٢.

ومن ناحية أخرى فإن من بين شواهد القبور التي عثر عليها في جبانة أسوان، وجد شاهد يحمل اسم البشاري، نورد نصه كاملاً لأهميته: "بسم الله الرحمن الرحيم، إن أعظم مصائب أهل الإسلام مصيبتهم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم. هذا قبر أم سلمة ابنة محمد بن الحسن بن سليمان البشاري، توفيت في ٤٠٣هـ / ١٠١١م".[١] فإذا أخذنا في الاعتبار أن سليمان البشاري الذي يمثل الجد الأعلى لأم سلمة، ينتسب إلى قبائل البشارية، فإن الأمر يقتضي بنا التسليم أن اسم البشارية سابق لأبي مروان بشر بن إسحق، وبعبارة أخرى، نستطيع القول أن سليمان البشاري كان حياً في منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

ويبدو أن الرأي الأقرب إلى الصواب هو ما تصوره الدكتور محمد عوض، وإن كان يحتاج إلى إلقاء بعض الضوء عليه، فكما نعلم أن قبيلة ربيعة باليمامة نزحت إلى مصر في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، تحت ضغط بني الأخيضر[٢]، ثم سارت جنوباً إلى أسوان، ومن ثم إلى أوطان البجة بغية الحصول على معدن الذهب. ولا ريب أن قبائل أخرى دخلت أرض المعدن مع ربيعة، وليس ببعيد أن قبيلة الكواهلة كان من بينها، خاصة إذا علمنا مدى صلة القرابة الوثيقة بين ربيعة وكاهل، فبني ربيعة من نسل حنيفة بن لجيم، وأم حنيفة هي صفية بنت كاهل بن أسد بن خزيمة.[٣] ومن المحتمل أن من بين زعماء بني كاهل رجل يسمى بشار أو بشارة، شق طريقه إلى بلاد البجة، وهناك أسس إمارة هي التي ينتمي إليها قبائل البشارية. إذن فالشقة ليست ببعيدة بين القبيلتين البجاوية (البشارية) والعربية (كاهل). ومما يؤيد ذلك الرأي ما ذكرناه من قبل أن سليمان البشاري كان حياً في منتصف القرن الثالث الهجري، وهي الفترة التي تتفق مع نزوح ربيعة وبعض القبائل الأخرى إلى أسوان، ثم بلاد البجة. ومما يجدر ذكره أن الرحالة ابن بطوطة[٤] أثناء عودته من حجته الثانية عام(٧٣٢هـ /١٣٣١م) رأى قوماً من عرب الكواهلة في المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن، وذكر أنهم اختلطوا بالبجة وعرفوا لغتهم.

ومهما يكن من قول واختلاف الروايات في تفاصيل نسبتهم، فإن هذه الروايات جميعاً تكاد تلتقي حول ثلاث شخصيات بارزة كان لها الفضل في تأسيس قبيلة البشارين، وهؤلاء هم بشار الجد الأول، ثم كوكا الجد الثاني، ثم عنقو الجد الثالث، وإلى هذا الأخير يرجع الفضل في تأسيس القبيلة بأقسامها الثلاثة التي نعرفها اليوم وهم بشاري أم علي، وأم ناجي، وهنار. وقد يسمون أنفسهم أحياناً باسم عنقويباب.[٥]

وجاء ارتباط قصة اختفاء عنصر الحدارب بظهور هذه الجماعة، هو حين أدى نضوب مناجم الذهب

---

(١) عبد الرحمن عبد التواب: شواهد القبور في جبانة أسوان، حفريات في المدة من ديسمبر ١٩٦٠_ منتصف ١٩٦٣م (لم تنشر).

(٢) بنو الأخيضر: هم ينتسبون إلى محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي نجح في أن يقيم دولة علوية عرفت باسم دولة بني الأخيضر، استقل بها عن الخلافة العباسية، ولم يزل بنو الأخيضر يقولون الملك باليمامة حتى طمع قرامطة البحرين في بسط سلطانهم على جزيرة العرب، فدخلوا على اليمامة في أوائل القرن الرابع الهجري، وبذلك زالت دولة بني الأخيضر (محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧، ص٥٥، ٥٦).

(٣) المقريزي: البيان والإعراب ص١٦٣.

(٤) رحلته ج١ ص١٨٨.

(٥) محمد عوض: السودان الشمالي ص٧١.

والزمرد بالعلاقي، وتخريب ميناء عيذاب، في حوالي القرن التاسع الهجري منتصف الخامس عشر الميلادي إلى ضعف شوكتهم واضمحلال نفوذهم؛[1] فهاجر كثير منهم جنوباً إلى إقليم سواكن، ولم يبق منهم في إقليم العتابي سوى جماعات قليلة. وصادفت هذه التطورات، قيام البشارين واشتداد شوكتهم، بأن تولى زعامتهم سلسلة متتالية من المحاربين ذوي الكفاية والأطماع البعيدة، فأفضى تنازع البقاء إلى نشوب نزاع طويل بين البشارين وبين بقايا الحداربة، انتهى بطردهم أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، ومن بقي منهم اندمج في البشارين اندماجاً تاماً [2]، وبعدها لم نعد نسمع عمن يسمون بالحدارب اليوم.

والملحوظ أن ظهور مجموعات بجاوية حديثة مغايرة للمجموعات القديمة كاختفاء الحدارب وظهور البشارية هو أمر ارتبط ارتباطاً كثيراً بظاهرة مألوفة في الشعوب البدوية، فقد تبرز إحدى وحداتها الصغيرة في شكل أسرة يتصف بعض أفرادها بالشجاعة وقوة المراس، ثم لم تلبث هذه الأسرة أو الوحدة الصغيرة أن تتغلب على بعض الوحدات الصغيرة الأخرى وتفرض سلطانها عليها ويندمج المغلوب في الغالب ويعقد اللواء للوحدة التي استطاعت أن تفرض سلطانها وتوسع نفوذها على حساب غيرها [3].

ولم يتوقف البشارين عند هذا الحد، فقد استطاعوا أن يوسعوا نفوذهم إلى أبعد من هذا، ففي حوالي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي انتهز زعيمهم فرصة النزاع بين بعض قبائل البجة وبين عرب البطاحين، وغزا الأراضي الواقعة غربي نهر ترا وضمها إلى أملاك البشارين [4].

وفي الوقت الحالي يحتل البشاريون النصف الشمالي من أوطان البجة، متوغلين من جهة الشمال داخل مصر، وممتدين في الجنوب إلى سهل البطانة، في مساحة تقرب من ٥٠٠٠٠ ميل مربع، منها جهات تشرف على البحر الأحمر، ومنها ما يتصل بإقليم أسوان، وأخرى العطبرة. [5]

في هذه الأوطان المترامية الأطراف يعيش البشاريون، وهم ليسوا جميعاً متصلي النسب والقرابة، بل دخلتهم بعض العناصر غير البشارية واندمجت فيهم، ولا تزال آثار هذا الاندماج واضحة في أسماء بعض الجماعات الدخيلة، وذلك بسبب التوسع الحديث في القرون الثلاثة الماضية. وفيما عدا هذه الجماعات التي اندمجت في البشاريين ينقسم هؤلاء بوجه عام إلى قسمين: وهما: بشاريو أم علي، وبشاريو أم ناجي.

أما البشاريون المنتسبون إلى أم علي يشتملون على أربعة أقسام رئيسية، وهي العلياب والعمراب، وحمدوراب وشانطيراب، هؤلاء جميعاً في السودان، وهنالك بعض فروع منهم في داخل حدود مصر، فللعلياب حلة بجوار أسوان، وللحمدوراب جماعات أخرى بالقرب من دراو.

---

(١) Paul, a:op cit.p.76.

(٢) Paul, a:op cit.p.78.

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص٧١.

(٣) Paul, a:op cit.p 96

– عرب البطاحين: يذهبوا بنسبهم إلى قريش، ويقولون أن اسمهم مشتق من بطحاء مكة، ويرون أنهم هاجروا إلى مصر، ثم إلى غرب السودان، ولهم في كردفان آثار يعرفونها، وصاروا ينتجعون المراعي، فنزلوا بالضفة الشرقية من النيل في المكان الواقع شرقي الجريفات اليوم إلى ما بعد شرقي الحلفاية شمالاً (المقريزي: البيان ص١٦١).

(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص٦٢.

فالعلياب يحتلون أعالي نهر العلاقي ومعظم المنحدرات التي تجري منها روافده، يليهم العمراب من جهة الجنوب في مساحة أصغر وأضيق. أما الحمدوراب والشانطيراب فيحتلون المنحدرات الشرقية، والسهول التي تليها على البحر الأحمر. (١)

أما البشاريون المنتسبون إلى أم ناجي، فيحتلون جميع أقاليم العطبرة، والتمارب، والأجزاء الجنوبية والغربية من العتباي؛ ويمكن تقسيمهم إلى شعبتين: الشمالية في العتباي والتماراب وتشتمل على الإبراياب ويعيشون في الجانب الغربي والمنصوراب في الشرق، والناقعاب، والعديلوباب، فيما بينهما، وفيما يليهما من الجنوب.

أما في الجنوب فيعيش القسم الآخر، بشاريو العطبرة، وهم حمداب، وإبراهيماب، وويلالياب، وبطران، وجاراب، ومشبولاب، ومداكر ... وهذه الثلاثة الأخيرة لا تعد بشارية بالمعنى الصحيح، ولكنها هي والعديلوباب، من القبائل التي اندمجت في البشاريين، وكانت بقايا لمجموعات أكبر.

وهذا القسم الجنوبي يطلق عليه أحياناً قسم العطبرة ولكنه يحتل إقليم العطبرة والنصف الجنوبي من إقليم تماراب. وإن كان الأمرار قد احتلوا جزءاً منه غرب مسمار، وعلى شواطئ النهر أيضاً.

وهنالك جماعة من البشاريين: تسمى هنار، نتجت من ادماج بعض البشاريين والأمرار، وتعيش منعزلة على شاطئ البحر الأحمر حول دنجوناب والجبال التي تليها غرباً .... وهذه الجماعة تعد جزءاً من بشاريي أم ناجي، وإن بعدت مواطنها عن الأوطان الرئيسية لهم. (٢)

ورغم الأعداد الهائلة للبشاريين، تعد البشارية جميعاً قبيلة واحدة، فإن شياختهم جميعاً تقع تحت عمدة واحد يعيش في بلدة "بعلوك" الواقعة على الجانب الغربي لنهر العطبرة، وهذا هو الإقليم الوحيد في جميع الأقطار التي يسكنها البشاريون الذي نجد فيه قوى دائمة وحياة مستقرة في بعض الجهات. (٣)

وباقي البشارية يتنقلون بين شمال البلاد وجنوبها لأن عماد ثروتهم اعتمد على الإبل، وقطعان أخرى من الضأن والماعز، وأهم سلعة يتوجهون بها إلى الأسواق هي الجلود المدبوغة، ورغم أنهم يتركزون حول العطبرة وعلى ضفافه في أكثر من الأحيان إلا أن الزراعة عندهم قليلة الشأن.(٤)

وفي نهاية القول نذكر أن جميع قبائل البشارية تدين بالإسلام وتتحدث العربية إلى جانب لغتهم التبداوية، والملحوظ بين قبائل البجة الحديثة والقديمة ليس اختفاء أسماء وظهور أسماء أخرى فحسب، بل هو ذهاب هذه القبائل الحديثة بأصولهم إلى الانتساب إلى عناصر عربية. ويمكن القول أن ذلك أثر سلالي ناتج عن أثر ثقافي، وهو مما لا شك فيه أن الإسلام رفع من شأن ذلك النسبة ودعمها. وبذا طغى الإسلام والنسب

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص٦٧.

(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص٦٨.

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص٨٥.

(٤) Salders,the Bisharin. Sudan notes and Records, vol, vll, 1929,p .145_146.

العربي الجديد على النسب الحامي القديم. وإذ كان يشك في صحة هذه النسبة العربية، فليس ثمة شك في تسرب نسبة كبيرة من الدماء العربية _ سواء شمالية أو جنوبية _ إلى الجماعات البجاوية، طوال العصر العربي[1].

٢ – الحجاب (الحباب):

قبائل الحجاب التي ذكرها اليعقوبي [2] هي ما تعرف الآن باسم الحباب [3] وهي إحدى القبائل البجاوية التي امتدت على سواحل البحر الأحمر شرق بلاد البني عامر ويمتدون جنوباً إلى الإريتريا [4] لتغطي مساحات شاسعة من الأراضي الممتدة ما بين سواكن ومصوع من الشمال إلى الجنوب، وجبال البحر الأحمر في الشرق وخور عنصة في الغرب [5] وفي قلب هذه المنطقة بالذات تقع "هجر" العاصمة التاريخية للبجة، وخاصة للجنس الذي يقال له نقيس، والحباب أحد عناصره، وما تزال هناك منطقة أثرية تحمل هذا الاسم حتى تاريخ اليوم [6].

والحباب هي إحدى القبائل البجاوية التي تمتعت بالنفوذ والسطوة لمدة طويلة وامتد سلطانهم على امتداد سواحل البحر الأحمر خلال خمسة قرون، اعتباراً من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن العشرين الميلاد في الفترة من ١٤٧٠م حتى عام ١٩٤٨م، وذلك بحسبان أنها قد شملت عدداً كبيراً من القبائل التي عاشت مع بعضها، وتصاهرت فيما بينها واتحدت مصالحها لتشكل كياناً متحداً عرف بالحباب.

والنظام الاجتماعي عند الحباب: شأنه شأن الكثير من قبائل المنطقة، فكانت تتمتع بنظام طبقي خاص أشبه بذلك الذي كان سائداً في اليونان القديمة، فقد كانت هناك ثلاثة طبقات تتطلع كل واحدة منها بمهام محدودة لتكتمل في خاتمة المطاف مطلوبات الحياة باكتمال هذا الشكل مكوناً كيان الحباب، وقد كانت الطبقات على النحو التالي:

الطبقة الأولى: وكانت هذه الطبقة تتشكل من الحكام والمحاربين وقوام هذه الطبقة هم بين النظارة وإخوانه.

الطبقة الثانية: وتتكون من الرعاة والزراع، وهذه الطبقة كانت تضم عدداً كبيراً من القبائل المتفرقة الأصول، وكانت ذات أهمية قصوى في تدرج التنظيم الاجتماعي للحباب باعتبار أنها تعمل على سد ثغرة الأمن الغذائي لطبقة الحكام والأمراء.

الطبقة الثالثة: وهذه كانت تتكون من البيوت والعشائر العربية التي وصلت مؤخراً، وكانت تشرف على المناشط الدينية من الإمامة في الصلاة وعقود النكاح والدعاء بالنصر عند خوض المعارك وما شابه ذلك.

---

(١) Paul, a:op cit.p.79.

(2) تاريخه ج١ ص١٩٢.

(٣) الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان ص١٤٧.

(٤) صلاح الثايب: تاريخ القبائل المصرية ص٣٣٩ (عن بلاد البني عامر _ أنظر فيما بعد).

(٥) محمد صالح ضرار: تاريخ قبائل الحباب والحماسيين بالسودان وإريتريا، ط١، ١٩٨٤م الدار السودانية للكتب، ص٧٦.

(٦) الشاطر بصيلي: معالم تاريخ سودان وادي النيل ص٢٣.

العربي الجديد على النسب الحامي القديم. وإذ كان يشك في صحة هذه النسبة العربية، فليس ثمة شك في تسرب نسبة كبيرة من الدماء العربية _ سواء شمالية أو جنوبية _ إلى الجماعات البجاوية، طوال العصر العربي[1].

٢- الحجاب (الحباب):

قبائل الحجاب التي ذكرها اليعقوبي [2] هي ما تعرف الآن باسم الحباب [3] وهي إحدى القبائل البجاوية التي امتدت على سواحل البحر الأحمر شرق بلاد البني عامر ويمتدون جنوباً إلى الإريتريا [4] لتغطي مساحات شاسعة من الأراضي الممتدة ما بين سواكن ومصوع من الشمال إلى الجنوب، وجبال البحر الأحمر في الشرق وخور عنصة في الغرب [5] وفي قلب هذه المنطقة بالذات تقع "هجر" العاصمة التاريخية للبجة، وخاصة للجنس الذي يقال له نقيس، والحباب أحد عناصره، وما تزال هناك منطقة أثرية تحمل هذا الاسم حتى تاريخ اليوم [6].

والحباب هي إحدى القبائل البجاوية التي تمتعت بالنفوذ والسطوة لمدة طويلة وامتد سلطانهم على امتداد سواحل البحر الأحمر خلال خمسة قرون، اعتباراً من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن العشرين الميلاد في الفترة من ١٤٧٠م حتى عام ١٩٤٨م، وذلك بحسبان أنها قد شملت عدداً كبيراً من القبائل التي عاشت مع بعضها، وتصاهرت فيما بينها واتحدت مصالحها لتشكل كياناً متحداً عرف بالحباب.

والنظام الاجتماعي عند الحباب: شأنه شأن الكثير من قبائل المنطقة، فكانت تتمتع بنظام طبقي خاص أشبه بذلك الذي كان سائداً في اليونان القديمة، فقد كانت هناك ثلاثة طبقات تضطلع كل واحدة منها بمهام محدودة لتكتمل في خاتمة المطاف مطلوبات الحياة باكتمال هذا الشكل مكوناً كيان الحباب، وقد كانت الطبقات على النحو التالي:

الطبقة الأولى: وكانت هذه الطبقة تتشكل من الحكام والمحاربين وقوام هذه الطبقة هم بين النظارة وإخوانه.

الطبقة الثانية: وتتكون من الرعاة والزراع، وهذه الطبقة كانت تضم عدداً كبيراً من القبائل المتفرقة الأصول، وكانت ذات أهمية قصوى في تدرج التنظيم الاجتماعي للحباب باعتبار أنها تعمل على سد ثغرة الأمن الغذائي لطبقة الحكام والأمراء.

الطبقة الثالثة: وهذه كانت تتكون من البيوت والعشائر العربية التي وصلت مؤخراً، وكانت تشرف على المناشط الدينية من الإمامة في الصلاة وعقود النكاح والدعاء بالنصر عند خوض المعارك وما شابه ذلك.

---

(١) Paul, a:op cit.p.79.

(2) تاريخه ج١ ص١٩٢.

(٣) الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان ص١٤٧.

(٤) صلاح التايب: تاريخ القبائل المصرية ص٣٣٩ (عن بلاد البني عامر _ أنظر فيما بعد).

(٥) محمد صالح ضرار: تاريخ قبائل الحباب والحماسيين بالسودان وإريتريا، ط١، ١٩٨٤م الدار السودانية للكتب، ص٧٦.

(٦) الشاطر بصيلي: معالم تاريخ سودان وادي النيل ص٢٣.

ورغم التناقدات التي يطلقها البعض من أن هذا النظام كان نظاماً استعبادياً قهرياً إلا أن الدور الذي كان يلعبه أفراد القبائل المكونة لكل من الطبقتين الثانية والثالثة في شئون كيان الحباب في السلم والحرب وجعلنا نقول بملء الفم أنهم كانوا شركاء لا أرقاء. [١]

٣ – العماعر (الأمرار):

والعماعر هي أحد القبائل البجاوية الصميمة، والتي تعرف الآن باسم قبيلة الأمرار [٢] وعلى الرغم من أنهم يمثلون عنصراً حامياً أصيلاً، إلا أنهم يزعمون الانتساب إلى العرب ـ ولا سيما بني كاهل ـ فيزعمون أنهم ينحدرون من "أَمَر" أحد أبناء أو أحفاد كاهل. ويقال إنه كان لأمر ثلاثة إخوة: هم مرغم جد "المرغاب"، وكمال جد "الكمالاب"، وكميل جد "الكمالاب".

ولسنا نعرف عن والد أولئك الرجال الثلاثة شيئاً. وليس من المستبعد أن يكون هذا الرجل من إحدى القبائل العربية، واستطاع بمصاهرته إحدى الأسر البجاوية أن يؤسس هذه القبيلة البجاوية الهامة، حيث يقال أنه أنجب خمسة من الذكور منهم فضل ومحمد وشيب وهم أجداد قبائل "الفضلاب والمحمداب والشيباب"، وقبل أن شيب أنجب بنتان هما فاطمة التي تزوجت رجلاً يسمى محمد قل وكان مقره بسواكن، ومريم التي تزوجت رجل من عظماء الفنج في سواكن، فأنجبت منه ولداً سمي عثمان. وأن عثمان هذا تزوج امرأة من الأمرار، وأنجب منها أربعة أولاد: علي، ونور، وقرب، وجويلاي وهم أجداد قبائل "العلياب والنوراب والقرباب والجويلاي". [٣]

ورغم انقسام الأمرار إلى الفضلاب وإخوتهم، والعثمان وفروعهم الأربعة، إلا أنه في الاصطلاح العام يطلق هذا الاسم على القبيلة كلها، وعلى أقسامها المختلفة، وهذا هو الاصطلاح الذي اتفق عليه الكتاب، والذي يجري به اللسان عند الكلام عليهم، في الأوساط العربية والمصالح الحكومية، ولكن القبيلة نفسها، بل وبعض جيرانهم من البجة، يقصرون اللفظ الأمرار على شعبة واحدة من القبيلة، وهي الشعبة المسماة الفضلاب، أما سائر القبيلة فيطلقون اسم "عثمان". [٤]

وفي الوقت الحالي يحتل الأمرار مساحة من الأرض تبلغ ٨٠٠٠ ميل مربع، وهي ترتكز من الناحية الشرقية على البحر الأحمر، ابتداء من خط العرض ٢١ في الشمال إلى قرب بور سودان في الجنوب. وليست بور سودان داخلة في أوطانهم، وإن كان فيها عدد غير قليل منهم، والحد الغربي لبلادهم يمتد محاذياً لوادي دئيب، ويحتلون الجزء الأعلى منه. وفي الطرف الغربي من بلادهم توسعوا جنوباً في الأزمنة الحديثة حتى احتلوا الأرضي الواقعة غرب بلدة مسمار وجنوبها الغربي. ولكن هذا التوسع نحو الجنوب اتخذ صورة

---

(١) محمد صالح ضرار: تاريخ قبائل الحباب والحماسيين بالسودان وإرتريا. ص١١٧.
(٢) الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان ص١٤٧.
(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص٩٨: ٩٩.
(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص٩٠.

لسان ضيق، يمتد من خط عرض ١٩ درجةً جنوباً إلى ١٨ درجة، وفيما عدا ذلك نرى أن معظم أوطان الأمرار واقعة شمال خط عرض ١٩ وجنوب خط عرض ٢١ وهي أطول من الشمال إلى الجنوب، وعرضها من الحدود الشرقية يتراوح بين ٧٠ و ٨٠٩ ميلاً. (١)

ومركزهم يوجد في منطقة أرياب تمت قيادة زعماء من فرع الجويلاي (٢) وفيما بعد انتقل هذا المركز إلى مسمار بناء على رغبة الحكومة حتى تكون نقطة التقاء بين الأمرار والقبائل البجاوية الأخرى (٣).

وأهم ما يمتاز به الأمرار اليوم أن لهجتهم التي يتحدثون بها هي أنقى اللهجات في اللغة التداوية. وجميع البجة يقرون لهم بالفضل في سلامة لسانهم، وتفوقهم في هذا الجميع. ومن المقرر أن نسبة الأشخاص الذين لا يعرفون العربية، ولا يتكلمون لغة سوى التبداوية، وهي أعلا عند الأمرار منها عند أي قبيلة أخرى من البجة. وبعبارة أخرى إن الجهل بالعربية أكثر ذيوعاً وانتشاراً بين الأمرار منه في أي جماعة أخرى من البجة. ومعنى هذا أن النفوذ الثقافي العربي لم يتغلغل في ديار الأمرار وإن كانت الديانة الإسلامية قد استطاعت أن تبسط سلطانها على الجميع. (٤)

أما عماد ثروتهم فشأنه كسائر قبائل البجة، فيمتلكون قطعان كبيرة من الماعز وهي من النوع الجيد وكبير الحجم، ويربون أيضاً أحسن أنواع الإبل الجبلية، وهي سلالة صغيرة الحجم نوعاً ما، خفيفة، بطيئة، وطبيعة بلادهم هي التي فرضت عليهم اقتناء هذا النوع من الإبل، حتى تستطيع أن تسلك بهم أوعر المسالك الجبلية وأشدها انحداراً، كما يملكون أيضاً قطعان من الضأن وهي أنواعاً جيدة أيضاً. وليس في بلادهم أرض صالحة للزراعة، ويحصلون على حاجتهم من الحبوب من خارج مواطنهم. (٥)

وفي نهاية القول عن الأمرار نذكر أنهم أحد الفروع لكبرى للبجة اليوم، رغم انتسابهم في أصولهم للعرب (٦) وشأنهم في ذلك شأن غيرهم من البجة كالبشارين والحباب.

٤ – كوير:

هي أحد قبائل هذه المنطقة الشمالية، ولم يذكر عنها أي معلومات، وذلك منذ أن ذكرها اليعقوبي ضمن قبائل هذه المنطقة في منتصف القرن الثالث الهجري (٧) وينطبق هذا القول على قبائل رسفة، وعريريبة.

ومن الراجح أن هذه القبائل كانت وحدات صغيرة العدد وقليلة الشأن، وما أن لبثت فترة من الزمن حتى تغلبت عليها وحدات أكبر فرضت عليها سلطانها، وبالتالي اندمجت فيها هذه الوحدات الصغرى ولم يعد

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص٩١.
(٢) صلاح التايب: تاريخ القبائل المصرية ص٣٣٩.
(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص١٠٠.
(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص٩٧.
(٥) محمد عوض: السودان الشمالي ص١٠٠.
(٦) نعوم شقير: تاريخ السودان ج١ ص٩٠.
(٧) تاريخه ج١ ص١٩٢.

لها ذكر، وبالتالي لم يعقد إلا لهذه الوحدات التي استطاعت أن تفرض سلطانها وتبسط نفوذها على حساب غيرها. والملاحظ من ظهور مجموعات واختفاء أخرى في هذه الشعوب البدوية هي ظاهرة مألوفة لديهم.(١)

وهذا القول ينطبق أيضاً على قبائل بيوانيكة التي ذكرها ابن حوقل (٢) فعلى الرغم من أنه ذكرهم ضمن قبائل البجة الشمالية، وأنهم أكثر البجة عدداً في أعماق الصحاري، إلا أنها لم يكن لها ذكر ضمن القبائل الشمالية التي ذكرها اليعقوبي ـ وخاصة أن عددهم الكبير لا يغفل عن الذكر ـ وكذلك القبائل التي ذكرها اليعقوبي لم يكن لها ذكر عند ابن حوقل، رغم أن الفترة بينهم لا تتعدى قرن من الزمن، وهذا القول يؤكد ما ذكرناه عن الظاهرة المألوفة لدى هذه الشعوب البدوية من ظهور مجموعات واختفاء أخرى.

أما مناسة: فما زالت موجودة حتى الآن في إريتريا، وتعرف هناك باسم (منسة) أو (منسع)، إلا أن أعدادها ليست كبيرة، وهي توجد في محافظة كرن وما حولها، وكرن هذه تقع شمال غرب العاصمة الإريترية أسمرة، وهم يدينون جميعاً بالإسلام. (٣)

٥ – الزنافج "الزنافجة":

وهم أكثر البجة عدداً، ولكن أقلهم قيمة، فهم يمثلون طبقة العبيد ويقومون بالأعمال الخدمية وخاصة للحدارب، وكانوا قديماً يمثلون الطبقة العليا في البناء الاجتماعي للبجة، ولكن في عهد دخول العرب بلادهم كانت الحداربة هم الطبقة البارزة وكان هؤلاء خدماً لهم. (٤)

وكان يقيم هؤلاء الزنافج في قرى بدوية بمنطقة تفلين في دلتا الجاش ويقومون بأعمال الرعي في وقت المطر(٥)، وتفلين هذه تبعد عن وادي العلاقي مسافة خمس وعشرين مرحلة، وكانت تمثل أحد نقاط التجارة الهامة في بلاد البجة وكانت دائمة الصلة بتجارة مكة وغيرها (٦).

وتوقف اسمهم من الذكر في كتابات العرب منذ منتصف القرن الرابع الهجري، وهذا الأمر هو نتيجة حتمية لطبقة دنيا في أي مجتمع كان. ورغم تلاشي ذكرهم إلا أنه من المحتمل ظلت بعض أسماء بطونهم تذكر مثل بطون برقابات وحنديبا، فمن المرجح أن هذه البطون من بقايا الزنافج لأن ذكرهم جاء بصورة عرضية بجانب الحدارب يقدمون أعمال الخفارة لهم (٧) وهذا هو العمل الذي كان يقوم به الزنافج سابقاً، ونتيجة لانحطاطهم الطبقي تلاشى عنصرهم وظلت بعض أسماء بطونهم حتى قابلت نفس المصير في النهاية.

* * *

وثاني هذه التجمعات القبلية كانت في منطقة الجنوب الشرقية التي تقع ما بين البحر الأحمر في الشرق

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص٧٢.
(٢) صورة الأرض ص٥٥.
(٣) الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان ص١٤٧.
(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٤.
(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٧.
(٦) اليعقوبي: البلدان ص٣٣٦.
(٧) صورة الأرض ص٥٥.

وخور بركة في الغرب، وقد استقرت بهذه المنطقة قبائل الجاسة وبارية وبطون قعصة وبرقابات وحنديبا وكديم [1].

١ – الجاسة (الخاسة):

وقبائل الجاسة التي ذكرها ابن حوقل بأنها توجد على ساحل البحر في سهوله وأوديته [2] هي ما تعرف الآن باسم الخاسة [3].

وقد ذكرهم المقريزي بأنهم يقيمون بميناء سواكن [4] وأضاف الدمشقي بأنهم كانوا ينقسمون إلى الخاسة العليا وهم مسلمون والخاسة السفلى وهم كفار [5]. والآن يدن جميعهم بالإسلام إلا أنهم طائفة صغيرة من قبيلة البني عامر، وهم محتقرون ومن أمثال أهل السودان (البجة الخاس أرخص الناس) [6] ويعيشون الآن بالقرب من حدود الحبشة حول طوكر [7].

وقبيلة البني عامر المنتمية إليها طائفة الخاسة الآن هي أحد أفرع البجة الرئيسية اليوم [8] وتمتد بلادهم لتشمل جميع منطقة الجنوب الشرقية من بلاد البجة، وهي آخر بلادهم ومساحتها موزعة ما بين السودان وإريتريا مع الفارق في المساحة؛ لأن المساحة التي يحتلونها في السودان محدودة لا تزيد على خمسة آلاف ميل مربع، في صورة مثلث، أحد أضلاعه ساحل البحر الأحمر، من حدود إريتريا في اتجاه شمالي إلى جنوب سواكن بنحو ١٠ كم، والضلع الثاني خط يمتد من ساحل البحر الأحمر، في اتجاه شمالي جنوبي مخترقاً سلسلة جبال أدار ياباب إلى أن يلتقي بحدود إريتريا، والضلع الثالث هو الخط المتعرج الذي يمثل الحدود الإريترية السودانية في هذا الإقليم، أما مساحة بلادهم في الإريتريا فتبلغ الضعف أو أكثر من مساحتهم في السودان وهي تقريباً ترتكز حول وادي بركة وروافده، وهو الإقليم الذي يطلق عليه اسم (أعوردات) [9] وعلى الرغم من أن البني عامر من سلالة البجة القدماء الذين احتفظوا بكثير من الخصائص الحامية، ووجد بينهم العالم سلجمان خير أمثلة على البجة النقيين، الذين يشبهون القدماء المصريين أقرب المشابهة [10] إلا أنهم كغيرهم من قبائل البجة الأخرى يقفون بنسبهم عند أصول عربية، وتذكر رواياتهم أنهم ينتسبون إلى رجل يدعى عامر من بني كاهل. وليس في هذه النسبة ما يدعو إلى نفيها أو استبعادها ولأن ذلك الإقليم الذي يحتله البنو عامر اليوم، كان مجالاً لنشاط عربي قديم لا ينكر. [11]

---

(١) صورة الأرض ص٥٠.

(٢) صورة الأرض ص٥٥.

(٣) الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان ص١٥٥.

(٤) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٧٩.

(٥) نخبة الدهر ص٢٦٩.

(٦) نعوم شقير: تاريخ السودان ج١ ص٩٠.

(٧) محمد عوض: السودان الشمالي ص١٣٥.

(٨) نعوم شقير: تاريخ السودان ج١ ص٩٠.

(٩) محمد عوض: السودان الشمالي ص١٢٥ : ١٢٦.

(١٠) Seligman: a:op cit p.

(١١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩

والدليل على النشاط العربي في أوطان البني عامر، هو قيام ميناء باضع بأوطانهم، وهو الميناء الذي ظل مركزاً من مراكز النشاط العربي التجاري مدة خمسة قرون على الأقل [١].

وهنا يواجهنا التناقض في القول: كيف لا نستبعد نسبتهم للعرب في حين أنهم يمثلون العنصر البجاوي الحامي النقي؟

ويكون الفصل في هذا القول أن اختلاط العناصر العربية اقتصر، فيما يبدو، على الطبقة الارستقراطية الحاكمة من أسلاف البني عامر ، ولم يتناول عامتهم، ولذا حافظ هؤلاء على صفاء جوهرهم الحامي، وإن كانوا تأثروا بالمؤثرات العربية، ثقافية كانت أو اجتماعية [٢].

لذلك نجد أن البني عامر ساد بينهم نظام طبقي صارم، فالعشائر والبطون المختلفة تتألف كل منها من طبقتين: الأولى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، والثانية طبقة الموالي أو العبيد، وقد يبدو أن ثمة قيوداً كانت تحول دون اختلاط هاتين الطبقتين عن طريق الزواج، ومن ثم ظلتا طبقتين منفصلتين تماماً [٣] وبما أنه انفرد البني عامر دون سائر البجة بالنظام الطبقي الإقطاعي يدعونا إلى التساؤل. ما هو مصدر هذا النظام الطبقي الصارم الذي ما زال يتبع حتى الآن؟

ويجيب د/ محمد عوض [٤] عن هذا التساؤل مفترضاً أن غزواً منظماً قد حدث بواسطة جماعة بجاوية متماسكة، فرضت سلطانها على جماعة أخرى كانت تحتل هذا الإقليم من قبل، ويبدو أن هذه الجماعة تمتعت بشخصية مستقلة، وتأثرت بنظام خاص من المرجع مصدره الجزيرة العربية. ثم أخذت هذه الجماعة المعتزة بوحدتها وكيانها الخاص تغزو الأقطار التي تجاورها، حتى أسست دولة احتلت سواحل البحر الأحمر من جنوب مصوع إلى شمال سواكن، وامتدت في الداخل إلى المجرى الأوسط لخور الجاش؛ أي أنها احتلت مساحة تزيد كثيراً عن التي يحتلها البني عامر اليوم.

وكانت تسمى هذه الجماعة باسم (البلو) [٥] وقد تمتعت بطبقتها الارستقراطية ونظامها الإقطاعي،

---

(١) انظر ما سبق عن ميناء باضع..

(٢) مصطفى مسعد البجة والعرب ص٥٧.

(٣) Paul, a:op cit.p..84:87

(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص١٣٣.

(٥) البلو: يذكر كراو فورد (Craw Ford) في كتابه: (The Fung Kingdom Of Semar. Glouse. Cter 1951) ص١١٠، أن أول إشارة وردت عن اسم البلو كانت على لسان قسيس برتغالي يسمى (ألفارز)، الذي زار الحبشة في المدة من ١٥٢٠ إلى ١٥٢٧م، وقال عنهم: "أن جماعة من العرب تدعى (Balloos) البلو، يسكنون على حدود الحبشة، ويجاورهم من الشمال النوبيين، وهم على علاقة طيبة بملك الحبشة ويقدمون إليه إتاوة من الخيول".

ويرجح الدكتور مصطفى سعد (البجة والعرب) ص١٠، أن أولئك البلو من بقايا الذين أشار إليهم الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق) المجلد الأول ص ٤٧ والذي قال عنهم "بأنهم قوم رحالة بين النوبة وأرض البجة، ولهم صرامة وعزم، وكل من حولهم من الأمم يهادنونهم ويخافون ضررهم، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية". وقد أشار ابن الوردي أيضاً إلى نفس هذا القول في كتابه (خريدة العجائب) ص٤٩. ومن ذلك القول يرى مسعد أن أولئك البليين انتقلوا في القرن الخامس عشر إلى الجنوب بعد أن اضمحل نفوذهم في الشمال، وأقاموا فيما هو معروف اليوم بأوطان البني عامر، مملكة عرفت وقتذاك "بمملكة البلو" واشتهر أولئك البلو دون سواهم ممن جاورهم من البجة والحبشة باستخدام الخيول وبراعتهم في تربيتها. أما الدكتور محمد عوض فعلى غرار مسعد يرى أن هؤلاء البلو قبيلة بجاوية الأصل، مستنتجاً ذلك من مناقشته لقول القسيس البرتغالي. ومضيفاً من قول هذا البرتغالي القائل "بأن دولة البلو كانت قديماً تسمى-

وبيدها الحاكم وملكها الوراثي، ولا شك أن القبائل المتفرقة والخاضعة لها كانت تتمتع بكثير من الاستقلال في ذلك الزمن كما هي اليوم، ولكنها كانت على الأرجح تدفع إتاوات للبيت الحاكم، وربما أدت له خدماً أخرى [1]

ومن هنا بدأ هذا النظام الطبقي الذي عم جميع عشائر وبطون البني عامر اليوم، ليكون طبقتان أحدهما الحاكم والأخرى المحكوم. ولكن رغم عدم استمرار نفوذ البلو وتوقف سيادتهم على قبائل البجة منذ القرن السابع عشر الميلادي، إلا أن هذا النظام الطبقي ظل قائماً إلى اليوم. فما السبب في استمرار ذلك النظام؟

تشير كتابات العلماء والباحثين [2] إلى أن دولة البلو بنظامها الطبقي والإقطاعي وملكها الوراثي عاشت ما يقرب من ثلاثة قرون، من القرن الخامس عشر إلى السابع عشر الميلادي. غير أن بوادر الاضمحلال والتدهور أخذت تدب في أوصالها منذ القرن السادس عشر الميلادي. فقد أدى احتلال الأتراك العثمانيين لسواكن سنة ١٥٢٠م إلى الضغط على مملكة البلو الإسلامية من ناحية الشرق، ومشاطرتها في جباية رسوم السفن المارة بسواكن، فضلاً عن مشاركتها في الإتاوات المفروضة على القوافل الصاعدة إليها والمنحدرة منها إلى داخلية البلاد، أما في الغرب فقد ظهرت قوة الفونج [3] وحلفائهم العبد اللاب [4] وهؤلاء

– نجران". مفترضاً من ذلك أن قبيلة أو بيتاً من نجران (عسير الآن شمال اليمن) نزلت بين قبيلة البلو البجاوية، وقامت بنشر الإسلام فيهم لذلك سميت في أول الأمر بدولة نجران، وبعد فترة عاد اسم الشعب الأصلي بعد ذلك ليصبح اسمها دولة البلو، لذلك يرجع أن البلو جماعة بجاوية تسربت إليها مؤثرات عربية، وبسطت نفوذها على جماعات أخرى بجاوية تخالطها بعض الدماء الأجنبية (السودان الشمالي ص١٣٢ – ١٣٣).

(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص ١٣٥.

(٣) Paul, a:op cit.p..84:87

(٤) الفونج: وهم الذين أسسوا أول سلطنة إسلامية واسعة النفوذ في السودان، وحكموا أكثر من ثلاثمائة سنة، منذ أول القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). وهؤلاء الفونج ينسبون إلى بني أمية. ومسألة موطنهم السابق الذي خرجوا منه إلى قلب السودان حيث أسسوا عاصمتهم سنار (شمال سنار الجديدة بنحو ثلاثة أميال)، وهي مسار خلاف واسع بين الباحثين، ففريق يرى أنهم جاءوا من الحبشة، وفريق يرى أنهم من منطقة بحيرة شاد حيث الكانم وبرنو، وآخرون يرون أن لهم أصلاً زنجياً. والرأي الأخير لم يعد له ما يؤيده في الوقت الحاضر. أما عن الرأيين السابقين، فلا ينبغي أن يؤدي أحدهما إلى الخلط بين الموطن والأصل العربي، وسواء أكان موطنهم السابق بلاد الحبشة أم بلاد البرنو، فهذا لا يمنع من أن يكونوا ذوي صلة بأعقاب بني أمية الذين استوطنوا هذه الجهة أو تلك لأن هذه المنطقة شهدت هجرات أعداد من بني أمية. (المقريزي: البيان والإعراب ص١٦١).

ويرجع الفضل في استيلاء الفونج على السلطة وقيام دولتهم إلى زعيمهم المسمى (عمارة دنقس) وهو الذي تحالف مع قبيلة العبدلاب ضد مملكة علوة المسيحية في سوبا حتى أسقطها، وبذلك حلت محلها مملكة إسلامية هي مملكة الفونج وعاصمتها سنار، وامتدت هذه المملكة في أوج قوتها من كسلا إلى جبال النوبة. (السودان الوضع الطبيعي ص١٦٢).

(٥) العبدلاب: وهم قبيلة من شعبة القواسمة من قبيلة رفاعة بالسودان، وهم في الحقيقة أسرة عظيمة كبيرة العدد والخطر، وتتركز اليوم حول حلفاية الملوك والخرطوم بحري، ومنها جماعات موزعة على ضفاف النيل الأزرق ما بين رفاعة والخرطوم، حيث يمارسون الزراعة ولهم قطعان صغيرة من الماشية والغنم.

ويرجع الفضل في تأسيس هذه القبيلة إلى رجل يدعى (عبد الله جماع) وهو الذي ساعد (عمارة دنقس) زعيم الفونج على القضاء على مملكة سوبا النوبية، وتأسيس مملكة سنار. وكان أصله من (قرى) وهي شرق خانق سبلوقة شمال الجندل السادس بالنيل النوبي، وظلت قرى عاصمة لهم فترة من الزمن، ثم انتقل مقرهم بعد ذلك إلى حلفاية الملوك، وكانت هذه الأسرة تتوارث الحكم في أثناء مملكة سنار على الإقليم الشمالي لتقاسم الفونج في سلطة هذه المملكة. (محمد عوض: السودان الشمالي ص٢١٨).

حاولوا مد نفوذهم شرقاً على قبائل البجة، لكن محاولاتهم في هذا الاتجاه لم يقدر لها النجاح تماماً، بسبب المقاومة العنيدة من جانب البشارين وغيرهم من البجة. لكن استمرار ضغطهم على مملكة البلو أدى إلى انتزاع بعض أقاليمها، وإن لم يؤد إلى زوالها.

غير أن تحولاً خطيراً قد حدث لهذه الدولة في أوائل القرن السابع عشر. فقد زال اسم البلو الذي عرفت به الدولة، واختفت الطبقة الارستقراطية الحاكمة من البلو، وحل محلها طبقة ارستقراطية حاكمة جديدة تعرف باسم النبتاب، ويلاحظ أن تلك الطبقة الارستقراطية الحاكمة الجديدة ورثت عن البلو نظامهم الطبقي المعروف، وليس من المعروف تماماً كيف حدث هذا الانقلاب الفجائي. [(١)]

غير أن لم يرد عن هذا الحادث الخطير سوى رواية تكاد تشبه الأساطير، يرويها بنو عامر إلى وقتنا هذا، وهذه الرواية _ على علاتها _ تحدثنا أن فقيهاً عالماً ورعاً من قبيلة الجعليين، وفد من النيل الأبيض ونزل في ديار بني عامر، وكان يدعى علي أبو القاسم، وما لبث فترة حتى التف حوله خلق كثير، وأصبح يتمتع بنفوذ كبير بين أتباعه وأنصاره؛ بل في البلاط الحاكم للبلو نفسه. ومن ثم تزوج هذا الفقيه الورع بابنة ملك البلو، بيد أن هذه الزيجة لم يرض عنها فريق من البلو، وأغار هذا الفريق الساخط على هذه الزيجة على الفقيه فقتلوه، ولاذت الزوجة بالفرار. ثم تجري بعد ذلك القصة في مجراها المألوف، فإن هذه الأميرة البلوية ما تلبث أن تلد فتى يفوق الفتيان بأساً وعزماً أسمته عامراً، فلا يلبث أن يبلغ أشده حتى يعرف ما حل بأبيه، فيبادر إلى طلب الثأر، واستعان بأقاربه من الجعليين على حرب البلو، وما زال يحاربهم حتى أوقع بهم هزيمة ساحقة بالقرب من عقيق. وينتهي به الأمر إلى تأسيس طبقة حاكمة جديدة عرفت باسم (النبتاب) نسبة إلى أبيه الذي كان يلقب نفسه بأنه نبت من الأرض. وغدت الدولة كلها تعرف باسم دولة بني عامر نسبة إلى عامر بن أبي القاسم لتحل محل دولة البلو، وتصبح لها السيادة والزعامة في جميع قبائل بني عامر وشعبها في إريتريا والسودان. [(٢)]

وكيفما كانت الوسائل التي وصل بها النبتاب إلى الحكم، فالمعروف أن النظام الطبقي الإقطاعي القديم ظل قائماً، وكل ما حدث هو تغير اسم الطبق الحاكمة، وهي الطبقة المعترف لها بالسيادة والحكم بين جميع بني عامر. أما الرئيس الأعلى المعترف له بالزعامة على جميع هذه القبائل فقد عرف باسم الدقلال، أما بقية الشعب وكلهم من البجة أهل البلاد الأصليين، فإنهم ظلوا طبقة الموالي الخاضعين لسيادة النبتاب. [(٣)]

ومما سبق نستنتج أن أوطان البني عامر كانت مسرحاً لنشاط الجماعات العربية في شتى المجالات سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، وإذا كان العرب الذين وفدوا إلى هذه الأوطان واختلطوا بالبجة وتزوجوا منهم وتعلموا لغتهم. فإن هذا الاختلاط فيما يبدو اقتصر في الغالب على الأسر الحاكمة. وذلك للانتفاع

---

(١) مصطفى مسعد البجة والعرب ص١٣٨.

(٢) - c\f: Crawford,o.g.s"The ston Tombs of theN.e.sudan, kush, No.p.١١٢

(٣) Paul, a:op cit.p.- 84:87

بنظام وراثة الأم عند البجة والسيطرة عليهم، ومن ثم يمكن القول أن نفور البجة من كل غريب يطــأ بلادهــم، وصعوبة بلادهم وبيئتهم لم تساعد على اختلاط أوسع بين العنصرين لذلك مثل البنو عامر خيــر دليــل علــى أسلاف البجة النقيين.

وإذا وقفنا بقولنا السابق على نقاء هؤلاء البجة _ بنو عامر _ وصفاء عنصرهم، لا نعني بهذا القــول أنهم لم يتأثروا بمؤثرات خارجية عربية لأن موقع بلادهم المقابل لبلاد العرب مــن جهــة الــشرق الــساحلية وهضبة الحبشة من جهة الجنوب الحدودية، كان لابد أن يترك أثره في ثقافتهم وتقاليدهم. ولا سيما أن الهضبة الحبشية كانت هي أيضاً عرضة لمؤثرات عربية في المقام الأول من جزيرة العرب وإقليم اليمن. لذلك كان لابد للثقافة العربية أن تترك آثارها في هذه البلاد، وندرك آثار الثقافة العربية في هذه البلاد الآن تحــدث أكثــرهم بلغة (تجرة) وهي ما تسمى أحياناً بلغة الخاسة، وهي خليط من الحامية (التبداوية) والسامية (التجرينية) وهذه التجرينية مشتقة من لغة (الجِعز) وهي لغة حميرية يمنية من أقدم اللغات السامية التي دخلت هضبة الحبــشة، والواضح أن هذه اللغة الوليدة نقلت في البداية من عرب اليمن إلى هضبة الحبشة، ثم انتقلــت عــن طريــق الهجرات الجماعية نحو الشمال في لتنتشر في وادي بركة وروافده حتى وصلت إلى إقليم طوكر وسواكن. وأثر آخر لا يمكن إغفاله من مؤثرات الثقافة العربية في هذه البلاد وهو اعتناق الإسلام فتدين هذه الــشعبة جميعــاً بالدين الإسلامي. [1]

أما حالهم في أسلوب المعيشة فلا يختلف عن حال سائر القبائل البجاوية، فلا تزال حرفة الرعــي هــي الحرفة السائدة بينهم، ولهم انتقالات موسمية في طلب الكلأ. وعلى الرغم من أن أوطانهم الرئيــسية متجمعــة حول خور بركة وروافده، إلا أن ممارسة الزراعة عندهم محدودة واقتصرت على منطقة كسلا. [2]

٢ - بارية (جارين):

قبيلة بارية التي ذكرها ابن حوقل [3] هي أحد القبائل التي قامت في هذه المنطقة الجنوبية، والتي كانت تقيم ما بين ميناء باضع وخور بركة، وكانت توصف بأنها من القبائــل المحاربــة والمزارعــة. وقــد اتفــق اليعقوبي[4] في هذا الوصف على ما سماه بمملكة (جارين).

ورغم تطابق الوصفان في الموطن والعادات بين بارية وجارين؛ والراجح أن أحد هذين الاسمين كتــب بصورة خاطئة، ويبدوا أن هذا مرجعه النقل الخاطئ لبعض الحروف. وخاصة أن اللفظان متشابهان في الرســم الكتابي. ومهما يكن من قول حول اتفاق أو اختلاف لهاتين القبيلتين فإنهما الآن غير موجودتين، ولكن الذي لا يمكن إخفاءه من قول هو الوصف المشابه لهما بأنهما كانتا ذات نشاط حربي، وهذا يؤكد أن منطقة بنو عــامر كانت مسرحاً للنشاط السياسي منذ العصور الوسطى وهذا يمثل قاعدة لنشاط سياسي ظل يتكرر حتى العــصور الحديثة.

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص١٢٨، ١٣٥.

(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص١٤٠.

(٣) صورة الأرض: ص٥٥.

(٤) تاريخه ج١ ص١٩٢.

وينطبق هذا القول أيضاً بصورة كاملة على قبيلة قصعة الذي ذكرها ابن حوقل [١] ومملكة (قطعة) التي ذكرها اليعقوبي [٢].

أما بطون برقابات وحنديبا التي ذكرها ابن حوقل [٣] بأنها تقيم في هذه المنطقة، فقد ذكرنا سابقاً أنهم مثلا عنصراً من بقايا الزنافج خاصة وأنهم كانا يقومون بالأعمال الخدمية للحدارب.

وبطون كدبم التي عرفت (ببعجات) هي أيضاً من البطون التي قامت في هذه المنطقة، وجاورت قبائل الخاسة من الشرق وكان في غربها خور بركة [٤] ولم ترد عنها معلومات أكثر من هذا في أي من المؤلفات التاريخية.

وفي نهاية القول عن هذه المنطقة لا نرى قبيلة أو بطن ظل محتفظاً باسمه القديم غير الخاسة، وكل القبائل والبطون الأخرى اختفت لتسمى الآن بنو عامر. ولكن النظرة الحقيرة لشعبة الخاسة توضح لنا أن القبائل والبطون المندثرة صبغت نفسها بصبغة العرب وذهبوا بأصولهم وعنصرهم للعرب، لذلك تركوا أسمائهم البجاوية لتحل محلها أسماء عربية، وهذا يوضح لنا مدى تأثر قبائل بنو عامر بالمؤثرات الثقافية والاجتماعية العربية منذ بداية انتقال العرب إلى بلادهم.

* * *

وثالث هذه التجمعات القبلية كانت في منطقة الجنوب الغربية من بلاد البجة، وهي التي تقع ما بين خور بركة في الجنوب وجبل مسمار في الشمال [٥]، ودلتا خور بركة في الشرق ودلتا خور الجاش في الغرب[٦]، وقد استقرت بهذه المنطقة قبائل بازين والماتين وذهر وستراب وغركاي وذحنت. [٧]

١ – بازين:

هي أحد القبائل التي قامت في هذه المنطقة الوسطى ببلاد البجة، وكانت تقيم تحديداً جنوب دلتا الجاش، وشرق مملكة علوة النوبية [٨] وتجري مياه خور بركة بأرضهم [٩].

والملاحظ في منطقة بازين أنها مثلت منطقة زراعية في المقام الأول وهذا بخلاف باقي أوطان البجة، أضف إلى ذلك أنهم كانوا جيراناً لعنصر احترف الزراعة منذ القدم ألا وهم النوبة. وكان لذلك أثره في أسلوب معيشتهم ونمط حياتهم، فهم من القبائل المستقرة لأن حرفة الزراعة تتطلب الإقامة الدائمة وهذا بخلاف الرعي، لذلك نجد أن منازلهم كانت تقام في شكل أخصاص كالقرى، كما أدرت هذه الحرفة أيضاً في اقتناء

---

(١) صورة الأرض ص٥٥.

(٢) تاريخه ج١ ص١٩٣.

(٣) صورة الأرض ص٥٥..

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٥.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٥.

(٦) اليعقوبي: تاريخه ج١ ص١٩٢.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٥.

(٨) اليعقوبي: تاريخه ج١ ص١٩٢.

(٩) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٧.

الحيوان المناسب لها وهو البقر، وذلك لما له من دور في حراثة الأرض وغيرها من أعمال الزراعة [١]، وأهم محاصيلهم التي كانوا يزرعونها هو محصول (الدخن) فكان يمثل غذائهم فضلاً عن اللبن. [٢]

ومن أبرز العادات التي ظهرت عند هذه القبيلة أنهم كانوا يسمون الرجال باسم واحد، وكذلك النساء[٣] والإسلام عندهم قليل الأثر فلا دين لهم ولا هم متصلون بشريعة غير الإقرار بالله وحده والتسليم له واسمه جل وعز عندهم (أدنه) [٤].

ورغم أن قبيلة بازين كانت من العناصر البارزة بين البجة إلا أنها كحال معظم قبائل البجة اختفت من كتابات المؤلفين العرب منذ منتصف القرن الرابع الهجري، آخر العاشر الميلادي ولم يكن لها دور على الساحة البجاوية بشتى أنواعها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، والراجح أن هذه القبائل حين زاد أثر الإسلام عندهم تخلوا عن أسمائهم البجاوية ليتخذوا أسماء عربية بدلاً منها لكي يربطوا أصولهم بالعرب. ولعل ما يؤكد قولنا أن التاريخ الذي اختفت فيه أسماء قبائل البجة هو تاريخ هجرة العرب الكبرى لبلادهم وانتشار الإسلام.

وينطبق هذا القول على قبائل الماذين ودهر وستراب وغركاي ودمنت التي لم يذكر عنهم غير أنهم كانوا يقيمون بين وادي بركة وجبل مسمار. [٥]

والقول عن هذه القبائل يجري في مجراه المألوف، فتختفي هذه القبائل لتحل محلها الآن قبائل بجاوية تدعي النسبة بأصولهم إلى العرب، والقبيلة التي تحتل هذه المنطقة الآن بشكل كامل هي قبيلة الهدندوة والباحثين [٦] يرون أنها من القبائل الرئيسية الكبرى للبجة اليوم إلى جانب البشارين والأمرار وبني عامر.

وتمتد أوطان الهدندوة اليوم لتشمل هذه المنطقة بشكل كامل، من الشمال إلى الجنوب، من شمال خط العرض التاسع عشر إلى جنوب خط الخامس عشر، وتزيد هذه المسافة على ٢٨٠ ميلاً، ومن الشرق إلى الغرب مسافة تبلغ المائة ميل أو تزيد من الشمال، ولكنها تضيق في الجنوب بين حدود الإريتريا ونهر العطبرة، فهي إذن في صورة مستطيل ينتهي في الجنوب بما يشبه المثلث، وليس لهم على البحر الأحمر سوى مساحة قليلة تبلغ نحو خمس وثلاثين ميلاً، تتوسطها مدينة سواكن. وتبدأ الحدود الشرقية لبلاد الهدندوة جنوب سواكن بنحو عشرين ميلاً ثم تمتد نحو الجنوب إلى بين خور بركة وخور لانجب، حتى تصل إلى الحدود الإريترية، ثم تتبع هذه الحدود في انحراف نحو الجنوب الغربي إلى منطقة تسمى خشم القربة (تقع غرب منطقة كسلا) وهذا الحد الجنوبي لأوطان الهدندوة، أما الحد الشمالي فيبدأ شمال سواكن ثم يمتد غرباً

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٧.
(٢) اليعقوبي: تاريخه ج١ ص١٩٢.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٦.
(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٧.
(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٥.
(٦) نعوم شقير: تاريخ السودان ج١ ص٩٠.

إلى شمال سنكات، إلى نقطة في شمال شرق آرياب. ومن هنا تتصل بنهر عطبرة عند خور رجب، ثم تلازم هذا النهر إلى خشم القربة. (١)

والملاحظ في أوطان الهدندوة أن عناصر الزراعة توافرت فيها بشكل متكامل، فموارد الماء تكثر عندهم والتي تمثلت في أحد جوانب نهر العطبرة، أضف إلى ذلك خور الجاش ودلتاه يقع ببلادهم، وفضلاً عن هذا أن خور لا نجب أحد روافد خور بركة يجري ببلادهم أيضاً. كما ازدادتا عندهم المنخفضات الصالحة للزراعة والتي تمثلت في النصف الجنوبي من أوطانهم بشكل عام وسهول كسلا بشكل خاص. ونتيجة لذلك نجد أن الزراعة عند الهدندوة لاقت اهتماماً بشئونها وهذا بخلاف سائر البجة ليثبت أنهم احترفوا هذه الحرفة منذ عهد سابق كما ذكرنا عن قبيلة بازين، وتأكيداً على أن هؤلاء الهدندوة من صميم البجة.

وعلى الرغم من أن الهدندوة من صميم البجة، فإنهم نهجوا نهج جيرانهم من العناصر البجاوية الأخرى مثل البشارين والأمرار والبني عامر في الانتماء إلى أصول عربية. ولابد أن لهذه النسبة العربية أساساً تاريخياً. خاصة وأن هذا الإقليم الذي نشأت فيه هذه القبيلة يقع بالقرب من سواكن، ذلك المركز الذي يعد من أهم مراكز النشاط التجاري الذي محل لواءه العرب منذ القرن الثاني الهجري _ الثامن الميلادي (٢). غير أن أثر الجماعات العربية التي هاجرت إلى هذا الإقليم، قبل القرن السابع الهجري _ الثالث عشر الميلادي، فيمن اختلطت بهم من البجة كان ضئيلاً، بالقياس إلى أثر الجماعات العربية التي وفدت إلى هذا الإقليم بعد هذا التاريخ. ويبدو أثر الهجرات العربية المتأخرة نسبياً واضحاً في نشر الإسلام والعروبة في هذا الإقليم، مما يرويه الهدندوة أنفسهم بصدد الوقوف بنسبهم عند جماعة الأشراف، وهي الجماعة العربية التي ذكر ابن بطوطة أنها كانت تسكن جزيرة سواكن عارفة بلسان البجة ومصاهرة لهم. (٣)

وتذكر رواية الهدندوة في انتسابهم إلى العرب أن شريفاً عربياً يدعى محمد هداب هاجر من الحجاز إلى أرض البجة، ثم تزوج هذا الأمير العربي أميرة من أحفاد أمير بجاوي يدعى (شكايتل) أو (شكايتلو). وأنجب هذا الشريف العربي من الأميرة البجاوية فتى يدعى محمد مبارك، وهو الذي عرف عند الهدندوة باسم محمد براكوين أي محمد الجريء الذي لا يهاب شيئاً، ثم تزوج محمد براكوين هذا من فتاة عربية شريفة الأصل تدعى هدات. وقد أنجبت هذه السيدة سبعة أولاد تأصلت فيهم الدماء العربية عن طريق أمهم هدات وجدهم هداب.

ويستدل من روايات الهدندوة أن عهد محمد براكوين، لا يرجع إلى أبعد من أواخر القرن السابع عشر أو أوائل القرن الثامن عشر، وهو الوقت الذي بدأ منه اسم (هدندوة) في الظهور على مسرح الحوادث في الوطن البجاوي. ويقال أن اسم (هدندوة) هذا مشتق من لفظ (هداب ندوة) أي قبيلة الأسد، أو من قبلة (هدات ندوة) أي قبيلة هدات. (٤)

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالي ص١٠٧: ١٠٨.

(٢) عن نشاط العرب بميناء سواكن _ انظر فيما سبق ميناء سواكن.

(٣) رحلته: ج١ ص١٨٨.

(٤) Paul, a:op cit.p.٧٧

وليس من شك أن القرن السادس عشر الميلادي، شهد صراعاً عنيفاً بين قبائل البجة نفسها من ناحية، وبينها وبين مملكة الفونج لوقف امتداد نفوذها إلى أوطانهم من ناحية أخرى، ويرجع سبيل الهدندوة في التوسع إما عن طريق مصاهرتهم لجماعات بجاوية أخرى أو عرب أو فونج، وإما عن طريق شن الغارات على جيرانهم بما فيها من سلب ونهب. ففي أوائل القرن السابع عشر عشر استطاعت هذه الجماعة أن تطرد بقايا البلو مما هو معروف في الوقت الحالي باسم إقليم أركويت وسنكات نحو الجنوب [1] واستطاعت شعبة أخرى أن تزيح البشارين نحو الغرب. كما انتهز (ويلالي) أحد السبعة أبناء لمحمد براكوين اضمحلال مملكة الفونج في القرن أواخر الثامن عشر، وأخذ التوسع على حسابها ناحية الجنوب. ثم تغلب ابنه وحفيده على جماعات كثيرة من البجة ممن يسمون بالحالنقا والمهلتكناب، حتى تم له احتلال دلتا القاش. [2]

وبذلك يمكن القول أن الربع الأول من القرن التاسع عشر، آخر مرحلة من مراحل توسع الهدندوة وإدماج وحدات صغيرة من البجة، أو من غير البجة، حتى أضحوا قبيلة من أعظم قبائل البجة وأكثرها عدداً، وهي الآن تشمل عدة فروع منها جميلاب وسمرار وكالولاي وسمرندواب وسجولاب وويلاليـاب وشاراياب وقوهباب وحامداب وشارعاب وهيكوتماب وشبوديناب وقرعيب وحكولاب. هذا بالإضافة إلى المجموعات القبلية التي تقيم معهم وتقدم ولاءها لهم من الحالنقا والمهلتكناب.

وتعقد الزعامة الدينية لهذه الفروع جميعاً لشعبة السمرندواب وهم جميعاً يدينون بالإسلام، أما زعامة القبيلة المدنية والعسكرية فكان لواءها دائماً _ ولا يزال إلى اليوم _ معقوداً لشعبة الويلالياب، ومع أن لكل شعبة شيخها ورئيسها، فإن الهدندوة لا يسلموا بزعامة القبيلة إلا لأحفاد (ويلالي) فولاء فروع الهدندوة لهذا الفرع ولاء لا يتزعزع [3]

أما حالهم في المعيشة فلا يختلفون عن حال البجة فهم يعتمدون على حرفة الرعي، إلا أن الاختلاف بينهم وبين سائر البجة أن معظم قطعانهم التي يمتلكونها لا تكون من الإبل بل من الماشية وخاصة من البقر والغنم وذلك ناتجاً عن طبيعة أوطانهم الغنية بالأمطار وموارد الماء التي تسمح بذلك، هذا فضلاً عن زراعة المناطق الصالحة لذلك وإقامة القرى المستقرة [4].

وبذلك تكون قبيلة الهدندوة آخر تقسيم لمواطن البجة اليوم؛ لأن مواطن البجة اليوم انقسمت إلى أربعة أقسام رئيسية كل قسم يحمل اسم قبيلة، فالقسم الأول وهو الشمالي يحمل اسم البشارين، ثم يليهم جنوباً الأمرار، ثم يليهم جنوباً الهدندوة، وأخيراً نجدا في الجنوب الشرقي جماعة البني عامر. ولكن لا يعني هذا القول أن البجة انقسمت إلى هذه الجماعات فقط، فهناك جماعات أخرى أو قبائل صغيرة عاشت في فلك هذه الجماعات وبداخل هذه الأوطان وتحت لواء هذه القبائل وهم قبائل الأشراف والأرتيقا والكميلاب والحالنقا ولكن

---

(١) Paul, a:op cit.p٧٧:٨٨

(٢) Paul, a:op cit.p٧٩

(٣) محمد عوض: السودان الشمالي ص١١٣.

(٤) محمد عوض: السودان الشمالي ص١٢٠: ١٢١.

رغم أنهم مجموعات صغيرة وقليلة الشأن يدعي أكثرهم الاستقلال ويحاول أن يثبت ما له من الأهمية والخطر، ويحدث عن أبطاله القدماء، وما كان لهم من علو الشأن وسمو المقام في العصور الغابرة[1]. وليس في دعواهم هذه وجه غرابة، لأن نظام القبائل من طبعه عرضة للتقلب والتطور على مدى الأزمنة، فيعلو شأن بعضها حيناً من الزمن، ثم لا تلبث بعد ذلك أن يدركها الضعف بسبب الحروب أو الأمراض، أو سوء القيادة، فيضعف أمرها، يقل عدوها. وهذه الظاهرة واضحة في تاريخ القبائل العربية نفسها في جزيرة العرب، ولا عجب إذا رأينا لدى البجة أيضاً.

وفي نهاية القول عن قبائل البجة، نذكر أن هذه الجماعات عاشوا في هذه البيئة القاسية منذ عصور طويلة، وقد نظموا حياتهم على المنوال الذي تفرضه خصائصها الطبيعية، فأصبحوا عصور جزءاً لا يتجزأ منها. وليس معنى هذا أن الطبيعة الجغرافية هي الوحيدة التي تركت أثرها في نفوس هؤلاء القوم، فكان للأحداث المتنوعة من سياسية واقتصادية واجتماعية عبر العصور دورها في كيانهم البشري.

ب- العرب

يمثل العرب أحد عناصر البناء الاجتماعي لبلاد البجة في العصور الوسطى، فقد حفلت هذه البلاد بعناصر عربية عديدة كانت لها أثرها في شتى جوانب الحياة؛ لأن هذه البلاد كانت قادرة على امتصاص واستيعاب القبائل الوافدة عليها، والجيوش والجماعات التي رافقتها، والتي جاء في أثرها أن غيرت تكوينها العرقي والثقافي والحضاري.

١- العناصر العربية في بلاد البجة قبل الإسلام:

لم تكن العصور الوسطى هي الفترة الوحيدة التي استقبلت فيها بلاد البجة العناصر العربية، فلهذه البلاد صلات بالجزيرة العربية ترجع إلى الزمن القديم أي قبل الإسلام [2] فلم يكن البحر الأحمر حاجز يمنع الاتصال بينهما، إذ لا يزيد اتساعه على المائة والعشرين من الأميال عند السودان، وليس من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة، أما في الجنوب فيضيق ضيقاً واضحاً عند بوغاز باب المندب، حيث تبلغ مساحته خمسة عشر ميلاً، وهذه الطريق هي التي سلكتها السلالات والأجناس العربية الجنوبية إلى القارة الإفريقية منذ عشرات الآلاف من السنين. [3]

ولعل التجارة كانت أهم أسباب انتقال العرب الجنوبيين إلى أوطان البجة عن طريق البحر قبل الإسلام، خاصة بعد أن نشطت حركة تجارة العاج والصمغ واللبان والذهب، بين الجزيرة العربية من ناحية، وبين

---

(١) محمد عوض: السلالات والشعوب الإفريقية ص٢٥٠.
(٢) محمد عوض: السودان الشمالي ص٣٠.
(٣) مصطفى مسعد البجة والعرب ص١١.

موانئ الساحل الإفريقي من ناحية أخرى [1] واتخذ العرب من بعض النقاط على الساحل الإفريقي مركزاً لهـم، يتوغلون منها بسلعهم وبضائعهم في قلب القارة الإفريقية، ومن ذلك استوطن العـرب الجنـوبيين الـسواحل الإفريقية وموّنوا هذه السواحل بالعناصر السامية[2].

وما أن لبثت هذه العناصر فترة من الزمن حتى توغلت في قلب القارة الإفريقية، إلى وادي النيل، مخترقة بذلك الصحراء الشرقية وبلاد البجة لتستقر في بلاد الصعيد، وقد بلغت هذه الانتقالات أقصاها في عهد دولتـي معين وسبأ في الفترة ما بين ١٥٠٠_ ٣٠٠ ق. م [3] ولا شك أن هذه الجماعات قد اختلطت بالبجـة أو علـى الأقل تركت وراءها جماعات سكنت بالقرب منهم.

ومن جانب آخر وفي فترة متوسطة للتاريخ المذكور لهجرة السبأيين إلى مصر، هاجرت جماعـات سـبأية أخرى إلى منطقة الحبشة (إريتريا) وقد كونوا مستوطنات لهم، وخاصة على الساحل وكان ذلـك فـي القـرن السادس قبل الميلاد. [4] وهذا يوضح أيضاً مدى اقتراب العرب من أوطان البجة من جهة أخرى. ولابـد مـن وجود اتصال في أي من جوانب الحياة؛ خاصة وإن العرب يمتلكون روح الفضول والاختلاط بالعناصر البشرية المختلفة.

واستمراراً لتدفق هجرات العرب إلى إفريقيا عبر البحر، انتقل عدد غير قليل من الحميريين فـي القـرنين السابقين للميلاد إلى الحبشة، بعد أن عبروا مضيق باب المندب، فاستقر بعضهم في الحبشة، وتحرك بعـضهم الآخر متتبعاً النيل الأزرق ونهر العطبرة، ليصلوا عن هذا الطريق إلى بلاد النوبة [5] وسكن هـؤلاء فـي أول الأمر في منطقة العتباي من بلاد البجة، ويحتمل أن مواطنهم قد امتدت إلى سنكات وأركويت [6].

وهناك أيضاً ما يدل على انتقال الحميريين إلى هذه الأوطان قبل الإسلام، تلـك الأخبـار التـي وردت فـي القصص العربي القديم عن قيام الحميريين بحملات عسكرية في وادي النيل الأوسط وشمال إفريقيا، وأن هـذه الحملات تركت وراءها جماعات استقرت في بلاد النوبة وأوطان البجة وشمال إفريقيا. [7]

ومن هذه الروايات العربية القديمة التي تتحدث عن تلك الحملات العسكرية للحميريين على الـسودان. روايـة أوردها ابن خلدون [8] عن حملة قادها أبرهة الحب ذي المنار بن ذي القرنين الحميري على بلاد النوبة، وبلاد المغرب، حوالي أوائل القرن الأول الميلادي.

ولم يقتصر تقدم العرب قبل الإسلام نحو أوطان البجة عند هذا الحد؛ لأن العرب الشماليين جـاءوا إلـى هذه الأوطان قبل مجيء العرب الجنوبيين إليها، وكان ذلك عن طريق مصر من خلال قدومهم عبر جزيرة

---

(١) جرجي زيدان العرب قبل الإسلام، (بيروت _ بدون تاريخ) ص٢١٢.
(٢) جواد العلي: المفصل في تاريخ العرب ج٣ ص٤٥٠.
(٣) عبد الله البري: القبائل العربية في مصر خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، دار الكتاب القاهرة ١٩٧٦، ص١١٩.
(٤) جواد العلي: المفصل في تاريخ العرب ج٣ ص٤٥٠.
(٥) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص١١.
(٦) الشاطر بصيلي تاريخ وحضارات السودان ص١٦٦.
(٧) Macminichae,H.A,:op.cit.p.3:4
(٨) ابن خلدون: العبر ج٢ ص١٥٢.

سيناء ثم برزخ السويس. وهذا الطريق الشمالي هو الطريق الثاني الذي اتجه منه العرب إلى أوطان البجة[١]، وهذا طريق ذو دور خطير في تاريخ العلاقات بين العرب ومصر منذ فجر التاريخ، فلم تخلوا الآثار المصرية القديمة من الإشارة إلى العرب الشماليين منذ عهد الأسرات الأولى إما تجاراً أو غزاة أو لاجئين [٢].

ولم تنقطع صلة هذه العناصر العربية سواء كانت شمالية أو جنوبية بأوطان البجة زمن البطالمة والرومان. فقد ورد في كتاباتهم عن مدى تكاثر العرب على أيامهما في أعالي الصعيد، وخاصة مدينة قفط، واشتغال هؤلاء العربان بنقل المتاجر عبر الصحراء الشرقية في ما بين النيل والبحر الأحمر [٣] وإذا كان من غير المعروف من أي العرب هؤلاء؛ فالراجح أنهم أو معظمهم على الأقل من قبيلة بلي القحطانية، لأنها من أشهر القبائل العربية التي هاجرت إلى مصر قبل الإسلام، وسكنت صحراء مصر الشرقية في المنطقة الوسطى من تلك الصحراء الواقعة بين قنا والقصير، وكان عليها الاعتماد في نقل التجارة قبل ظهور الإسلام[٤] لتنتشر بعد ذلك في الجزء الجنوبي من الصحراء الشرقية، حتى قيل أنهم ملئوا المنطقة الواقعة بين صعيد مصر وبلاد الحبشة [٥] ثم انتهى بهم الأمر إلى أن اختلطوا بالبجة، وسيطروا على الجزء الشمالي من أوطانهم وعرفهم البطالمة والرومان باسم Plemmyes أي بليميين[٦].

وما يشير إلى أن أولئك البليميين كانوا عرباً ومن قبيلة بلي؛ أن البجة تسمي اللغة العربية في لغتهم التداولية باسم Balawit. بلاويت [٧] ويعني هذا أن الجماعات العربية من قبيلة بلي كانت من من القوى والكثرة العددية في بلاد البجة بحيث غدا اسمها في اللغة البجاوية مرادفاً للفظ عرب أو عربي.

وهذا عن وجود العنصر العربي في بلاد البجة قبل الإسلام، أما قدومهم إليها بعد الإسلام كان من الكثرة له تأثيره الواضح في التركيب الاجتماعي لبلاد البجة في العصور الوسطى، إلى جانب ما سبق أن عرضناه في ثنايا الفصول السابقة، من حوادث تتصل بالحياة السياسية والاقتصادية لتلك البلاد.

٢- القبائل العربية التي استقرت ببلاد البجة بعد الإسلام:

كانت أولى الفرص لدخول العرب إلى بلاد البجة بعد الإسلام وإلقاء نظرة على بلادهم، ف عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م حين قام عبد الله بن الحبحاب بمصالحتهم وعقد لهم عقداً بعد أن غزاهم وانتصر عليهم [٨] فكان هذا العقد ضماناً لحق العرب في العبور بأمان إلى بلاد البجة، وبدأ منذ ذلك الوقت نشاط العرب في الدخول إلى

---

(١) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص١٢.
(٢) المقريزي: البيان والإعراب ص٧٧: ٧٨
(٣) جرجي زيدان العرب قبل الإسلام ص ٢٣٠.
(٤) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص١٢.
(٥) عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب قديماً وحديثاً، ج١ ص١٠٥.
(٦) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص١١.
(٧) Crawford, o G. s: op. cit.pp.110
(٨) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص١٨٩.

أوطانهم بعد الإسلام والاستقرار فيها. [١].

غير أنه لم يكد يمضي نحو قرن من الزمن على هذه المعاهدة، حتى بدأ نشاط العرب في الظهور بالبناء الاجتماعي للبجة والانتشار ببلادهم، وكان أثر ذلك واضحاً في بنود عقد الأمان الذي أعطاه عبد الله ابن الجهم لكانون بن عبد العزيز عظيم البجة عام ٢١٦ هـ /٨٤١م [٢] والتي كان أبرزها تأمين العرب القائمين بهذه البلاد وعملوا بالتجارة، فضلاً عن حفظ المساجد التي ابتنوها في أهم بلدانهم مثل صنجة وهجر. وبذلك باتت هذه المعاهدة رأس حربة لفتح هذه البلاد لنفوذ العرب وحرية التنقل حولها والاستقرار فيها، كما أمنت مصالحهم التجارية وحريتهم الدينية وسلامتهم الشخصية [٣].

والملاحظ من انتقال القبائل العربية إلى أوطان البجة أنه اتخذ مظهراً عسكرياً في بادئ الأمر، وهذا اتضح سابقاً في الفصل السياسي. فلا شك أن الحملات الحربية التي وجهها ولاة مصر إلى أوطان البجة أن تترك جزءاً منها كقواعد حربية لحفظ النظام وتأمين الحدود. وبذلك أعطت الفرصة لكثير من القبائل العربية المشاركة فيها أن تستقر في هذه الأوطان.

ولم يلبث هؤلاء العرب فترة من الزمن بهذه الأوطان حتى اجتذب بريق المعادن أنظارهم، وهذا الأمر جعلهم غير راغبين في ترك هذه الأوطان للحصول على مزيد من الثروة [٤] ومن ذلك ازداد دخول العرب إلى هذه البلاد ليتخذ بعدها مظهراً تجارياً. وهذا ما أوضحناه أيضاً في الفصل الاقتصادي. وبذلك شكلت القبائل العربية التي وفدت إلى هذه الأوطان في العصور الوسطى، جزءاً هاماً من النسيج الاجتماعي للبجة في شتى جوانب الحياة، ومن هذه القبائل التي نردها بالذكر من المجموعتين الأولى العدنانية: الأمويين، العلويين، العمريين، ربيعة، مضر، قيس عيلان، بني تميم، بني هلال. والمجموعة الثانية القحطانية: جهينة، بلي، سعد العشيرة.

أ- الأمويين:

بطن من قريش ترجع إلى بني عبد شمس بني عبد مناف[٥]. وهي أول العرب الذين دخلوا بلاد البجة وذلك حين انهارت خلافتهم عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) فتعقبهم العباسيون بالقتل والنفي والتشريد، فهربت جماعة منهم إلى بلاد البجة فراراً من المذابح، واستقروا بميناء باضع من جهة اليمين [٦] ومما لا شك فيه أن بني أمية قد

---

(١) محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى ص٦٢.

(٢) عن بنود عقد الأمان انظر الفصل السياسي حملة ابن الجهم.

(٣) ويليام ي. آدمز: النوبة رواق إفريقيا، ترجمة محجوب التجاني محمود ط١، القاهرة ١٩٤٨م، ص٤٨٦.

(٤) ابن حوقل: ص ٥٣.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت ط١٩٨٧م ج١ ص٤١١.

(٦) يذكر المسعودي أنه بعد قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في منطقة بوصير بالفيوم عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م وتفرق بنو أمية في البلاد هرباً من مذابح العباسيين، وكان من بين الهاربين، ابناه عبد الله وعبيد الله، وكانا وليا عهده، فهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما وخواصهما من العرب ومن انحاز إليهم من أهل خراسان من شيعة بني أمية، فساروا إلى أسوان، ومنها ساروا على شاطئ النيل حتى بلاد النوبة، ثم توسطوا أرض البجة ميممين باضع، وكانت لهم مع من مروا بهم من النوبيين والبجة وقائع وحروب، ونالهم جهد شديد، وضر عظيم. فهلك عبد الله في عدة من كان معهم قتلاً وعطشاً وضراً. وشاهد من بقي منهم الشدائد والعجائب، ووقع عبد الله في عدة ممن نجا معه إلى باضع من ساحل أرض البجة" (التنبيه والإشراف: نشر دي خويه، لندن ١٨٩٧، ص٣٠).

من السلطة المركزية في مصر [1] ويذكر العالم Bloss [2] أنه عثر على مقابر أولئك الأمـويين علـى طـول الطريق الذي يسلكوه من بلاد النوبة حتى ميناء باضع. فضلاً عن هذا أن ثمة أبحـاث تثبـت وجـود جاليـات إسلامية في منطقة خور نبت ـ الواقعة على بعد ٧٠ ميلاً غربي سواكن_ عثر على شواهد قبور عربية، يرجع تاريخها إلى ١٤٣هـ (٧٦٠م)، وهو تاريخ يتفق مع هجرة الأمويين إلى أوطان البجـة، ممـا يـدعونا إلـى الاعتقاد أن هذه القبور تنسب إلى أولئك الأمويين الهاربين إلى هذه الأوطان.

ب-العلويين:

وهم فرع من قريش من البيت الهاشمي ممن ينتمون إلى ذرية علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله عليه الصلاة والسلام[3]، فمنهم من انتسب إلى الحسن، ومنهم من انتسب إلى الحسين – رضي الله عنهمـا – فمـن نسل الحسن قوم هاجروا إلى صعيد مصر بقيادة علي بن عبـد الله فـي عـام (١٤٤- ١٤٥هـــ / ٧٦٢ – ٧٦٣م)[4] ومنهم ابن الصوفي الذي كان يعرف بإبراهيم ابن محمد بن يحيى بن عبد الله بـن علـي بـن أبـي طالب، صلوات الله عليهم أجمعين. الذي قام بثورة ضد أحمد بن طولون عام ٢٥٦هـ /٨٦٩م، وانتهت ثورته بأن تفرق عنه أصحابه بأرض البجة بعد هزيمته على يد العُمري بهذه الأوطان، ولا شك في أن بعض أصـحابه استقروا بأرض البجة ليصبحوا جزءً من النسيج الاجتماعي للبجة. وباقي قبائل بني الحسن أقامـت فـي بـلاد منفلوط وأتليدم – بلدة بالصعيد تابعة لأعمال الأشمونيين – وما حولها من بلدان الصعيد، أما بني الحسين فقـد عاشوا في الصعيد ومن المؤكد أنهم أقاموا مع أبناء عمومتهم خلال ثورة ابن الصوفي[5].

جـ- العُمريين:

هم بطن من قريش، ترجع إلى بني عدي بن كعب بن لؤي بن غالب، ومنهم عمر بن الخطاب الذي ينتمـون إليه العُمريين [6] وقد سبق أن رأينا الدور الكبير الذي قام به أبو عبد الرحمن العُمـري، مـن نـشر الإسـلام والثقافة العربية في بلاد النوبة والبجة، وينحدر عبد الرحمن من ذرية عمر بن الخطاب، ويكنـى بـأبي عبـد الرحمن العُمري العدوي القرشي [7] وقد نزح إلى أرض البجة في منتصف القرن الثالث الهجر عام ٢٥٥هـ / ٨٦٨م. ومن المحتمل أن ذريته استقرت في بلاد البجة لتنتشر بعد ذلك في المنطقة لتصل إلى أسوان، وقد عثر على شاهد قبر بأسوان نقش عليه اسم أم أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن العُمري المتوفـاة سـنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م. [8]

---

(١) محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى ص١٩٧.

(٢) Bloss, J.F.E, the story of suakin" S. N. XX, part II, 1936, p.279

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج١ ص٤١٣.

(٤) المقريزي: البيان والإعراب ص٤٠ – ٤١.

(٥) البلوي: سيرة أحمد بن طولون ص٦٥.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ص٤٠٧.

(٧) عن دور العُمري في بلاد البجة انظر سابقًا الفصل السياسي.

(٨) محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى ص١٩٢.

والمؤكد أن ما قام به العلويين والعمريين ممن ينتسبون إلى قبيلة قريش من حركات تمرد وخروج على الولاة العباسيين في مصر من الطولونيين والإخشيديين؛ كان مرجعه نظرة الريبة والشك تجاههم على أساس أنهم يريدون الاستيلاء على الحكم والسيطرة على المناصب، فتبعهم أولئك الولاة بالطرد والقتل، ففروا إلى بلاد الصعيد لبعدها عن مركز الحكم، فكونوا أحلافاً خرجوا بها على الحكام، واتخذوا من بلاد البجة وما حولها مركزاً لعملياتهم الحربية(١). وكيفما كان الأمر فقد انتهت هذه الحركات والأحلاف بأن تفرق أصحابها في بلاد الصعيد والبجة ليكونوا في النهاية جزءاً من النسيج الاجتماعي للبجة.

<u>د- ربيعة:</u>

تأتي قبيلة ربيعة في مقدمة القبائل العدنانية التي لعبت دوراً هاماً في الأحداث التي ألمت ببلاد البجة، وتتفرع تلك القبيلة مباشرة من نزار بن معد بن عدنان، وكانت مساكنها الأولى تمتد من مرتفعات نجد من مهبط الجبل إلى الغور من تهامة (٢) ومن بطونها: أسد، تغلب، شيبان، حنيفة، عنزة، لجيم، عبد القيس، النسر، زحل، بني يونس(٣).

وقد ظلت هذه البطون تقيم في بلادها حتى وقعت الحرب بينها، مما كاد يؤدي إلى هلاكها، فتفرقت. وارتحلت بطونها إلى بقاع مختلفة، فانتشر بعضهم في اليمامة، وبعضهم فيما بينها وبين البحرين إلى أطراف سواد العراق، وبعضهم إلى إقليم الجزيرة في الشمال الغربي (٤) أما عن ربيعة التي نزلت اليمامة، فقد أجبرها بنو الأخيضر إلى الجلاء عنها، فنزحت إلى مصر في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله، وعلى وجه التحديد سنة ٢٣٨هـ، في أعداد كثيرة من بني حنيفة وبني يونس (٥) ثم نزلت أعداد من بني حنيفة بوادي - العلاقي، وبعضها في أسوان، وابتنوا بظاهرها بلدة أخرى عرفت بالمحدثة (٦) أما بنو يونس فقد استقروا في ثغر عيذاب (٧).

واستطاع حلف بني ربيعة من بني حنيفة أن يفرض نفوذه في وادي العلاقي على جميع القبائل العربية القائمة آنذاك، حتى أصبحت لهم السيادة المطلقة في عام ٢٤٥هـ بعد قتلهم القائد القمي (٨) ومنذ ذلك استولت ربيعة على معدن الذهب بالعلاقي فكثرت أموالهم واتسعوا في أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة، واختطوا قرية تعرف بالنمامس وحفروا بها الآبار(٩)، وبعد أن استولت ربيعة على العرب اتجهت إلى السيطرة على البجة، وأدركوا أن هذا لا يتحقق إلا بالسيطرة على الحداربة، وهم الطبقة الحاكمة التي يخضع لها البجة،

---

(١) المقريزي: البيان والإعراب ص١١٩ – ١٢٣.

(٢) عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، طبعة دمشق ١٩٤٩م، ج٢ ص٤٢٤: ٤٢٥.

– وتنسب قبيلة ربيعة إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وكان يعرف بربيعة الفرس (ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٥٣م، ج٢٣ ص٢٥٧).

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ص٣٩٠: ٣٩١.

(٤) ابن الحنبلي: الآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة، مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات العربية، برقم ٢، ورقة ٤.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٣.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٤.

(٧) المقريزي: البيان والإعراب ص٤٤.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٤.

(٩) المقريزي: البيان والإعراب ص٤٤.

فلجأوا إلى وسائل مختلفة للتقرب منهم، منها: أنهم تحايلوا على كهانهم للدعوة بطاعة ربيعة والانطواء تحت لواءها، لتتخذ منهم أعواناً ضد منافسيها من العرب، للإنفراد بحكم هذه البلاد.[1] ومما دعم هذه الصلة وقواها مصاهرة زعماء ربيعة لرؤساء البجة [2] ولابد أن أدركوا قيمة حق الوراثة عن طريق الأم، أي نظام الأمومة في وراثة الملك، فتزوج رؤساء العرب من بنات البجة، لينال أبناء أولئك العرب حقاً مشروعاً في السيطرة على قبائل البجة، حسبما يقتضيه هذا النظام الأموي.

ولعل ما أورده ابن حوقل، ما يوضح طبيعة المصاهرة العربية البجاوية. فذكر في زمنه، أي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري كان يرأس الحدارب رئيسان هما: كوك وعبدك. أما كوك فهو خال أبي القاسم حسين بن علي بن بشر. وأما عبدك فهو خال ولد أبي بكر إسحاق بن بشر صاحب العلاقي [3] وبهذه المصاهرة تمكنت ربيعة من السيطرة على وادي العلاقي من عرب وبجة تحت قيادة إسحاق بن بشر من ناحية[4]، ومن ناحية أخرى توثقت صلة ربيعة بالبجة إلى حد كبير بحيث أصبحت هي والبجة كالشيء الواحد[5].

وظل إسحاق بن بشر رئيساً لوادي العلاقي ورعاياه من العرب والبجة مدة إلى أن خرج عليه بعض أهله وقتلوه، وحين وقعت الحروب بين بني بشر وقتل فيها إسحاق اختارت القبيلة بعد مقتله ابن عم له الشيخ أبا عبد الله محمد بن علي بن يوسف. المعروف بأبي يزيد بن إسحاق وكان من فرع ربيعة الذي نزل بالحوف الشرقي عند بلبيس [6]. وبهذا الإجراء لم تعط قبيلة ربيعة فرصة للأحداث أن توسع الخلاف بين أبنائها مما يقضي على نفوذ القبيلة ويطمع فيها أعداءها. وهذا يثبت لنا مدى ترابط القبيلة برغم عوارض النزاع بينها ومدى حرصها على الاستمساك بحكم قبائل البجة[7]، وقد آثر أبو يزيد أن ينقل مقر رئاسة ربيعة إلى مدينة أسوان. وهناك عظم مركزها وزادت ثروتها. كما أصبح لإمارة ربيعة دور ممتاز في ميدان السياسة والاقتصاد، في ميدان العلاقات بين بلاد النوبة المسيحية وبين مصر الفاطمية وعرفوا في ذلك الوقت ببني الكنز [8].

ومنذ انتقال مقر إمارة ربيعة إلى أسوان، في حوالي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) ولم نعرف شيئاً بنو ربيعة في العلاقي. والواضح أنهم تغلغلوا في البجة وأصبحوا جزءاً منهم، وبالتالي أخذوا عنهم اللغة التبداوية، بعد أن طعموها بكثير من الألفاظ العربية، وأنهم أعطوهم الدين الإسلامي الذي يربطهم بالنسب العربي [9] ولعل الآن ما يدل على استقرار ربيعة في بلاد البجة أنه تم اكتشاف

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٦.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج١ ص ١٨.

(٣) صورة الأرض ص٥٥.

(٤) المقريزي: البيان والإعراب ص ٤٤.

(٥) ابن فضل الله العمري: مسالك الإبصار مخطوطة مصورة، ق٢ ص ٤١٩.

(٦) المقريزي: البيان والإعراب ص٤٥،٤٤.

(٧) عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز ص٣٧.

(٨) عن دولة بني كنز انظر سابقاً الفصل السياسي.

(٩) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٤١.

أربعة شواهد قبور من الحجر لحكام ربيعة، بعد إجراء حفريات عند منطقة الريح على البحر الأحمر، كتبت بالخط الكوفي ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع الهجري. [١]

هـ- مضر:

هي أحد القبائل العدنانية وتنحدر من مضر بن نزار بن معد بن عدنان [٢] وكانت منازلها باليمامة شرقي شبه الجزيرة العربية، وقدمت إلى أوطان البجة في وادي العلاقي ـ مع قبيلة ربيعة ـ تحت ضغط بني الأخيضر وذلك في عام ٢٣٨ هـ. [٣] وقد نزل عليهم العُمري عند دخوله أرض المعدن، وبايعوه على حرب البجة والنوبة [٤] وبعد مدة من مساندته تخلوا عنه حين دعاهم لحرب البجة الذين قتلوا أخاه، وذلك خشية من وقوع الحرب بينهم وبين ربيعة التي رفضت أيضاً مساندته نظراً للعلاقة القوية التي ربطت بين ربيعة والبجة. فتقاتل معهم جميعاً، نتج عن ذلك أن قتل زعيم ربيعة في تلك البلاد، مما أثار سخط رئيس مضر وهو محمد بن هارون فقام باغتياله[٥]. وهذه الأحداث تدل على مدى القوة والنفوذ التي تمتعت بها مضر في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، ولا شك في أن العناصر المضرية الكثيرة التي استوطنت أرض البجة استطاعت أن تتغلغل في هذه الأوطان لتصبح جزءاً من بنائها الاجتماعي.

و- قيس عيلان:

قيس هو فرع من مضر جمع عدة قبائل، وقد اختلف في نسبه فقيل قيس بن عيلان، واسماه الناس بالنون بن مضر، وقيل هو قيس بن مضر، وعيلان المضاف إليه قيل فرسه، وقيل كلبه، وقد بلغ لقيس من الكثرة والعدد حتى غلب اسمه على سائر القبائل العدنانية، حتى جعل في المثل في مقابل القبائل عرب اليمن (العرب القحطانية)، فيقال قيس ويمن [٦]، وقد وفدت إلى مصر في عام ١٠٩هـ على يد عبيد الله بن الحبحاب فأنزلهم بالحوف الشرقي وفرقهم فيه [٧] وبعد ذلك دخلوا أرض البجة تحت قيادة قائدهم حكم النابغي في عام ٢١٢هـ بعد أن استجار به أهل قفط لرد هجوم البجة عنهم، وأتى من الحوف الشرقي إلى قفط بألف رجل من قبيلة قيس عيلان وغزا البجة وأعاد السبي، وأقام ببلادهم ثلاثة سنين[٨]. وليس من المستبعد أن تكون جماعات من قيس عيلان استقروا في العلاقي حيث توجد آثارهم. فيقول ابن حوقل إن المكان الذي اتخذه حكم النابغي مركزاً لعملياته الحربية ضد البجة، كان لا يزال يعرف في زمنه باسم (ماء حكم) وهو على مرحلة من عيذاب، وعلى

---

(١)Arkel. I; A.j.: Hostory of Soudan from the earlies Time to 1821, London, 1961, p.189.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ص٣٩٢.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٣.

(٤) المقريزي: المقفى الكبير ج٤ ص٤٠٤.

(٥) المقريزي: المقفى الكبير ج٤ ص٤١٤.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ص٣٩٢: ٣٩٣.

(٧) المقريزي: البيان والإعراب ص٦٦.

(٨) عن حملة حكم النابغي في بلاد البجة انظر سابقاً الفصل السياسي.

أربع مراحل من العلاقي.[1] بالإضافة إلى ذلك فقد جاءت هذه القبيلة إلى أرض البجة كأعوان العُمري في حربه ضد البجة والنوبة، في منتصف القرن الثالث الهجري[2] وفي هذه المرة أتت قيس عـيلان إلـى أرض البجـة رغبةً في الحصول على الذهب والبحث عنه، ومن المحتمل أنهم جاءوا عـن رغبـة مـن أبنـاء عمـومتهم المستقرين سابقاً في هذه الأوطان لتقاسم ثروتها، ولا يستبعد أن هذه الأعداد القيـسية قـد اختلطـت بالبجـة وساعدت في نشر الإسلام والثقافة العربية بهذه الأوطان.

ز – بنو هلال:

وهم بطن من عامر وهي تنسب إلى هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن هوازن بـن منـصور بـن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[3] قد نزلت مـصر فـي ظـل الدولـة الفاطمية، واستقروا بالصعيد في الجانب الشرقي [4] وبعد فترة قصيرة من قدومهم إلى مـصر اسـتطاعوا أن يدخلوا أرض البجة حتى ملئوا المنطقة ما بين بلاد الصعيد إلى عيذاب [5] وحين نشب النـزاع بـين القبائـل العربية في بلاد البجة انتقلت غربي النيل [6] وهذا لا يعني أن القبيلة انتقلت بـشكل كامـل فلابـد أن بعـض الأشخاص كان لهم من المصالح أن تبقيهم في هذه البلاد.

حـ – بنو تميم

ينتسبون إلى تميم بن مر بن مراء بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معـد بـن عـدنان، وكانـت منازلهم بأرض نجد والبصرة واليمامة، وامتدت إلى العذيب من أرض الكوفة، ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر، وورثت مساكنهم قبائل أخرى، [7] وفي اليمامة أجبر بنو الأخيضر قبيلة تميم على الجلاء، فاتخذت طريقها إلـى مصر في القرن الثالث الهجري، مثلما فعلت قبيلتي ربيعة ومضر، ثم انتقلت بعد ذلك إلى أسوان، ومنهـا إلـى العلاقي، وكانوا أحد القبائل الموالية للعُمري تقدم له المدد من أسوان من مر به على البجة والنوبة، وكان يقيم بذلك رجل يعرف بعثمان بن حجلة التميمي [8] وعندما نشب النزاع بين القبائل العربية في بلاد البجة، تركتهـا لتستقر بجموعها إلى شرقي النيل حيث استقرت هناك [9] واستقرارها بالجانب الشرقي بالنيل لا يبعدها كثيـراً عن بلاد البجة فلابد أن بعض أفرادها أخذ يتردد إلى بلاد البجة، والبعض الآخر استقر بها ليقيم بالدور العربي في نشر الإسلام والثقافة العربية.

وبذلك نكون قد عرضنا القبائل العربية من المجموعة العدنانية التي استقرت بأرض البجة في العصور

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٢

(٢) المقريزي: المقفى الكبير ج٤ ص٤١٠

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ص٣٩٤.

(٤) المقريزي: البيان والإعراب ص٢٨.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ص٣٩٤.

(٦) المقريزي: المقفى الكبير ج٤ ص٤١٣.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ص ٤٠١

(٨) المقريزي: المقفى الكبير ج٤ ص٤٠٦.

(٩) المقريزي: المقفى الكبير ج٤ ص٤١٠.

الوسطى، لتكون جزءاً من عناصر السكان التي نسجت كيانه الاجتماعي. وبقي علينا الآن عرض المجموعة القحطانية.

- المجموعة القحطانية:

أ- جهينة:

تنسب تلك القبيلة إلى جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن الحافي بن قضاعة [١] وقد وفدت إلى مصر مع الجيش الفاتح، واتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط [٢] ثم انتقلت بعد ذلك إلى بلاد الصعيد لتنتشر فيه [٣] وكان دخولها في أرض البجة في عام ٢٥٥هـ /٨٦٨م تحت قيادة قائدهم وهو رجل يعرف بعثمان بن سعد أحد حلفاء العُمري في حربه على البجة [٤] وقد ساهمت هذه الحملة الحربية في انتشار بني جهينة في أرض البجة، وبعد انتهاء الحرب استقرت في مكان يعرف (بوحم) على ثلاث مراحل من خربة معدن الزمرد، للعمل بالتجارة واستخراج المعادن [٥] وبذلك انتشرت في بلاد البجة لتكون في برية عيذاب، مما أدى إلى تجريد الحملات إليهم من جهة المماليك بسبب عبثهم في هذه المنطقة، فطردهم المماليك حتى بلغوا سواكن[٦] وقد شاهد ابن بطوطة منازلهم في عيذاب، وقد اختلطوا بالبجة في هذه المنطقة وقاموا ببناء منازلهم على شاطئ البحر الأحمر، وفضلوا حياة البداوة في هذه الأطراف على حياة الحضر. [٧]

ولكن بعد أن طردهم المماليك إلى جهة سواكن أصبحوا من القوة والعظمة، حتى غلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم، وأزالوا ملكهم، وحاربوا الحبشة فأرهقوهم. [٨]

ومن خلال هذا النشاط الحربي الواسع لابد أن بعض أعضائها امتزج مع البجة، وهذا لا ينكر أن الجزء الأعظم من هذه القبيلة الكبيرة المتماسكة بشكل استثنائي تمسك بخصائصه ولغته المنفصلين، واستأنف سيره فيما هو بادئ من بلاد البجة إلى المراعي المفتوحة وراء النيل. [٩]

ب- بلي:

تعد قبيلة بلي التي تنسب إلى بلي بن عمرو بن الحافي بن قضاعة [١٠] من أشهر القبائل القحطانية التي هاجرت إلى مصر قبل ظهور الإسلام [١١] وبعد ظهور الإسلام نزلت لأول مرة مع عمرو بن العاص، واتخذت

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ص٣٦٨.
(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص١٤١.
(٣) المقريزي: البيان والإعراب ص٢٧.
(٤) المقريزي: المقفى الكبير ج٤ ص٤١٢.
(٥) اليعقوبي: البلدان ص٣٣٣.
(٦) المقريزي: السلوك ج٢ (أحداث ٧١٦هـ) ص١٦٢.
(٧) رحلته: ج١ ص٢٢٢.
(٨) ابن خلدون: العبر ج٢ ص ٢١٦.
(٩) ويليامز أي آدمز: النوبة رواق إفريقيا ص٤٨٦.
(١٠) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ص٣٦٧.
(١١) انظر العناصر العربية في بلاد البجة قبل الإسلام.

لها خطة بمدينة الفسطاط [١] وفي عهد عمر بن الخطاب وفدت أعداد هائلة منها إلى مصر، وتفرقت في أنحائها، وأقام فريق ببلاد الصعيد على ضفتي النيل، امتدت منازله على الضفة الغربية من سوهاج شمالاً إلى غرب قمولة (بمحافظة قنا) جنوباً، وعلى الضفة الشرقية من عقبة فالحزاب شمالاً إلى عيذاب جنوباً [٢] في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري دخلت أرض البجة لاستخراج الذهب والزمرد والتجارة فيهم، واستقرت بمنطقة(رحم) على بعد ثلاث مراحل من خربة معدن الزمرد [٣] وظلت تعمل بالتجارة حتى زمن ابن جبير الذي يذكرهم أثناء رحلته من عيذاب في عام (٥٧٩هـ) بأنهم أصحاب طريق عيذاب، يقومون بأعمال نقل الحجاج من خلال جمالهم. [٤]

وهذا يوضح لنا مدى تنوع العمل التجاري للبلويين في بلاد البجة، ففي فترة استخراج المعادن كانوا يعملون بها، وبعد توقف عمليات التعدين عملوا بنقل الحجاج في فترة ازدهار الطرق البجاوية، وهذا يدل على مدى تغلغل هذه العناصر في هذه البلاد ومحاولة السيطرة على مصادر الكسب، ولا يكون هذا إلا من خلال اختلاط عميق بعناصر البجة يكون في مقدمتها الاختلاط الاجتماعي.

جـ- سعد العشيرة:

وهي تنسب إلى سعد العشيرة بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، وبسمى سعد العشيرة بذلك الاسم، لأنه لم يمت حتى كان عدد أولاده وأحفاده ثلاثمائة رجل، فكان إذا سئل عنهم يقول هؤلاء عشيرتي خوفاً من الحسد، وأشهر بطونها بنو أوذ بن مصعب، وبنو جعفر، وبنو منبه بن صعب[٥] ونستدل من حروب العُمري في أرض البجة عام ٢٥٥هـ بأنهم كانوا أنصاره، ولكن ما يؤكد أنهم استوطنوا في هذه المنطقة، حين شب النزاع بينهم وبين قيس عيلان، واتهموا العُمري بانحيازه لقيس، وإزاء ذلك انتهز ملك النوبة الفرصة، بمناصرته فاستمالوا إليه فرد إليهم أرضهم التي استولى عليها من قبل وأضاف لهم عليها أرضاً في هذه المنطقة [٦] وهذا يدل على أنهم من القبائل العربية التي جعلت لها من أرض البجة موطناً لها في العصور الوسطى.

وبذلك نكون قد عرضنا العناصر العربية من المجموعتين العربيتين، اللتان اتخذتا من أوطان البجة موطن لهما في العصور الوسطى لتكون جزءاً من البناء الاجتماعي لهذه الأوطان، والتي كان لها تأثير مباشر خاصة بالقبائل البجاوية التي صاهرتهم، وتأتى لأولئك العرب أن ينشروا الإسلام والثقافة العربية بين أفرادها بنسب مختلفة، تتفاوت عمقاً وسطحية من إقليم إلى آخر، حسبما تمليه ظروف هذا الاختلاط [٧] وقد لاحظنا أن أقوى اختلاط عربي كان بالبجة هو اختلاط (ربيعة)، حيث تزوج بني ربيعة من (الحداربة) من البجة، فقويت

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص١٦١.
(٢) المقريزي: البيان والإعراب ص٢٩: ٣٠.
(٣) اليعقوبي: البلدان ص٣٣٣.
(٤) رحلته: ص٣٧.
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١ ص٣٧٩.
(٦) المقريزي: المقفى الكبير ج٤ ص٤١٠.
(٧) مصطفى مسعد: البجة والعرب ص٤٥.

الحدارية بهم على سائر قبائل البجة بعد إسلامهم، كما قويت ربيعة بهم على من جاورها من القبائل العربية[1] وترتب على ذلك أن من أسلم من البجة وهم (الحدارب) أن تسيطر على غيرهم ممن لم يسلم وهم (الزنافج)[2] فأدى ذلك إلى تسارع قبائل البجة الباقية إلى اعتناق الإسلام حتى تصبح لها نفس امتيازات الحدارب، وأدى ذلك في النهاية انتشار الإسلام بين قبائل البجة ونشر الثقافة العربية بينهم [3].

وهكذا انتشر الإسلام بين أغلبية هؤلاء البجة سواء كانوا في صحراء مصر الشرقية أو في بلاد السودان، كما أيضاً انفعلوا بالإسلام انفعالاً كبيراً، إذ تعربت أسمائهم كما ذكرنا سابقاً، بل وزاد انفعالهم عن هذا الحد وقالوا بانتسابهم إلى العرب وأنهم منهم. كما لم يؤدي هذا إلى انتشار الإسلام بينهم فحسب، بل أدى إلى انتشار اللغة العربية فتكلموها حتى يستطيعوا تأدية شعائرهم الإسلامية والدينية، وحتى يستطيعوا التفاهم مع التجار العرب، وحكامهم الذين كانوا أيضاً من العرب، وكان لانتشار الإسلام واللغة العربية أثره الكبير في ظهور ثقافة عربية بجاوية مشتركة في هذه الأوطان. [4]

ثانياً: العادات والتقاليد البجاوية:

انتشرت الطباع ذات العادات والتقاليد البدوية في مجتمعات البجة خلال العصور الوسطى في الاحتياجات الضرورية للحياة اليومية، كسائر المجتمعات التي تتخذ الصحاري والجبال موطناً لها. وهذه الطباع ورثها الخلف عن السلف؛ لأن البجة عموماً يقدسون كل ما هو موروث ويحتفظون به، ورغم الطباع البدوية التي يغلب عليها التسامح والتساهل في اتخاذ الأصدقاء من الأجانب، إلا أن البجاوي محب للعزلة، قليل الكلام. وهذا ما جعل بعض زائريهم من الرحالة العرب يتوهم أن ذلك راجع إلى طبع متوحش يغلب عليه البجة، وهذا الوصف نجده في قول الرحالة ابن جبير إذ يقول: "إنهم فرقة من أضل من الأنعام سبيلا وأقل عقولا" [5] ويكرر هذا الوصف ابن تغري [6] في قوله نقلاً عن ابن فضل الله العمري فيقول عنهم: "لا فرق بينهم وبين الحيوانات الوحشية".

والواقع أن حب البجاوي للعزلة وقلة الاحتكاك بغيره لم يرجع ذلك إلى طبع وحشي أو وليد الخوف، أو أنه غريب عن سائر الناس، بل هو خُلق يرجع إلى طبيعة البيئة الجبلية، التي لا تساعد على التجمع والاختلاط، فهو ليس مبغضاً للغرباء والأجانب، بل ألف العيش بنفسه، فلا يجد لهم مكاناً في دائرة حياته. [7]

غير أن هذا القول لا ينطبق على سائر عناصر البجة، فلا ينطبق إلا على العناصر التي اتخذت من المواضع الجبلية الوعرة ملجأ لهم، أما غالبيتهم فهم ذو طباع اجتماعية متسامحة، وقد تلقى عدد من

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج١ ص١٨.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٥.

(٣) عطية القوصي: دولة الكنوز ص ١٢٣.

(٤) رمضان عبد العظيم: الحدود المصرية السودانية ص٢٤٩: ٢٥٠.

(٥) رحلته: ص٤٢.

(٦) النجوم الزاهرة ص٢٩٦.

(٧) محمد عوض: السودان الشمالي ص٢٨ .

المؤرخين قدراً حسناً من هذه المعاملة كابن الوردي الذي قال عنهم: "هم أهل أنس، وحسن وتلطف مع التجار"[١]، وذكر عنهم الرحالة ناصر خسرو بأنهم "ليسوا أشرار" [٢]، وأضاف ابن سعيد بأنهم: "أهل أمانة" [٣]. وأضاف المقريزي [٤] عن طباعهم بأنهم أهل حق ولهم عادات في طلبه فقال: "هم أصحاب ذمة (حق) فإذا غدر أحدهم، رفع المغدور به ثوباً على حربته، وقال: هذا عرش فلان (يعني أبا الغادر)، فتصير سيئة عليه إلى أن يتراضاه". وأضاف إلى ذلك بأنهم أهل ضيافة وكرم وقد يبالغون في ذلك إلى حد كبير، فيقول: "وهم يبالغون في الضيافة، فإذا طرق أحدهم ضيف، ذبح له، فإذا تجاوز الثلاثة نفر، نحر لهم من أقرب الأنعام إليه، سواء كانت له أو لغيره، وإن لم يكن شيء، نحر راحلة الضيف وعوضه خيراً منها".

وهكذا عاش البجة في مجتمعاتهم بهذه الطباع والصفات الحسنة السمحة، وفيما يلي أوصاف لحياة البجة في الاحتياجات الضرورية للحياة اليومية، من مسكن وملبس ومأكل وعادات وتقاليد.

أ – المسكن:

تقتضي معيشة الإنسان بأن يكون مسكنه مطابقاً لها، لذلك نرى تنوع المسكن بين البجة، خيام من شعر أو جلد أو بيوت من أخصاص. وبما أن الحياة البدوية هي السائدة في الأغلب، نرى أن البيت السائد هو بيت الشعر، وذلك لما تقتضيه هذه الحياة بأن يكون المسكن خفيفاً، يسهل نقله وبناؤه [٥]. وقد أشار إلى هذه الخيام ابن حوقل بقوله: "هم أصحاب أخبية شعر" [٦] ويؤكد هذا القول المقريزي نقلاً عن الهمداني بقوله: "هم أصحاب أخبية شعر"[٧]. وهذه الخيام تتكون عادة من شعر الماعز أو صوف الغنم بعد غزله ينصب على عيدان من الحطب. وعلى خلاف هذه الخيام، كانت أيضاً تقام خيام من الجلد والتي أشار إليها اليعقوبي بقوله: "البجة ينزلون خيام جلود" [٨] وأكد هذا القول المقريزي نقلاً عن ابن سليم الأسواني بقوله: "إنهم بادية .... بأخبية جلود" [٩]. وهذه الخيام كانت تقام من جلود الحيوانات التي يقتنوها من إبل وغنم وما عز بعد دباغتها، ثم تخاط لتنصب منها.

والواضح من التنوع الملحوظ في مكونات هذه الخيام _ شعر وجلد _ هو تأثير بيئي حتمي فمن المعروف أن بيئة البجة تنقسم إلى أجزاء صحراوية سهلية جافة، وأجزاء صحراوية جبلية مطيرة، لذلك تحتم على ساكني المناطق الصحراوية الجافة اقتناء الخيام المكونة من الشعر فهي تعمل على حمايتهم من أشعة الشمس الحارة نهاراً، وصقيع البرد ليلاً. بينما تحتم على ساكني المناطق المطيرة استخدام خيام الجلود والتي تعمل

---

(١) خريدة العجائب ص٤٨.
(٢) سفر نامة ص ١٣٤.
(٣) بسط الأرض ص٤٨.
(٤) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٤.
(٥) محمد عوض: السودان الشمالي ص٢٨ .
(٦) صورة الأرض ص٥١.
(٧) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٧.
(٨) البلدان ص٣٣٦.
(٩) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٧.

على عدم تسريب المياه داخلها.

وبما أن البيئة الزراعية نالت حظاً من أوطان البجة وإن كانت قليلة، فإنها تقضي بأن يكون المسكن مناسباً لها، فسادت في هذه البيئة بيوت الأخصاص، وهذا ما لاحظه ابن حوقل في بيئة قبلية بازين المزارعة، فذكر "أنهم كانوا يقيمون في أخصاص كالقرى"[١]. والملاحظ من قول ابن حوقل عن المسكن وإن كان بسيط يتكون من سيقان الذرة أو الحطب الجاف أو غيرها. يكاد يكون دائم، وذلك لما تقتضيه حياة الزراعة من الاستقرار بجانب المحصول لرعايته وحصاده، وهذا بخلاف حياة الرعي البدوية التي تعتمد على التنقل والترحال، والذي كان أثره واضحاً في استخدام خيام الشعر أو الجلد.

ب- الملبس:

بما أن بيئة البجة يغلب عليها الطابع البدوي، كان لابد أن ينتشر الزي المماثل للمجتمعات البدوية الأخرى كالعرب، وقد لاحظ ابن حوقل ملابسهم وقال عنها: "هم في زيّ العرب" [٢]، وقد أكد هذا القول المقريزي _ نقلاً عن الهمداني بقوله: "إنهم يتزيون بزيّ العرب" [٣]. ولا غرابة في ذلك، فمظاهر التضاريس في كلا البيئتين _ العربية والبجاوية _ تكاد تكون واحدة.

وقد جاء قول ابن بطوطة [٤] بوصف توضيحي لهذا الزي بقوله: "إنهم يلتحفون ملاحف (عباءات) صفراً، ويشدون على رؤسهم عصائب (عمامات) يكون عرض العصابة منها أصبعاً". والملاحظ من هذا الزي المماثل لزي العرب، قد أملته عليهم بيئتهم البدوية فإنه يتكون من عباءة وعمامة، وهما يعملان على وقاية البدوي من أشعة الشمس الحارقة بالنهار، وصقيع البرد ليلاً.

جـ - المأكل:

اعتمد البجة في غذائهم على منتجات بيئتهم، وبما أن الإبل والأغنام كانت الحيوانات الأكثر انتشاراً، اعتمد قوام هذه هذا الغذاء على منتجاتها من الألبان واللحوم، فضلاً عن قليل من الحبوب. وقد لاحظ العديد من المؤلفين العرب نوعية الأطعمة التي اعتمد عليها البجة، ومن هؤلاء المؤلفين اليعقوبي الذي أشار إلى أنهم يأكلون الذرة وما شابهها[٥]، ويذكر في موضع آخر أنهم يأكلون حبوب الدخن واللبن [٦]. بينما أشار ابن حوقل أن طعامهم اعتمد على اللحم واللبن[٧] وقد اتفق المقريزي في ذلك وأضاف أنهم قد يأكلون الجبن ولكن بكميات قليلة [٨]. وذكر كذلك ابن بطوطة أن طعامهم اعتمد على ألبان الإبل[٩].

---

(١) صورة الأرض ص٥٧.
(٢) صورة الأرض ص٥٠.
(٣) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٧.
(٤) رحلته ج١ ص٥٣.
(٥) البلدان ص٣٣٦ .
(٦) تاريخه ج١ ص١٩٢.
(٧) صورة الأرض ص٥٦.
(٨) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٧.
(٩) رحلته ج١ ص٥٣.

والملاحظ في نوعية الطعام الذي اعتمد عليه البجة، نجد أنه يمنح أجسامهم الصحة ويجعلها تمتاز بالنحول والرشاقة، وهذا ما جعل المقريزي[1] يصفهم بصحة أبدانهم، وخماص (ضمور) بطونهم، وسرعتهم في الجري.

د - العادات والتقاليد:

لقد انتشرت العادات والتقاليد بين البجة كسائر المجتمعات الأخرى، وكانت أبرز هذه العادات هي العلامات التي تتعلق بالأجسام. وهذه العادات تنتشر في جميع المجتمعات الإفريقية الحامية. وفيما يلي هذه العلامات وتقاليدها:

- منها نتف اللحية، وقد لاحظ هذه العادة اليعقوبي منتشرة بين البجة[2] ولكن لاحظها أكثر انتشاراً في منطقة تفلين[3].

- ومن هذه العادات أيضاً نزع فلك ثدي الغلمان، وفلك الثدي هو النتوء البارز في صدور الرجال، ويبررون فعل هذه العادة بقولهم: لئلا يشبه ثديهم ثدي النساء[4].

- وعادة أخرى هي قلع الثنايا، وهي الأربعة أسنان في مقدمة الفم، إثنان في الأعلى واثنان في الأسفل، وقد لاحظ اليعقوبي [5] وابن حوقل[6] هذه العادة منتشرة بينهم خاصة في المنطقة الواقعة بين باضع وخور بركة، ويذكر المقريزي أنهم يبررون هذه العادة بقولهم: لا نتشبه بالحمير، لذلك لا يكون لنا أسنان كأسنانهم[7].

- عادة بحر الآذان، وهي شقها، وقد لاحظ ابن حوقل أن هذه العادة تنتشر بكثرة في المناطق الجنوبية من أرض البجة وخاصة قبائل بارية [8]، ومن العادات المتعلقة بالآذان أيضاً خرقها، وانتشرت هذه العادة بكثرة بين نساء ميناء باضع، وربما تجاوز عدد هذه الخروق بآذانهن خروقاً كثيرة، وقد بلغت إحداهن أن خرقت آذانها عشرين خرقاً[9].

- الختان، وهي العادة الأكثر انتشاراً بين البجة، وهي في الأولاد عملية سهلة يسيرة لا تكاد تختلف عما يحدث اليوم. ومن الجائز أنها تعمل والطفل في حوله الأول أو الثاني، ويطهر مكان العملية بالشحم الساخن[10]، أما ختان الفتاة عندهم فهو عملية قاسية، وهي توشك أن تكون عملية جراحية، وقد تدعى هذه

---

(١) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٤.
(٢) البلدان ص٣٣٦.
(٣) تاريخه ج١ ص١٩٢.
(٤) اليعقوبي: تاريخه ج١ ص١٩٣.
(٥) تاريخه ج١ ص١٩٢.
(٦) صورة الأرض ص٥٥.
(٧) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٥.
(٨) صورة الأرض ص٥٥.
(٩) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص٣٢٤.
(١٠) محمد عوض السودان الشمالي: ص٤٣.

العملية في السودان باسم "الختان الفرعوني"[1]، وقد لاحظ هذه العادة بين البجة اليعقوبي [2] وقد وصف كيفية إجراءها المقريزي[3].

وظلت هذه العادات تتبع، رغم انتشار الإسلام، فقد ذكر عن ذلك ابن حوقل فيقول: "جرت أحكامهم على سنن كانت لهم في الجاهلية إلى بعض أحكام يستعملونها إسلامية" [4]. ويؤكد هذا القول أيضاً المقريزي بقوله: "إن منهم جماعة على هذه المذاهب، ومنهم من يتمسك بذلك مع إسلامه" [5]. وإذا دل هذا فإنما يدل على مدى تمسك البجة بكل ما هو موروث والمحافظة عليه.

وفي نهاية القول نذكر أن البجة نظمت شئونها بهذه الطرق في مختلف جوانب الحياة، وهذه الصبغة قد صبغتهم بها بيئتهم القاسية، وتمرسوا بها، حتى أصبحوا جزءاً منها، بعد أن عاشوا فيها آلاف السنين. فأصبحوا ولهم جلد كثير على تحمل الشدائد وشظف العيش، يتجزئون بالقليل من الزاد إذا تيسر، ويصبرون على الحرمان إذا جاءت سنوات الجهد والمشقة. ومما أكسبهم عادات مختلفة تقلدوها، جعلت من مظهرهم الطبيعي مظهراً يتفق مع ظروف بيئتهم في العصور الوسطى.

وصفوة القول أن إقليم البجة كان مستودعاً هائلاً للعناصر البشرية، ممن اتخذه وطناً أصيلا له، ومأوى لمن هاجر إليه لظروف متباينة، فتعددت القبائل والأجناس في بلاد البجة لتكون في النهاية طبقات اجتماعية نافس بعضها البعض، وانطوى غيرها تحت لواء غيره بما سنحت لها الفرصة.

وقد أثر العنصر العربي في هذا الإقليم تأثيراً مباشراً في عناصر البشرية، سواء أكان هذا قبل الإسلام أو بعده، غير أن الدور العربي كان له بارز الأثر في هذا الإقليم بعد الإسلام، لتظل آثارهم عالقة إلى اليوم في أذهان البجة، ثم يصبح هذا الإقليم أهم مراكز التجارة والثقافة العربية في المنطقة.

ورغم ما طرأ على البجة في كل ما هو جديد، إلا أنهم احتفظوا بما لهم من عادات وتقاليد ظهرت ملامحها في ضروريات الحياة ومظاهرها الاجتماعية.

****

---

(١) عن كيفية إجراء الختان الفرعوني انظر (د. سهام عبد السلام: التشويه الجنسي للإناث _ الختان _ اوهام وحقائق، القاهرة ١٩٩٦م)

(٢) تاريخه ج١ ص١٩٢.

(٣) انظر المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٥.

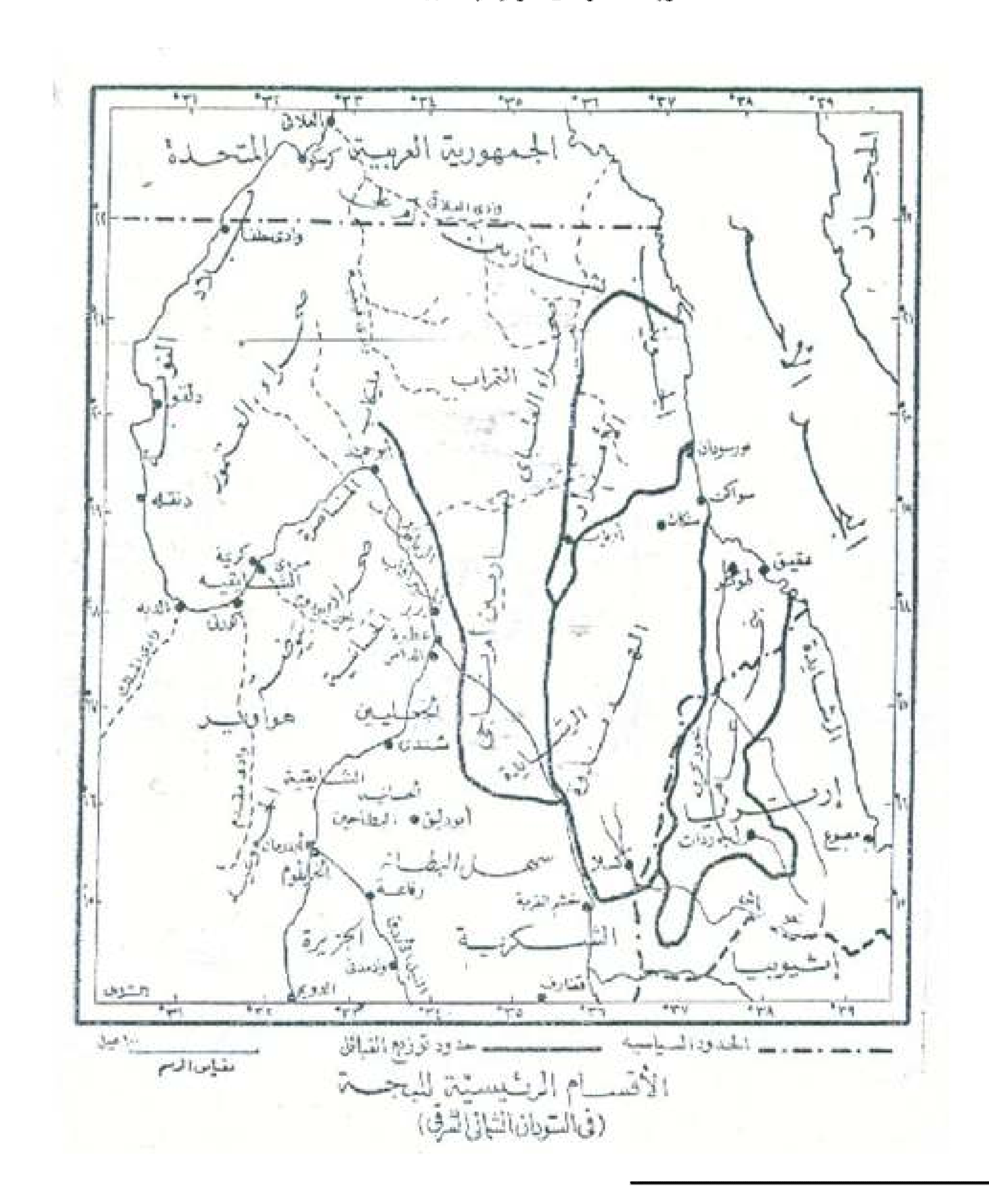
(٤) صورة الأرض ص ٥١.

(٥) المواعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٧.

الملاحق والصور

الملحق الأول:

خريطة للمواطن الرئيسية للبجة[1]:

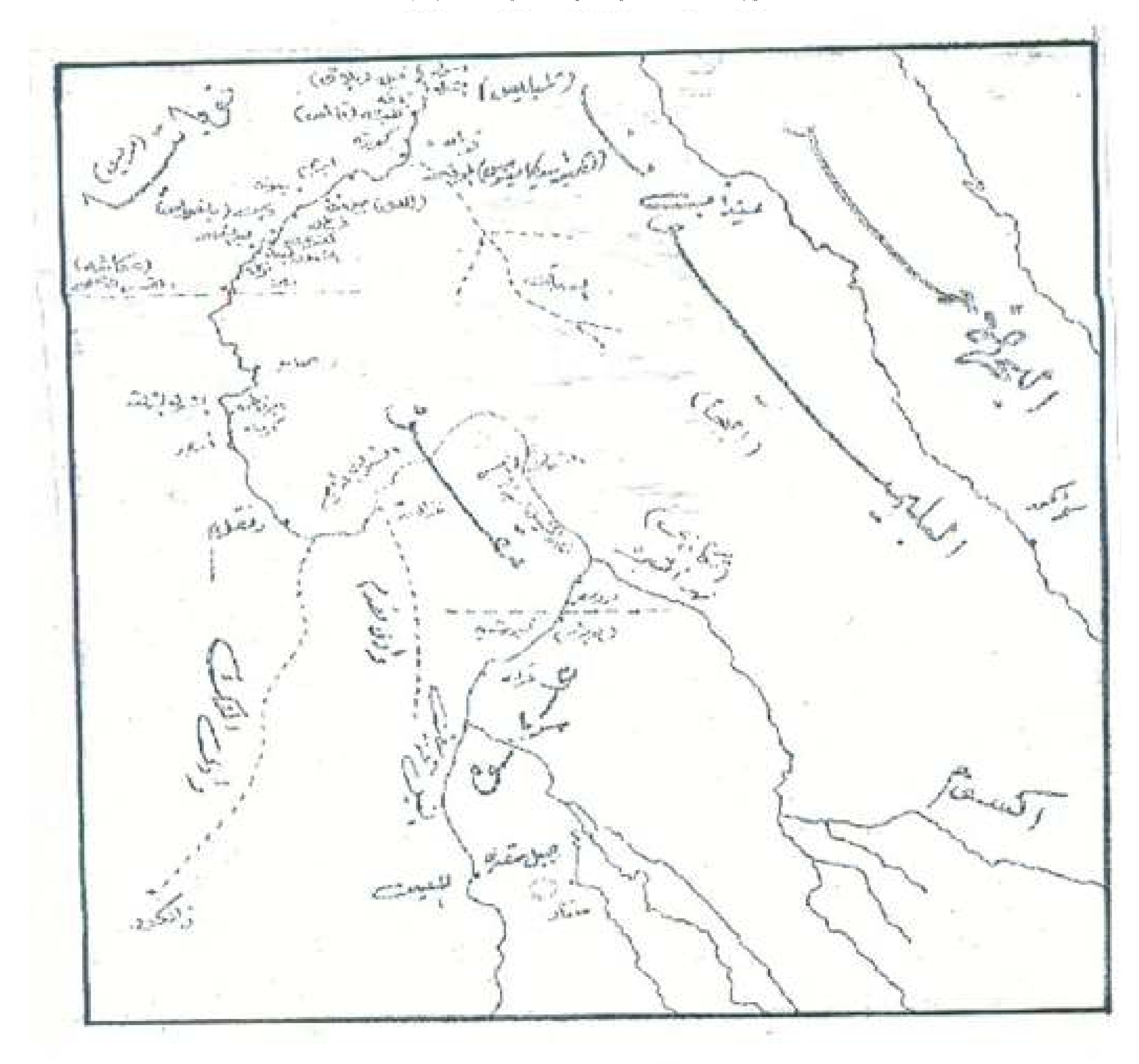


---

(١) محمد عوض: الشعوب والسلالات الأفريقية. ص ٢٥٨.

الملحق الثاني:

خريطة لبلاد النوبة وممالكها المسيحية[١]

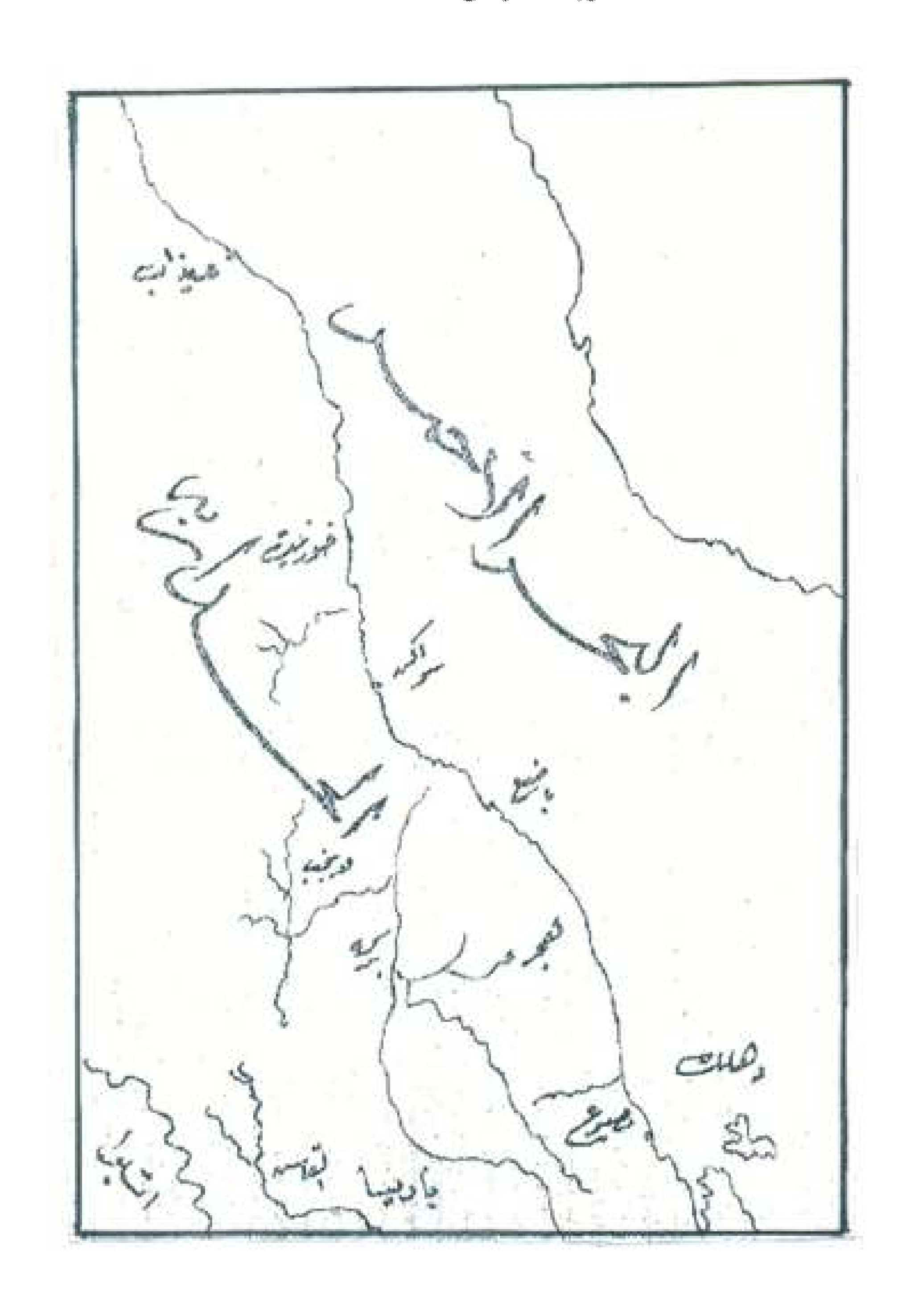


---

(١) مصطفى مسعد: النوبة في العصور الوسطى ص ٢٨٧.

الملحق الثالث

خريطة لموانئ ساحل البجة[1]



(١)مصطفى مسعد: النوبة في العصور الوسطى ص ٢٨٨.

الملحق الرابع

نسخة مصورة من كتاب المقريزي المواعظ والاعتبار لمعاهدة البقط[1]

كما أنصته بعد البسملة عهد من الأمير
عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد
أرض أسوان إلى حد أرض علوة أن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم
من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد
النبي صلى الله عليه وسلم أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حربا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على
أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه وعليكم حفظ من نزل بلدكم
أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى
أرض الإسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف عنه وعليكم
حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليا وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته وعليكم
في كل سنة ثلثمائة وستون رأسا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب يكون فيها
ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك إلى والي أسوان وليس على
مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان فإن أنتم آويتم عبد المسلم أو قتلتم
مسلما أو معاهدا أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئا من الثلثمائة رأس
والستين رأسا فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير
الحاكمين علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولنا عليكم بذلك أعظم
ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم الله الشاهد بيننا وبينكم
على ذلك كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين.

---

(١) المواعظ والاعتبار، ج١ ص٢٠٢.

الملحق الخامس

نسخة مصورة من كتاب المقريزي المواعظ والاعتبار لعقد الأمان(١)

كتابا نسخته هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير أبي
إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين لكنون بن عبد العزيز
عظيم البجه بأسوان انك سألتني وطلبت الي أن أؤمنك وأهل بلدك من البجه وأعقد لك ولهم أمانا علي وعلى
جميع المسلمين فأجبتك الى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني
وشرطت لي في كتابي هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر الى حد ما بين
دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير
المؤمنين الا أنك تكون في بلدك ملكا على ما أنت عليه في البجه وعلى أن تؤدي اليه الخراج في كل عام على ما كان
عليه سلف البجه وذلك مائة من الابل أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة في بيت المال والخيار في ذلك لأمير المؤمنين
ولولاته وليس لك أن تخرم شيئا عليك من الخراج وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمدا رسول الله صلى
الله عليه وسلم او كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به أو قتل أحدا من المسلمين حرا أو عبدا فقد برئت منه الذمة
ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وذمة جماعة المسلمين وحل دمه كما يحل دم
اهل الحرب وذراريهم وعلى أن أحدا منكم ان أعان المحاربين على أهل الاسلام بمال أو دله على عورة من عورات
المسلمين أو أثر لعزتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه وعلى أن أحدا منكم ان قتل أحدا من المسلمين عمدا او سهوا
او خطأ حرا او عبدا او احدا من أهل ذمة المسلمين او اصاب لاحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلاد البجه
أو ببلاد الاسلام أو ببلاد النوبة أو في شيء من البلدان برا أو بحرا فعليه في قتل المسلم عشر ديات وفي قتل العبد
المسلم عشر قيم وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم وفي كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه
وان دخل أحد من المسلمين بلاد البجه تاجرا أو مقيما أو مجتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج
من بلادكم ولا تؤووا أحدا من آبق المسلمين فان أتاكم آت فعليكم أن تردوه الى المسلمين وعلى أن تردوا أموال
المسلمين اذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك وعلى انكم ان نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين
لا تظهرون سلاحا ولا تدخلون المدائن والقرى بحال ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة
فيها برا ولا بحرا ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة ولا تسرقوا لمسلم
ولا ذمي مالا وعلى أن لا تهدموا شيئا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا
وعرضا فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلا يفي
للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج ورد ما أصابه البجه للمسلمين من دم ومال وعلى أن أحدا من البجه
لا يعترض حد القصر الى قرية يقال لها قبان من بلد النوبة حدا لا عمدة عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين
لكنون بن عبد العزيز كبير البجه الامان على ما سمينا وشرطنا في كتابنا هذا وعلى أن يوافي به أمير المؤمنين فان زاغ
كنون او عاث فلا عهد له ولا ذمة وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجه لقبض صدقات من أسلم
من البجه وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم وأخذ بذلك عهد الله عليه باعظم ما أخذ على خلقه من
الوفاء والميثاق ولكنون بن عبد العزيز وجميع البجه عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير
أبي اسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم
ما وفى كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه فان غير كنون أو بدل أحد من البجه فذمة الله جل اسمه وذمة
أمير المؤمنين وذمة الأمير أبي اسحاق بن امير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم
وترجم جميع ما في هذا الكتاب حرفا حرفا زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة وعبد الله بن اسمعيل القرشي
ثم نسق جماعة من شهود أسوان فأقام البجه على ذلك

---

(١) المواعظ والاعتبار، ج١ ص١٩٤ - ١٩٥.

الملحق السادس

فرد من قبائل البجة[1]



(١) WWW. Rookn .com

الملحق السابع

صور حديثة لافراد من قبائل البجة(١)







(١) http: //bej a.topgoo.net

الملحق الثامن [1]

عملية الحصول على الماء من الابار



فرد من البجة يعد القهوة المخصوصة (الجبنة)



---

(١) http: //beja.topgoo.net

الملحق التاسع

تنقلات البجة(١)





(١) http: //beja.topgoo.net

الملحق العاشر

الإبل البجاوية[1]





---

(١) http: //beja.topgoo.net

الملحق الحادي عشر

مساكن البجة[١]



أفراد من قبيلة البشاريين (حلفا) التقطت الصورة في الفترة ما بين ١٨٦٠ - ١٩٢٠م.[٢]



---

(١) WWW. Rookn .com

(٢) http: //beja.topgoo.net

وسوف أعرض فيها ما توصلت إليه خلال بحثي من نتائج وهي:

١- قدم مصطلح البجة حث يرجع إلى زمن الفراعة ولا زال يستعمل حتى الآن.

٢- أن قبائل البجة من أولى القبائل الحامية التي استقرت في إفريقيا ومارست النشاط الإنساني.

٣- بفضل العرب اعتنق البجة الإسلام واللغة العربية فنشروها في المنطقة.

٤- أن بلاد البجة كانت مستودع للعناصر البشرية المختلفة والمتعددة والتي أثرت فيهم وأثروا فيها.

٥- اتبع البجة النظام القبلي في تنظيم شئون الحكم والإدارة.

٦- استفاد العرب من نظام وراثة الحكم السائد عند البجة مما ساعدهم على وراثة حكم المنطقة، وساعدهم هذا على نشر الفكر والثقافة العربية في المنطقة.

٧- أن قبائل البجة كثيراً ما كانت تختلف وتتنازع فيما بينها لفرض الهيمنة والسيطرة على المناطق.

٨- عدم مساندة البجة للروم ضد العرب في بداية الفتح وبالتالي عدم وجود صلة عدائية مبكرة بين البجة والعرب.

٩- الهجوم المتكرر من البجة على المسلمين ترجع أسبابه إلى ضعف الحكومة المركزية في القاهرة.

١٠- أن عقد الأمان الذي عقده ابن الجهم مع كانون بن عبد العزيز في عام ٢١٦هـ / ٨٤١م مثلت بنوده فتح بلاد البجة على مصراعيها لاستقرار العرب.

١١- أن العمري من أهم وأقوى الشخصيات التي أقرت السلام بالمنطقة وحماية حدود الدولة الإسلامية.

١٢- في عام ٣٩٧هـ / ١٠٠٤م صار إقليم البجة إمارة إسلامية بقيادة ربيعة لتبدأ في توطيد الثقافة العربية ونشرها في المنطقة.

١٣- أن البجة من الشعوب التي مارست الزراعة في بعض المناطق مستعينة في ذلك بمن جاورهم من الشعوب المزارعة.

١٤- أن البجة من أقدم الشعوب الرعوية في القارة ومن أوائل الذين اقتنوا الإبل وعنوها برعاية خاصة، حتى أصبح أفضل الأجناس لديهم إلى الآن.

١٥ – أن البجة مارست مجموعة من الحرف التي كثر طلابها على المستوى العالمي وهي حرفة استخراج الزمرد.

١٦- أن إقليم البجة احتوى على أهم المراكز التجارية وأعظم الأسواق التي ربطت مصر بمن جاورها من البلدان كالمغرب والسودان والحبشة والحجاز واليمن.

١٧- أن ساحل بلاد البجة شهد على أقدم نشاط تجاري عبر مراحل التاريخ.

١٨- أن ميناء باضع هي أولى الموانئ التي أسسها العرب على ساحل بلاد البجة منذ القرن الأول الهجري الثاني الميلادي

١٩- ساهم البجة في نشاط حركة التجارة بميناء باضع من خلال نقل التجارة عبر صحراء مصر الشرقية وتقديم الخدمات المختلفة للتجار.

٢٠- أن ميناء عيذاب من أقدم الموانئ التجارية على ساحل البجة حيث يرجع زمن إنشاءها إلى الفراعنة وازدادت قيمتها في ظل العرب لتحصل بعدها على قيمة عالمية.

٢١- أن ميناء سواكن اشتهرت في نهاية القرن التاسع الهجري وأوائل القرن الخامس عشر الميلادي ولكنها كانت قائمة منذ قيام باضع العربية.

٢٢- أن ميناء سواكن هي الميناء الوحيد على ساحل البجة التي أداروا تجارتها دون غيرهم، وهذا بخلاف ما قاموا به في ميناء باضع وعيذاب والذي أقتصر دورهم على تقديم الخدمات للتجارة والتجار.

٢٣- أن إقليم البجة شهد تجمعات قبلية في مناطق مختلفة مارست فيما بينها النظام الطبقي.

٢٤- أن بعض النتائج السابقة ذهبت إلى أن الحداربة عرب وأثبتنا من خلال البحث على أنهم أحد فروع البجة.

٢٥- أن انتساب الكثير من القبائل البجاوية إلى العنصر العربي مرجعه التأثر العميق بالثقافة العربية والإسلام خلال العصور الوسطى، وقد أكدنا مدى انتساب هذه القبائل للبجة وفروعها الحديثة.

٢٦- أن هجرة القبائل العربية إلى بلاد البجة قبل الإسلام بغرض التجارة كان لها عظيم الأثر. غير أن الهجرة العربية بعد الإسلام كان لها الفضل في نشر الإسلام والثقافة العربية في المنطقة.

٢٧- احتفاظ البجة بمجموعة من العادات والتقاليد تخص بيئتهم رغم ما طرأ عليها من مختلف الثقافات.

أولاً المصادر العربية المخطوطة:

(١) ابن الحنبلي: (رضي الدين محمد إبراهيم) ت ٩٧١هـ:

"الآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة"، مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات العربية فهرس المخطوطات المصورة، ج١ رقم ٢ تاريخ.

(٢) ابن فضل الله العمري: (أبو العباس أحمد بن يوسف) ت ٦٥١هـ:

"مسالك الإبصار في ممالك الأمصار" مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية، رقم ٥٥٩ معارف عامة.

(٣) المقريزي: (تقي الدين أحمد بن علي) ت٨٥٤هـ:

"السلوك لمعرفة دول الملوك"، حققه الدكتور محمد مصطفى زيادة حتى نهاية عام ٧٥٥هـ، وحقق باقيه د/ سعيد عبد الفتاح عاشور.

ثانياً المصادر العربية المطبوعة:

(١) ابن الأثير: (علي بن أحمد بن أبي الكرم) ت٦٣٠هـ:

"الكامل في التاريخ ٩ أجزاء، بيروت ١٤٠٢هـ.

(٢) ابن بطوطة: (شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللوتي الطنجي) ت٧٩٩هـ:

"تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" جزءان، القاهرة ١٩٦٤م.

(٣) ابن بعرة: (منصور الذهبي الكاملي) توفى في النصف الأول من القرن السابع الهجري:

"كشف الأسرار العلمية بدار الدرب المصرية". القاهرة ١٩٦٦م.

(٤) ابن جبير: (أبو الحسن محمد بن أحمد) ت٦١٤هـ:

"تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" تحقيق حسن مؤنس، القاهرة ١٩٠٨م.

(٥) ابن حزم: (أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي) ت٤٥٦هـ:

"جمهرة أنساب العرب"، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٨م.

(٦) ابن حوقل: (أبو القاسم أحمد النصيبي) توفى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

"صورة الأرض" نشر كرامرز، ليدن ١٩٣٨م.

(٧) ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن جابر) ت٨٠٨هـ:

"العبر وديوان المبتدأ والخبر" القاهرة ١٩٧٩م.

(٨) ابن رستة: (أبو علي أحمد بن محمد بن إسحاق) ت٢٩٥هـ:

"الأعلاق النفيسة" ليدن ١٨٩٢م.

(٩) ابن سعيد المغربي: (علي بن موسى المغربي) ت٦٧٣هـ:

"بسط الأرض في الطول والعرض" تحقيق قرنيط خينيس، تطوان ١٩٥٨م.

"المغرب في حلي المغرب" تحقيق زكي محمد حسن، وسيدة الكاشف، القاهرة ١٩٥٣م.

(١٠) ابن عبد الحكم: (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم القرشي) ت٢٥٧هـ

"فتوح مصر" تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦١م.

(١١) ابن فضل الله العمري: (شهاب الدين أحمد بن يحيى) ت٧٤٩هـ:

"التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٣١٢هـ.

(١٢) ابن النديم: (محمد بن إسحاق) ت٣٨٣هـ:

"الفهرست" تحقيق رضا تجداد بن علي بن زين العابدين، طهران ١٣٩١هـ.

(١٣) ابن الوردي: (زين الدين أبو حفص عمر) ت٧٣٩هـ:

"خريدة العجائب وفريدة الغرائب" القاهرة ١٣١٦هـ.

(١٤) أبو الفدا : (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل) ت٧٣٢هـ:

"تقويم البلدان" باريس ١٨٤٠م.

(١٥) أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف بن تغري بردي) ت٨٧٤هـ:

"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ١٦ جزء القاهرة ١٩٣٢م.

(١٦) الإدريسي: (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد العزيز) ت ٥٦٠هـ.

"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" بيروت ١٨٦٦م.

(١٧) الإدفوي: (كمال الدين جعفر بن ثعلب) ت ٧٤٨هـ.

"الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد" تحقيق محمد سعد حسن، وراجعه طه الحاجري، القاهرة ١٩٦٦م.

(١٨) الاصطخري: (أبو القاسم إبراهيم بن محمد) توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

"المسالك والممالك". تحقيق محمد جابر عبد العال، القاهرة ١٩٦١م.

(١٩) البغدادي: (صفي الدين بن عبد المؤمن بن عبد الحق) ت ٧٣٩هـ.

"مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع".

(٢٠) البلاذري: (أحمد بن يحيى بن جابر) ت ٢٧٩هـ

"فتوح البلدان" تحقيق: رضوان محمد رضوان، بيروت ١٤٠٣هـ.

(٢١) البلوي: (عبد الله بن عمير بن محفوظ) توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري

"سيرة ابن طولون" تحقيق: محمد كرد علي، دمشق ١٣٥٨هـ.

(٢٢) البيروني: (محمد بن أحمد) ت ٤٣٠هـ

"الجماهر في معرفة الجواهر، حيدر آباد بالهند، ١٣٥٥هـ".

(٢٣) التجيبي السبتي: (القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التجيبي السبتي) ت ٦٥٠هـ

"مستفاد الرحلة والاغتراب". تحقيق وإعداد: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس ١٩٧٥م.

(٢٤) التيفاشي: (أبو العباس أحمد بن يوسف) ت٦٥١هـ

"أزهار الأفكار في جوهر الأحجار". نشر أنطونيور دانبيري، فرنسا ١٨١٨م.

(٢٥) الحسن الوزان: (الحسن بن محمد الوزان) ت ٨٩٤هـ.

"وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط٢ سنة ١٩٨٣.

(٢٦) الحميري: (محمد بن عبد المنعم) ت ٧٢٧هـ.

"الروض المعطار في أخبار الأقطار" تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت ١٩٨٤م.

(٢٧) الزهري: (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر) تاريخ الوفاة غير مذكور.

"كتاب الجغرافية" تحقيق: محمد حاج صادق، المعهد الفنسي، دمشق ١٩٦٨م.

(٢٨) الطبري: (محمد بن جرير) ت ٣١٠هـ

"تاريخ الرسل والملوك" ٨ أجزاء، تحقق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٤ القاهرة ١٩٦٧م.

(٢٩) القلقشندي: (شهاب الدين أحمد بن علي) ت ٨٢١هـ:

"صبح الأعشى في صناعة الإنشا" القاهرة، دار الكتب الخديوية ١٩١٤م.

(٣٠) الكندي: (محمد بن يوسف بن يعقوب) ت ٣٥٠هـ.

"ولاة مصر" بيروت ١٩٠٨م.

(٣١) المسعودي: (أبو الحسن علي بن الحسين) ت ٣٤٦هـ:

- "التنبيه والإشراف" نشر دي جوية، ليدن ١٨٩٧م.
- "مروج الذهب ومعادن الجوهر" تحقيق محي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٨٣م.

(٣٢) المقدسي: (أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الشاوي) ت ٣٨٠هـ.

"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ليدن ١٩٠٩م.

(٣٣) المقريزي: (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي) ت ٨٤٥هـ

- "البيان والإعراب عما بأرض من الأعراب". تحقيق: عبد المجيد عابدين، القاهرة ط١ ١٩٦١م.
- "المقفى الكبير" تحقيق محمد البعلاوي (بيروت ١٩٩١م).

"السلوك لمعرفة دول الملوك" حققه د/ مصطفى زيادة حتى نهاية عام ٧٥٥هـ، وحقق د/ سعيد عبد الفتاح عاشور بقية الكتاب.

(٣٤) ناصر خسرو: (علوي الفارسي) ت ٤٧٦هـ.

"سفر نامة" ترجمة د/ يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥م. طبعة ١٩٩٣م.

(٣٥) النويري: (شهاب الدين أحمد عبد الوهاب) ت ٧٣٢هـ.

"نهاية الأرب في فنون الأدب" طبعة القاهرة ١٩٩٠م، طبعة القاهرة ١٩٩٢م.

(٣٦) الهمداني: (أبو بكر أحمد بن محمد بن أبي عثمان الحازمي) ت ٥٨٤هـ.

"مختصر البلدان" ط ليدن سنة ١٣٠٢هـ.

(٣٧) الواقدي: (محمد بن عمر) ت ٢٠٧هـ.

"فتوح الشام" جزءان (بيروت، بدون تاريخ)

(٣٨) ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبو عبد الله الرومي) ت ٦٢٦هـ.

"معجم البلدان" ١٠ أجزاء، بيروت ١٩٨٦م.

(٣٩) اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) ت ٢٨٤هـ.

"البلدان" ط ليدن ١٨٩١م.

"تاريخ اليعقوبي" ط بيروت ١٩٦٠م.

ثالثاً المراجع العربية:

(١)- السيد عبد العزيز سالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٣م.

(٢) الشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، القاهرة ١٩٨٧ م.

: معالم تاريخ سودان وادي النيل، ط١ القاهرة ١٩٥٥م.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر: ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٣٣م.

(٤) بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان. الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ترجمة فؤاد أندراوس القاهرة ١٩٥٩م.

(٥) جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام (بيروت – بدون تاريخ).

(٦) جمال حمدان: شخصية مصر دراسة عبقرية مكان، عالم المكتبات، القاهرة ١٩٨٠م.

(٧) جواد العلي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢ بغداد ١٤١٣هـ.

(٨) جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة والوسطى. ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨م.

(٩) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، القاهرة ١٩٨١م.

(١٠) سليم حسن: موسوعة المصر القديمة، عشرة أجزاء، مهرجان القاهرة للجميع عام ٢٠٠٠م.

(١١) صبحي لبيب: التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية القاهرة ١٩٥٢م.
(١٢) صلاح النايب: تاريخ القبائل المصرية. ط المطبعة العصرية ١٩٨٤م.
(١٣) صلاح الدين الشامي: الموانئ السودانية، دراسة في الجغرافية التاريخية، مكتبة جامعة القاهرة ١٩٦٢م.
(١٤) عبد الرحمن عبد التواب: شواهد القبور في جبانة أسوان حفريات في المدة من ديسمبر ١٩٦٠م – منتصف ١٩٦٣م (لم تنشر).
(١٥) عبد العال عبد المنعم الشامي: محاضرات في الجغرافية التاريخية، طريق عيذاب قوص خلال العصر الوسيط القاهرة ١٩٩٨م.
محاضرات في الجغرافية التاريخية، الصحاري المصرية في العصر الوسيط، القاهرة ١٩٨٧م.
(١٦) عبد العليم عبد الرحمن، محاصيل الحقل للصف الأول بالمدارس الثانوية الزراعية، وزارة التربية والتعليم ط ٢٠٠٨ / ٢٠٠٩م.
(١٧) عبد الله يوسف غنيم: جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، الكويت ١٩٨٠م.
(١٨) عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، ط١ ١٩٧٦م، دار المعارف.
(١٩) محجوب زيادة: الإسلام في في السودان، دار المعارف القاهرة ١٩٦٠م.
(٢٠) مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى القاهرة ١٩٦٠م.
(٢١) محمد صالح ضرار: تاريخ قبائل الحباب والحماسين بالسودان وإرتيريا، الدار السودانية للكتب، السودان ط١ ١٩٨٤م.
(٢٢) محمد عوض: السلالات والشعوب الأفريقية، القاهرة ١٩٦٥م.
: السودان الشمالي، سكانه وقبائله، القاهرة ١٩٥١م.
(٢٣) محمد محمود الصياد: السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٦م.
(٢٤) محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطى، ط٢ ١٩٩٦م.
(٢٥) مكي شبيكة: السودان عبر القرون، القاهرة ١٩٦٤م.
(٢٦) نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، القاهرة ١٩٠٣م.
(٢٧) نيقولا جريمال: تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر جريجاتي، راجعه د/ زكية طبوزادة، ط٣ القاهرة ١٩٩٣م.
(٢٨) كرم الصاوي باز: مصر والنوبة في عصر الولاة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ٢٠٠٦م.

رابعاً الدوريات:

٤- مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، المجلد ٢١ جـ ٢ ديسمبر ١٩٥٩م، طبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤م، المقال الأول، مصطفى محمد مسعد: البجة والعرب في العصور الوسطى.

٥- كتاب الأبحاث الصادر عن مؤتمر أسوان عبر العصور الفترة من (٣ - ٥ أبريل ٢٠٠١) إعداد وتقديم د/ عمر صابر عبد الجليل، ط١ أسوان ٢٠٠٢م، كلية الآداب بأسوان جامعة جنوب الوادي. المقال الثالث من المحور الثالث: أحمد حسين النمكي: أسوان وصحراء مصر الشرقية.

٦- كتاب الحدود المصرية والسودانية عبر التاريخ، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩م، تاريخ المصريين رقم ١٦٤، أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة (٢٠ - ٢١ ديسمبر ١٩٩٧م) إعداد د/ عبد العظيم رمضان.

مقال الجلسة الثالثة: أ. د/ رجب محمد عبد الحليم: ميناء عيذاب ووادي العلاقي وأثرهما في علاقة مصر بالسودان حتى نهاية القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي.

٧- حوليات إسلامية، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة. المجلد الحادي والعشرون القاهرة ١٩٥٨م، مقال حمادة محمد خير : ابن سليم الأسواني

٨- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد ٢١، العدد الأول، مايو ١٩٥٩م، سعاد ماهر محافظات الجمهورية العربية المتحدة في العصر الإسلامي.

رابعاً المراجع الأجنبية:

(1)ARKELL., A,J: History of The Soudan form The carliest Times to 1821, London 1961.

(٢) Bloss, J.F.E, the story of suakin" S. N. XX, part II, 1936

(3) c\f: Crawford,o.g.s The Fung Kingdom Of Sennar. Glouse. Cter 1951

(4) c\f: Crawford,o.g.s"The ston Tombs of theN.e.sudan, kush, No. 2,1954

(٥)Gardiner, A, H., Ancient Egytian Onomastica, Oxford, 1947.

(6) John of Ephesus: Ecclessiastical History. Book IV ., part III, ed. by Payn smith

(7)Kammerer,A : le mer Roug A Travers Les Ages.Paris 1925

(8)Kees, H., Beitrage zur Altagyptischen porvinzialverrwaltung und der Geschictedes feudalismus, 1932
(9) Kirwan, l.p: studies in the later History of Nubia. Liverpool Annals of Archaeology and poplogy, vol., XXIV 1937
(10) Meyer, Ed, Geschte des Altertums, Stuttgart, Berlin, 1921.
(11) Paul, A.,: A History of the Beja Trilxs of the Sudan, Camal,, idge 1954

(12) Salders,the Bisharin. Sudan notes and Records, vol, vll, 1929
(13) Seligman: "some Aspects of The Hametc problem in the Anglo Egyptian Sudan" J. R. A. S. No 43, 1913
(14) Trimingham, J.s: Islam in the sudan, lonbon, 1949.
Trimingham,j.S.: Iislam in Ethiopia,

(١٥) Urkunden d. Sethe, K, es alten Reichs, Leipzig, 1932
(16) Weigall, A. E. P., A Report on the Antiquities of lower Nubia, Oxford, 1907

خامساً مواقع الانترنت:

(1) http: //beja.topgoo.net
(2) WWW. Rookn .com
(٣) WWW.sudaneseonline.com

المحتوى	رقم الصفحة

أولا ملخص الرسالة باللغة العربية

الرسالة : أربعة فصول سبقت بمقدمة وعرض لأهم المصادر والمراجع المستخدمة

الفصل الاول: (جغرافية البجة وأصولهم) ، ويحتوى على المواطن وجغرافيته ، ثم اصل المصطلح ومصدره ، والأصل السلالى للبجة ، ثم المعتقد ولغة الاقليم .

الفصل الثانى : (المظاهر السياسية للبجة) وتنقسم الى مظاهر خارجية وأخرى داخلية اشتملت المظاهر الخارجية على سياسة البجة من بداية الفتح العربى مرورا بعهد الولاة والدولة الطولونية حتى سقوط الدولة الفاطمية اما داخليا فتشمل النظم الادارية والسياسية الداخلية للبحة من نظم حكم وإدارة .

الفصل الثالث : (المظاهر الاقتصادية للبجة) ويشمل الزراعة والرعى والثروة الحيوانية ، والصناعة ، والموارد الاولية ، والتجارة بعناصرها داخليا وخارجيا

الفصل الرابع (المظاهر الاجتماعية للبجة) ويشمل عناصر السكان وطبقات المجتمع من بجه وعرب واهم العادات والتقاليد التى كان يمارسها البحة فى جوانب الحياة .

ثم ختمت الرسالة بمجموعة من الملاحق والصور وقائمة لأهم المصادر والمراجع والدوريات والفهرست .

The Master summary in English:

Master : four chapters preceded the introduction and prese ntation of the main sources used .

Chapter I :- (Baja geographical origins)

Contained : a home and then out of the term geography and its source , and origin of racia list Baja then belief and language of the province.

Chapter I I :- (Political aspects of the Baja)

Divided into aspects of external and other internal , Which included appearances foreign policy Baja . beginning of the Arab conquest , through the covenant of the governors and the state tulunid until the fall of the Fatimid state . the internally include administrative systems and the internal politics of Baja of governance and management .

Chapter III :- (Economic aspects of Baja)

Includes agriculture , irrigation , grazing and livestock , industry ,raw materials and trade internally and externally .

Chapter II II :- (Social aspects of Baja)

Includes elements of the population and layers of society from Beja and Arabs , and the most important customs and traditions that were practiced by the Beja in the aspects of life .

Then It ended with a group of supplements photo and alist of key sources and references , periodicals and the index .

بسم الله الرحمن الرحيم

" يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين

صدق الله العظيم

سورة آل عمران : آية ١٧١